

عصير الكتب
للنشر والتوزيع

الإرث المحظور



الكتـــــاب :الإرث المحظور

المـــؤلـــف :حصة الحواي

تـدقيـق لغـوي: نرمين عياد

تنسيـق داخلي : سمر محمد

الطبعة الأولى: أغسطس 2019

رقـــم الإيـــداع : 2019/11811

978-977-992-043-6 : I.S.B.N

المدير العام:محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار



الإرث المحظور

الحكاية التي سبقت نبوءات الشتاء والصيف بأربعمائة عامٍ

حصة الحواي





إهداء

إلى كل قارئٍ مفتون بالخيال..

إلى مَن يفهمني منهم..



الفصل الأول
أمير اليراعات

كانت النيران مشتعلة على امتداد بصره.. انفجاراتٌ وأشلاء تتطاير في كل بقعة.. الدماء تختلط مع الغبار على الوجوه التي تعلوها عيون جاحظة متسعة رعبًا من الموت.. الصرخات في كل مكان.. والأقدام الحافية تعدو بعكس اتجاهه.. أما هو.. فيقف ليتأمل كل هذا في صدمة.. فأكبر المباني المحترقة هي قصره.. وأصحاب الصرخات والوجوه المُغبرَّة هم سكان مدينته..

كيف حدث هذا؟! يظل يتساءل.. حتى تتراءى له يراعة مضيئة لا يدري من أين أتت.. تحوم حوله.. وتصبح رؤيته ضبابية فيمد يده ليبعدها عن مجال رؤيته.. ولكن رؤيته تزداد سطوعًا حتى لا يرى إلا البياض.. ثم يشعر بالحرارة تحيطه من كل جنب.. حرارة تستحيل إلى نار حارقة تبدأ بإحراقه من الداخل! يشعر بقلبه يشتعل! ثم ينفجر! حينها يستيقظ مذعورًا.. ولا يزول ذعره حتى بعد إدراكه بأنّ هذا حلم.. بل يزداد خوفًا.. لأنه يرى هذا الحلم في كل ليلة.. كل ليلة.. بل في كل غفوة.

ظل جالسًا في سريره زائغ العينين.. ينظر إلى ما حوله وكأنه يحاول تذكر مَن يكون.. متجاهلًا -دون قصد- تلك الواقفة على الباب تقدحه بنظرات اعتادها؛ نظرات تبدو من علوٍّ دائمًا.. لأنها لا تحني رأسها حتى لمَلكها.. وفي كل مرة يرى رقبتها المرفوعة كان يتساءل: «هل تفعل هذا لأنها تخشى سقوط التاج الذهبي؟» ولكنه لم يتجرأ بالسؤال قط.

اقتربت، توقفت على بعد خطوات من سريره.. ثم أيقظته من سرحانه بصوتها البارد القوي: «عربتك في انتظارك.. لكن حاول ألا تتأخر في عودتك؛ فاليوم حفل وداع ميست».

نهض واقفًا كالمفزوع: «هل وصلت العربة بالفعل؟! ما زال الوقت مبكرًا جدًّا!»

لم ترد جوابًا، بل استدارت نحو الباب، تجرجر معها ثوبها الملكي الطويل.. أما هو، فسارع بقرع الجرس لينادي الخدم الذين كانوا عند الباب بالفعل، يحملون آنية الماء والعطور والثياب الملكية المنمّقة.. استعدادًا لخروجه.

لم يمر وقت طويل حتى كان في عربته، يشق طريقه نحو جهة اعتاد زيارتها كثيرًا.. جهة غير مأهولة في غرب مملكته الصحراوية، ليس فيها سوى كهوف أزلية ليس فيها أي شيء، ولا يفعل فيها سوى الجلوس وتأمل هذا اللا شيء.. وكان هذا أحد أسباب اللقب الذي صار يُعرف به - لقب يعرفه جميع مَن في مملكته ما عداه «إيدن.. الملك المعتوه».

في مملكة أخرى، لا يغطي أي جزء منها الرمال، بل تحيطها غابات وجبال لا تظهر قممها من كثرة احتشاد الغيوم.. وقرب شرفة قلعة شاهقة تطل على إحدى هذه القمم، توقفت أميرة بتاج لؤلؤي، تتهامس مع شاب أحنى رأسه في احترام وهو يستمع إلى مطلًبها:

- كما أخبرتك يا نايت؛ ادَّعِ بأنك قد انتهيت من ختم طلبات البضائع وأنك أرسلتها جميعًا، ولن يعلم أحد بأنك رفضت هذا الطلب».

- وماذا أقول للأميرة بريشيليا إنْ تساءلت عن سبب عدم وصول خيوطها الذهبية؟ ستغضب كثيرًا إنْ علمت بأني لم أرسل طلبها.

- تصرف، اختلق أي كذبة.. ولكن لا تضع ختمك على طلبٍ تافه كهذا أبدًا.

أومأ احترامًا، ثم استدار منصرفًا.. كان نايت هو المسؤول المالي للقلعة، وختمه مطلوب على كل طلبات البضائع الصادرة من القلعة، وكل الواردات.

مرت لحظات تأملت فيها أميرة التاج اللؤلؤي القمم الدخانية قبل أنْ تلتفت نحو اليد التي أخذت تجرها من ثوبها.

- أوفيليا! ألن نلعب الشطرنج؟

انحنت نحوه بابتسامة واسعة -رغم أنها لا تفوقه طولًا لدرجة الانحناء-: «بالتأكيد سنلعب يا عزيزي آرون».

تبعته، كان آرون الأمير الأصغر.. صبي في العاشرة، تفوقه هي بسبع سنواتٍ من العمر.

وقبل أنْ تجلس قبالة طاولة الشطرنج، أشارت للخادمة التي تقف عند الباب فاقتربت الأخيرة، سألتها: «أين الخادمة آيريس؟»

أجابت الخادمة: «لم تأتِ اليوم أيتها الأميرة.. هل أرسل مَن يستدعيها؟»

«لا بأس». قالتها ثم تنهدت بعمق إثر اقتراب خطوات سريعة الوقع تعرفها جيدًا.. التفتت نحو شقيقتها الكبرى، بريشيليا، التي وقفت تمطرها بنظرات الغضب، «هل فعلتِها ثانية؟! أعلم جيدًا أنك مَن يعطي الأوامر بالتخلص من الطلبات الخاصة بي! لقد وضعتُ مَن يراقب طلبي هذه المرة.. وأخبرني بأنه ما زال في مكانه في انتظار أنْ يُرمى في القمامة!»

«لا شأن لي بطلباتك». قالتها بهدوء وهي تلتفت نحو رقعة الشطرنج، وتشرع بترتيب القطع.

عادت بريشيليا لتزمجر غاضبة: «مَن تظنين نفسك؟! لستِ الملكة ولا حتى الأميرة الكبرى! أنتِ لا تفعلين هذا إلا بدافع غيرتك وحقدك الدفين!»

- قُلت لكِ بأنّ لا شأن لي بطلباتك.

- لستِ سوى أميرة صغيرة سينتهي بها الأمر بالخروج من هذه القلعة لتصير زوجة أحد الأمراء التافهين في مدينة أخرى! أنتِ لا شيء!

بالهدوء ذاته أجابت أوفيليا: «لا تخلطي بيني وبينك».

زمجرت بريشيليا غضبًا وهي تستدير مبتعدة، لم تكُن قادرة على احتمال برود أعصاب شقيقتها وردودها الاستفزازية. صاحت قبل أنْ تغادر الحجرة: «لمَ أزعج نفسي بالحديث معكِ؟! عليَّ أنْ أتصرف بنفسي».

لم ترد أوفيليا جوابًا، بل أمعنت في الرقعة متأملة حركة آرون الأولى، ثم حركت جنديها الأول بدورها.

في ذات العاصمة المحصورة بين الجبال الدخانية، وفي أحد الأحياء المتهالكة فقرًا، سار شاب بين البيوت الطينية، يحمل بين يديه كتابًا أحكم القبض عليه كي لا يقع على الأرضية الرطبة أو يُنتشل من قِبل أحد الأطفال الحفاة الذين يملؤون الشارع ويرمقون المارة بعيون مسلوبة البراءة.

لم يكُن هذا الشاب دخيلًا على الحي، ولكنه كان الوحيد الذي يسير بهندام نظيفٍ وكتاب. توقف أمام أحد البيوت، متأملًا صاحبة الشعر المبعثر وهيَ منهمكة برسم أشكالٍ مختلفة على الأرضية الطينية.

اقترب، فنهضت تركض نحوه بابتسامة واسعة، «سيسيل!»

ابتسم بدوره، وربت على رأسها في حنان: «لقد أحضرتُ لكِ شيئًا لذيذًا».

اتسعت ابتسامتها وتلألأت عيناها في انتظار ما سيخرجه من جيبه. رغم أنها أكملت عامها الثاني عشر، فإنّ عقلها ما زال عقل طفلة في الرابعة، فقد وُلِدت مع اضطراب عقليّ جعلها حبيسة في عقل طفلة السنوات الأربع إلى الأبد.

ناولها قطعة كعك ملفوفة بالورق، فَهمَّت بفتحها والتهامها وهي تتمتم: «شكرًا سيسيل! لذيذة!» لكن سعادتها لم تدُم، فسرعان ما غزا الخوف نظراتها عند اقتراب والدتها الغاضبة: «ما الذي تفعلينه؟! ألم تذهبي إلى القلعة بعد؟!»

التفت سيسيل نحو المرأة المتدثرة بثياب ضاعت ملامحها وسط الرُقع الملونة، امرأة في الأربعين.. ولكن الشيب غزا شعرها كأنها تجاوزت الستين.. وكذلك جعلتها التجاعيد.

استوقفها سيسيل، بينما كانت على وشك صفع الصغيرة: «أنا مَن طلب منها التغيّب اليوم.. آيريس غير مضطرة إلى العمل في القلعة».

ابتسمت في سخرية وهي تصيح فيه: «حقًا؟! ستتزوج حضرتك وتنعزل في صومعة القضاة قريبًا ولن نراك بعدها.. هل نأكل الحجارة حينها؟!»

شعر بغصة في داخله وهو يدرك مدى صحة كلامها، فهو لا يعلم ما الذي سيحدث بعد أنْ يبدأ تلك العزلة.

- ربما لن أستطيع المجيء إلى هنا.. ولكن زوجتي ستكون حرة.. وسأحرص على أنْ تأتيكم بالطعام.

- وكأني أثق بك حتى أثق بزوجتك التي لا أعلم مَن ستكون حتى.

وللمرة الثانية، يشعر بصحة كلامها.. فحتى هو لا يعلم هوية هذه الزوجة القادمة! فكونه قد سلّم نفسه لصومعة القضاة، يتحتم عليه التخلي عن كل شيء.. بما في ذلك قرار الزواج وهوية مَن يتزوج.

أخذ نفسًا عميقًا قبل أنْ يردف: «هل تظنين بأني سأترك شقيقتي تتضور جوعًا؟ أليست السبب وراء انتسابي لصومعة القضاة؟ لم أتخذ هذا القرار إلا لإيجاد علاج لمرضها».

- إنْ كان هناك علاج كان سيجده غيرك! هذا ليس سوى مبرر لإسكات ضميرك! انتسابك لصومعة القضاة لا يعكس سوى طموحك الأعمى الذي لن يوصلك إلى أي شيء.. لا أدري أي عقل خاوٍ تملك! أنت مُعدم بالفعل، ورغم ذلك تنتسب إلى مكان يسلبك كل شيء لديك بما في ذلك قراراتك! تبيع نفسك مِن أجل لا شيء على الإطلاق!

- سيكون ذلك لسبع سنوات فقط.. وبعدها سيكون لي علمٌ لا يقف أمامه شيء.. وحُكم يسري على الملوك.

أطلقت ضحكة هازئة عبرت عن ألم وحزن دفينين: «العلم لن يجني الذهب.. والفقراء لا حكم لهم على أي شيء.. الصومعة تَدّعي بأنها تستقبل الجميع وتساوي بينهم.. ولكن وحدهم أبناء الأغنياء مَن يخرجون كحكماء.. الفقراء يتلاشون مع الوقت فحسب».

- هذا ما يحدث للفقراء الأغبياء.. وهم وحدهم يتحملون مسؤولية فقرهم.. فالذكي -مهما كانت ظروفه- لا يجلس ليتحسر على حاله، بل ينتهز كل فرصة ليقهر فقره ويحكم العالم.

- طموحك المخزي بلغ حد الضحك.. لا أدري أين تظن نفسك تعيش.. اذهب واحكم العالم.. ولا ترجع باكيًا حين يسقط أول ستار ليكشف لك حقيقة الظلم في هذا العالم.

تجاوزته لتدلف إلى داخل البيت، ومن فرجة الباب الخشبي العتيق، لمح سيسيل والده الجالس في الداخل، يتكئ على كرسيه في صمت، بينما يرمق العالم بنظرات خاوية.

كان يبدو أصغر سنًا من والدته، ورغم ذلك، سيطر اللون الأزرق على جفونه ليضفي عليه هيئة مرعبة.

لم يقترب منه سيسيل منذ أنْ علم أنه قد رسم ذلك الوشم على ذراعه.. كان يُدعَى بوشم الجنة.. وهو شبيه بما يتعلمه من وشوم سحرية في صومعة القضاة.. ولكنه كان الوشم الوحيد الذي يجيد العامة رسمه.. فعندما تضيق الحياة بأحدهم إلى حد رغبته بالتخلي عن حياته، يرسم وشم الجنة على ذراعه ليتيه في عالم آخر من الهلوسات الجميلة.. هلوسات تحيله إلى جثة مرمية ينتمي عقلها إلى عالم آخر، وبهذا يرتاح المرء من همومه إلى حين قدوم ساعة وفاته.

كان سيسيل يحتقر كل مَن يختار هذه النهاية لنفسه، نهاية تجمع الضعف ودناءة النفس والفشل والغباء. ورغم علمه بأنّ هناك وشمًا

عكسيًا يمكن أنّ يزيل أثر هذا الوشم، فإنه لم يعبأ حتى بالبحث والسؤال عنه، فهو يؤيد تمامًا قرار صومعة القضاة في الامتناع عن علاج مَن يختار هذا المصير لنفسه.

أدار سيسيل وجهه إلى آيريس، وابتسم لها ليعيد لها ابتسامتها: «سأستبدل ملابسي وأعود».

في مساء اليوم، وفي قصر الرمال، وقف إيدن متظاهرًا بالشموخ -دون جدوى- بين المُرائين من عائلته الملكية وكبار الرجال من عاصمته. كان صامتًا، يجول بناظره بينهم، ويحاول تجاهل كل من يأتيه محاولًا الحديث معه. الجميع يرتدي أجمل ما يملك ويتزين بالذهب.. وفي كل بقعة من الصالة الكبيرة يلمع الذهب.. يزين الجدران والثريات والموائد والرؤوس والحناجر والأطراف. وحتى رأسه هو كان مزينًا بتاج ذهبي يكره ثقله، ولكنه مرغم على وضعه لأنه الملك.

لمح زوجته ليلاك بتاجها الذهبي الشامخ من بعيد، تقف لتتبادل حديثًا متوترًا مع شقيقه ميست الذي عُقِد هذا الحفل لوداعه. كيف علم بأنّ حديثهما متوتر؟ مِن التجعيدة المرتسمة بين حاجبيها التي تظهر دُون شعورها حين تتوتر. ولماذا قد تتوتر ليلاك؟ لا يعلم.. ولا يهتم حتى.

تنبهت ليلاك إلى تأملاته، ولم تهتم -لعلمها أنه لا يهتم- فتابعت حديثها مع ميست الذي كان يصغي لها في هدوء. كان ميست هو

الشقيق الأصغر لإيدن. كلاهما نحاسي البشرة أسود الشعر.. ولكن كل شيء آخر كان يختلف.

- خوفي يتعاظم كلما اقترب موعد رحيلك.. لا أدري كيف سأقدر على تحمل مسؤولية المملكة وحدي.

- ستقدرين.. وستصبرين حتى عودتي.

- سبع سنواتٍ.. أنتَ تتحدث عن سبع سنواتٍ كاملة!

- أعلم.. ولكن لا يمكن أنْ يتبدل أي شيء الآن.

- أحقًا لا يمكنك أنْ تأتي للزيارة خلال تلك المدة؟ أنت أمير.. ينبغي لهم أنْ يطوّعوا بعض قوانينهم من أجل شخص مثلك.

- لن أكون أميرًا حين أدخل صومعة القضاة.. بل سأكون فقيرًا مجردًا من كل شيء.. لقد اتخذت قراري وعليَّ احترام قوانينهم؛ بل ينبغي لي أنْ أشكرهم لأنهم سيستقبلون أميرًا من مملكة أخرى بينهم.. فعلى حد علمي، سأكون المغترب الوحيد هناك.

- أشعر بأني سأقف وحدي وسط عاصفة هوجاء سترديني قتيلة قبل عودتك.

- لا تبالغي في خوفك يا ليلاك.. أعلم أنّ الأمر صعب، ولكنك تتحملين نصف المسؤوليات بالفعل، عليكِ أنْ تكوني أقوى حتى تقفي إلى جانبي حين أعود.

أخذت ليلاك نفسًا عميقًا، ثم سرعان ما ارتسمت تجعيدة جبينها مجددًا وهي تلمح إيدن من بعيد، ينسحب من الحفل مغادرًا الصالة.

همست قبل أنْ تسرع نحو البوابة لتلحق به: «لن يتعلم قواعد الضيافة أبدًا.. سأذهب لأعيده إلى القاعة».

في الصباح التالي، وفي قلعة القمم الدخانية، هب نايت واقفًا في حجرة الأختام الخاصة به حين رأى بريشيليا عند الباب. أومأ احترامًا، بينما اقتربت لتقول بلهجة آمرة: «سُيختَم هذا الطلب ويُرسَل اليوم.. أهذا مفهوم؟»

قالتها ومدت يدها بمستند جديد لطلب مئة ألف متر من خيوط التطريز المطلية بالذهب الخالص.

تناول المُستند منها، وقبل أنْ تستدير مبتعدة استوقفها: «سأضع الختم ولكن لا يمكن إرسال الطلب اليوم».

- لماذا؟!

- لقد تحركت السفينة فجرًا.. ولكني سأحتفظ بهذا الطلب وسأرسله مع دفعة الطلبات القادمة.

- ومتى سيكون هذا؟!

- بعد ثلاثة شهور.

ضيقت عينيها في غضب وهي تقاطعه: «أنت تعاندني وحسب!»

- هذا غير صحيح أيتها الأميرة.. كل ما في الأمر أنّ السفينة تتجه إلى مملكة الصحاري.. إنها مسافة طويلة جدًّا.

- إنْ كان الأمر هكذا، ضع ختمك على الطلب حالًا وأعطني المُستند، وسأتولى بنفسي أمر إيصاله.

- مِن غير المسموح أنْ تُرسَل طلبات القلعة منفردة أيتها الأميرة.

أطلقت زفرة عميقة وهي تتأفف في ضيق: «هل ستجادلني إلى الأبد أيها الوقح؟ ضع الختم حالًا وإلا سأجعل أبي يرميك في الزنزانة!»

- ماذا عن سعر البضاعة؟ لا يمكن دفعه من ميزانية القلعة إنْ أرسلتِه بنفسك.

- أنا آخذ ما أريد من الأموال وقتما أشاء!

لم يرد جوابًا، فقد أظهر وقاحة كافية حتى اللحظة.. ولم يُرد أنْ يجادل أكثر فتبلغ الملك ويُعاقَب لأمر تافه. ولهذا، قرر أنه سيفعل ما تريده وحسب. ولم ترتسم الابتسامة على وجهها حتى تناولت المستند المختوم، ثم خرجت وهي غير قادرة على حبس سعادتها.

سارت مسرعة متجهة إلى جناحها، ولحقت بها وصيفتها العجوز التي كانت تنتظرها. وما إنْ دلفت بريشيليا إلى حجرتها حتى أخذت تقفز في سعادة.

صاحت وهي تقبض على المستند: «لقد حصلت على الختم وسآتي بالخيوط الذهبية! سأطرز لوحة أحلامي!»

بدت الابتسامة على وجه العجوز، وقبل أنْ تفتح فمها بالسؤال، قبضت بريشيليا على يدها وهي تقول: «وستأخذين أنتِ المستند إلى مملكة الصحاري! أنا لا أثق إلا بك!»

غابت ابتسامة العجوز واتسعت عيناها دهشة: «آخذ المستند؟!»

- أرجوكِ يا إيفي! لا تجادليني أنتِ الأخرى!

- ولكن هذا الأمر خطير يا أميرتي.. ما سيحدث هو أني سأتعرض لقُطَّاع الطُرق.. يُسرق المستند ويُسرق الختم، ثم يكشف والدك الأمر ونُعاقَب جميعًا، يجب أنْ نلتزم بقوانين القلعة.

غابت ابتسامة بريشيليا، بينما عاد الضيق ليظهر في عينيها: «لقد تعبت! نفد صبري! كل شيء ممنوع ولا أحد يستمع إليَّ!»

أخفضت إيفي ناظريها وهي تزم شفتيها في حيرة، تراجعت بريشيليا لتجلس على طرف سريرها وقد تبدل صوتها كصوت الموشك على البكاء: «ألستُ الأميرة الكبرى؟ لماذا لا يحصل ما أريد؟! لماذا أعيش كالسجينة؟! لن تكون لي كلمة مسموعة حتى أصبح الملكة.. ولا أظن بأني سأصبح الملكة ما دامت أوفيليا الخبيثة في هذه القلعة!»

ربتت إيفي على كتف بريشيليا التي التمعت عيناها بالدموع، همست: «بل يمكن أنْ تخرجي من سجنك هذا بسهولة.. لقد أحضرت لكِ نبأً سعيدًا.. هناك فرصة يمكن أنْ تستغليها لتصيري أميرة حرة في قصر آخر».

صاحت فيها بريشيليا، وهي غير قادرة على التحكم في الدموع التي بدأت تنساب على وجنتيها: «أتزوج أميرًا أبله؟! هذا ما تنتظره أوفيليا لتشمت بي!»

جلست إيفي إلى جوارها: «كفي عن التفكير بالأميرة أوفيليا.. إنها تسعى لتكون الملكة ولا شك في أنها ستكون.. تنص قوانين القلعة على أنّ الحكم ينتقل إلى الأمير الأكبر سنًا.. ولكن هذه ليست قاعدة حتمية، فالحكم يمكن أنْ ينتقل إلى الأمير الأصغر أيضًا إنْ كان يظهر كفاءة أكبر.. لا يمكننا غض البصر عن الحقائق يا عزيزتي فالأميرة أوفيليا هي المرشحة الأقوى.. ولكن هل السلطة هي ما تريدينه حقًا؟ السلطة تناسب أوفيليا جدًّا.. أما أنتِ.. فروحك لا تسعى سوى إلى الحرية والسعادة.. ولذلك لا تخجلي من إظهار هذا الأمر ولا تسعي وراء شيء لن يوصلك إلى ما تريدين!»

– وهل الزواج سيجعلني حرة؟ أخشى أنْ يحدث العكس!

– أنتِ مَن يحدد هذا! لقد سمعت من الخادمات شائعات عن قدوم شقيق الملك إيدن إلى عاصمتنا.. هذا هو الأمير المناسب الذي أعنيه.. ليس ملِكًا ولا مرشحًا لعرش، ومِن ثَمَّ ستكونين حرة لا تحملين أي عبء لمسؤوليات المملكة.. ثم إنه أمير ثري لمملكة الصحاري المليئة بمناجم الذهب.. ستعيشين في رخاء حقيقي.

– وماذا إنْ كان سيئ الخلق أو قبيحًا أو معتوهًا كشقيقه؟

ارتسمت ابتسامة على وجه إيفي: «هل تظنين بأنّ هذا يهم حقًا؟ ستكونان منشغلين عن بعضكما طوال الوقت.. كما يحدث مع كل

الزواجات الملكية التي شهدتها طوال سنوات عمري.. هو ليس إلا جسرًا إلى الحرية والثراء».

صمتت بريشيليا هنيهة وهي تتأمل حديث وصيفتها، كان ما قالته الوصيفة يلامس أعماقها وأفكارها التي تكره البوح بها، فهي بالفعل تكره المسؤوليات ولا تتمنى إلا التخلص من سطوة شقيقتها لتحصل على كل ما تريد. كانت دموعها قد توقفت، التفتت إلى إيفي: «ومتى سيأتي هذا الأمير؟»

- لا أدري تحديدًا.. لكن الملك أمرنا بتجهيز وليمة لاستقباله.. وستبدأ التجهيزات خلال هذا الأسبوع.

اتسعت عينا بريشيليا: «سيكون هناك حفل استقبال في القلعة؟!»

- هذا ما سمعته.

«إذًا عليَّ أنْ أستعد لذلك! يجب أنْ أكون الأجمل دُون نزاع!» وتلاشى الضيق من عينيها ليحل محله الحماس.

قبيل الظهيرة، وتحت السماء المفعمة بالغيوم -كعادة الطقس في مملكة القمم الدخانية- توقف سيسيل قبالة سور معدني عتيق أُحيطَ بأذرع نباتية امتدت خلاله، ثم قرع الجرس الكبير على البوابة. ومِن حجرة صغيرة منفردة قرب السور، لمح الحارس العجوز قادمًا بخطواته البطيئة. ألقى سيسيل نظرة على المبنى الذي يتوسط الساحة المسوّرة، وشعر بأنفاسه تهدأ رويدًا رويدًا هو يدرك أنّ هذا

البناء يليق بالفقر الطافح من هيأته. لقد قضى وقتًا طويلًا وهو يبحث في خزانته المتهالكة عن ثياب تصلح لأول لقاء مع مَن ستكون زوجته، فثياب صومعة القضاة لا يُسمَح له بارتدائها إلا هناك، ولذا اضطر إلى ارتداء معطفه الأزرق الأفضل حالًا من سواه، ولكنه ظل يفكر في كيفية التعامل مع نظرات الازدراء حين ترى الفتاة اللون الأزرق الذي استحال إلى رمادي من القِدَم. ارتسمت على وجهه ابتسامة خافتة وهو يفكر: «بالتأكيد سيختارون لي فتاة من طبقتي.. لا أدري ماذا كنت أتوقع!»

همَّ سيسيل باستخراج الرسالة التي تحمل ختم صومعة القضاة من جيبه، ثم انتظر لحظات حتى ينتهي صرير البوابة الأبدي وهي تُفتَح. رفع الحارس ناظره إليه متسائلًا، فناوله سيسيل الرسالة.

حملق الحارس في الرسالة للحظات ثم همهم: «تفضل.. تفضل.. لولا صومعة القضاة لما خرجت أي فتاة من ملجأ الأيتام هذا». لم يرد سيسيل جوابًا، بل تَبِعه وهو يحاول تجاهل بذرة التوتر التي بدأت تنبض في داخله مجددًا.

توقف الحارس عند باب المبنى الرئيسي، لتفتح له سيدة في منتصف العمر، بدت على وجهها ابتسامة مشرقة. لم تسأل عن شيء، فهي تعرف معنى الرسالة التي في يد الحارس: «أهلًا بك! أنت سيسيل، صحيح؟»

أجاب: «نعم.. وأنا هنا لرؤية الآنسـ..».

قاطعته: «أعلم بذلك، فيولا تنتظرك في الحديقة خارجًا.. اتبعني».

تَبِعها إلى خلف المبنى، حيث وجد بعض الكراسي الخشبية المطلة على حوض زهور صغير. وعلى أحد هذه الكراسي، جلست الفتاة المنشودة.

اتسعت ابتسامة مديرة الملجأ وهي تقول: «سأترككما وحدكما لتتعارفا». ثم استدارت عائدة إلى داخل المبنى.

هبت الفتاة واقفة: «تفضل بالجلوس أرجوك!»

رفع طرفه ليلمح فتاة هزيلة البنية.. طويلة الشعر.. لها عيون متلألئة ذكرته فورًا ببراءة شقيقته آيريس. تابع سيره ليجلس على الكرسي المجاور لكرسيها، ثم جلست بدورها والتفتت تتأمله في فضول. قالت بعد هنيهة من الصمت: «لا أصدق أنك أتيت أخيرًا! هل حقًا سأكون زوجتك؟! أنا سعيدة جدًّا! لا يمكن أنْ أصف لك سعادتي!»

ارتسمت على وجهه ابتسامة وهو يقول في هدوء: «هل الحياة في داخل الملجأ بهذا السوء؟»

ارتسمت تكشيرة طفولية على جبينها وهي تجيب في عتاب: «أنا سعيدة لأني سأكون زوجتك وليس لأني سأخرج من الملجأ!»

اتسعت ابتسامته: «حقًا؟ ماذا تعرفين عني حتى تكوني سعيدة إلى هذه الدرجة؟»

رفعت ناظرها إلى السماء متأملة وهي تهمس: «لقد قرأت سجلك في المجلد الذي تحتفظ به المديرة وترشح على أساسه الفتاة

المناسبة.. أتذكر ما كُتِب عنك.. شاب من الطبقة الفقيرة.. طالب علم مثابر وطيب القلب».

فكر، «أهذا كل شيء؟ إنّ هذه الفتاة ليست سوى طفلة سئمت حياتها وتريد التجديد مهما كانت صورته»، ثم تابع بالابتسامة الهادئة ذاتها: «ولكني لا أعرف شيئًا عنكِ.. عرفيني عن نفسك».

أخذت شهيقًا عميقًا ثم قالت: «اسمي فيولا.. عمري عشرون عامًا.. اجتماعية جدًّا وأحب تكوين الصداقات.. جميع الفتيات في الملجأ هن صديقاتي.. ولكني لا أطيق الدراسة».

- ألا تقرئين؟

«لا أطيق الكتب.. ولا أعرف كيف أكتب اسمي». ثم أطلقت ضحكة عالية وكأنها فخورة بإنجازها.

أزاح سيسيل ناظره عنها هنيهة مفكرًا، «إذًا.. سأتزوج فتاة ساذجة.. ولكنها على الأقل تملك روح طفلة بريئة ومرحة». ولم يعلم كم كان مخطئًا؛ ففيولا لم تكُن بريئة.. لم تملك روح طفلة.. لم تكُن مرحة.. لم تملك صديقة واحدة في الملجأ.. وكان لها قلب مضطرب وعقل يمتلئ جنونًا.

الفصل الثاني
الحصان والملك

في قصر الرمال، وحول منضدة مستديرة تزينها الزخرفات الذهبية، جلس مجموعة من الرجال نبتت في وجوه أغلبهم التجاعيد، وبرفقتهم، جلست ليلاك، تنوب عن إيدن الذي تهرَّب من الاجتماع كعادته.

كانت الأنظار منصبة على صاحب العينين الذابلتين والحواجب الكثة وهو يقول بلهجة كشفت توتره: «يجب أنْ نتخذ القرار بسرعة يا مولاتي.. فقد ارتفعت أسعار المياه وبدأ الأهالي بالتذمر.. إنْ لم نتصرف.. فسينفد مخزوننا قريبًا!»

تدخل آخر: «لقد اجتمعنا عدة مرات حتى الآن من أجل هذه القضية.. وفي كل مرة يكون الحل هو حفر المزيد من الآبار! لقد حفرنا في كل مكان بلا فائدة.. لم يبقَ سوى الجزء الغربي من المملكة».

سأله الجالس قبالته: «هل تعني الصحاري الغربية؟»

التقت عيونهما بينما أجابه: «أنت تعرف ما أعنيه.. أعني الكهوف التي تخبئ في داخلها عيونًا غزيرة».

أشاح سائله عينيه عنه وهو يأخذ نفسًا عميقًا قبل أنْ يجيب: «لقد سبق أنْ رفض الملك الاقتراب من هذه الكهوف.. لا فائدة من طرح حلول لا يمكن تطبيقها».

أجابت ليلاك: «كان هذا عندما لم تكُن القضية بهذه الأهمية.. سأتكفل أنا بإقناعه».

لم يعجبه ردها، قال باقتضاب: «لا أظن أنك ستنجحين في إقناعه يا مولاتي».

- سأبذل جهدي.

- لقد سبق أنْ حاولتُ إقناعه بالأمر وفشلت.. ولهذا أرى أنّ لا فائدة ترجى من إعادة المحاولة.

رمقته بنظرة طويلة أدرك -كلاهما- معناها، فقد أراد إهانتها بما قال، كونها لا يمكن لها أنْ تنجح فيما فشل هو به.. هو مستشار الملك الذي له عند الملك مكانة تعلوها أهمية.

نهضت من مقعدها: «كما قلت لكم.. سأبذل جهدي في إقناعه وأخبركم بالقرار غدًا».

انصرفت من قاعة الاجتماع متجهة نحو جناح الملك.. بدت تجعيدة جبينها أعمق من المعتاد، فكلما تجاهلت ذلك المستشار عاد ليستفزها.. ولكن لا وقت للتفاهات.. ولذا اندفعت إلى حجرة الملك الذي كان يقف مبهوتًا جوار فراشه. أغلقت الباب وراءها ثم سارت نحوه لتقول بهدوء: «إيدن.. يجب أنْ نتحدث عـ..».

وبترت عبارتها حينما التفت لها بعيون متسعة ليقاطعها: «اقتربي وألقي نظرة يا ليلاك.. اقتربي».

رمقته بنظرة مستنكرة.. ثم اقتربت: «ماذا هناك؟»

أشار بسبابته لوسادته: «الأجنحة المضيئة.. إنها أسفل الوسادة.. أزيحي الوسادة لتصدقيني».

- أي أجنحة؟!

- أجنحة اليراعة المضيئة التي تزورني في الأحلام دائمًا!

رفعت الوسادة ولم يكُن أسفلها أي شيء.. رفعت ناظرها إليه في استنكار.

دفعها ثم هَمَّ ببعثرة الأغطية: «أين اختفت؟! لقد رأيتها ولمستها بيدي! ربما تكون قد سقطت بين الأغطية! ابحثي معي!»

زفرت بعمق وهي تقبض على ذراعه لتوقفه: «إيدن.. كف عن هذا».

- ولكن.. الأجنحة! أقسم لك أنها كانت هنا!

- فلتذهب الأجنحة إلى الجحيم! هناك ما هو أهم لنتحدث عنه.

ارتسمت على وجهه تكشيرة وهو يقول في انكسار: «أنت لا تصدقينني! كم مرة قصصت ذلك الحلم لكِ لكنكِ تنسينه فورًا ولا تعيرينني أي اهتمام».

انتظرت حتى يكمل عبارته ثم قالت بحدة: «سكان العاصمة على وشك الموت ظمأً.. يجب أنْ تسمح بالتنقيب عن المياه في الكهوف الغربية.. هذا آخر ما تبقى لنا من حلول».

انتفض وكأنّ ثعبانًا لدغه، صاح فيها: «لا أحد يلمس الكهوف!»

- ألم تسمع الجزء الأول من عبارتي؟ سكان عاصمتك سيموتون ظمأً!

ازدرد ريقه وهو يسترد هدوءه قليلًا، «لا يمكن أنْ يموتوا ظمأً بينما نملك مناجم تفيض بالذهب».

- وما الذي سنفعله بالذهب؟

- نشتري به ماء من مملكة القمم الدخانية! لديهم فائض من المياه ولدينا فائض من الذهب.. لماذا لا نتقايض؟

صمتت هنيهة، ثم أجابت باستنكار: «نشتري.. الماء؟! أنت تمزح.. صحيح؟»

كان يعلم بمدى غباء اقتراحه، ولكنه كان يريد أنْ يتخلص من هذا الجدال وحسب.

أجاب: «سنجعلهم يبنون قنوات بين المملكتين.. ويمدوننا خلالها بالمياه العذبة من شلالاتهم الغزيرة».

- ونبعثر الثروة الوحيدة التي نملكها من أجل ذلك؟ الذهب يبقى ويزداد قيمة! ولكن المياه تُستهلك وتنتهي!

- وهل نترك السكان يموتون عطشًا لنحافظ على الذهب؟

تأففت في ضجر: «توقف عن الجدال الملتوي وحدثني بالمنطق! لا ينبغي أنّ نحل المشكلة بخلق أخرى».

عاد ليرفع نبرته: «مهما يكُن.. لن تُمَسَّ الكهوف! أنتِ لا تفهمين أهميتها ولا يمكن أنّ تفهمي!»

- أفهِمني إذًا! أخبرني لمَ تقدس هذه الكهوف!

- هناك إحساس يراودني بقوة عن أهميتها.. وأنتِ لن تفهمي ما أشعر به أبدًا.

- إذًا فالكهوف مُهمة لأنك تشعر بأنها مُهمة؟ لا فائدة من النقاش معك حقًا.

- أخبرتكِ بأنكِ لن تفهمي!

ولكنها استدارت لتخرج متجاهلة إياه.. مدركة أنّ إنهاء الحوار هنا أفضل من الانخراط في جدال يتجه إلى منحى أكثر تجريحًا.

كان تنفسها سريعًا، وقلبها ينبض بقوة إثر انفعالها الداخلي الذي تخفيه بامتياز ولا يشي به شيء سوى تجعيدة جبينها.

خرجت من جناح الملك ونزلت درجات كثيرة.. كانت وجهتها قبو القصر.. لم تكُن قد زارت هذا المكان من قبل، ولكن ميست قد رحل.. ويجب أنّ تتابع القضية التي وكلها بها قبل رحيله، ففي هذا القبو يقطن سجين أكد ميست شدة أهميته وضرورة متابعة نتائج التحقيق معه.

في أحد ممرات قلعة القمم الدخانية، توقف نايت يتابع جدال الشقيقتين. كان الموكل بتوزيع تكاليف حفل الاستقبال القادم، ولم يعرف ما يفعل حين جاءته بريشيليا لتطالبه بتخصيص نصف تلك الميزانية من أجل تجهيزاتها الخاصة، ولذا أخبر أوفيليا لتتولى الأمر.

كانت أوفيليا تنوي إخبار الملك دُون أنْ تصطدم مع بريشيليا، ولكن الأخيرة كانت تتوقع الأمر، ولذا أوقفت أوفيليا وهي في طريقها إلى جناح والدها.

كانت بريشيليا تهمس في غضب: «تنتظرين أي شيء لتفتعلي المشاكل من وراء ظهري! أخبريني! ما الذي تريدينه؟!»

أجابت الأخرى: «ما دُمتِ تخشين أنْ يعلم والدنا بالأمر فأنتِ تعترفين بأنكِ مخطئة».

-أنا أميرة! ولا خطأ في أنْ أتزين وأبدو جميلة! إنْ كنتِ تخشين أنْ أسرق عنكِ الأنظار افعلي مثلي وارتدي شيئًا براقًا غير أثواب الراهبات!

- هل تظنين حقًا أني أعارض تبذيركِ لأني لا أريد أنْ تسرقي عني الأنظار؟

- بالطبع، أنتِ تشعرين بالغيرة من كل شيء أفعله! تشعرين بالغيرة لأني أعيش كأميرة حقيقية.

كانت أوفيليا تنظر إلى الأرضية الرخامية بينما تسترسل بريشيليا في حديثها..

- سأختار ما أحب من المجوهرات والحرير وأتزين وأتزوج أميرًا يعطيني قصرًا ويغرقني بالذهب.. أما أنتِ.. تابعي الحفر وراء الآخرين واسهري الليالي أرقًا وتظاهري بأنكِ الملكة المثقلة بالهموم.

- حسنًا، سأفعل.. بالمناسبة، أهنئك على قرار الزواج.. كنتَ تريدين أنْ أتزوج أنا وأهاجر من هذه القلعة.. ولكن ما إنْ سمعتِ بقدوم الأمير ميست حتى قررتِ أنكِ تريدين الزواج! قرار سليم.

- أعلم أنكِ تحترقين في داخلك وإنْ تظاهرتِ باللامبالاة.

- صحيح.. أكاد أنفجر غيظًا.

تدخل نايت ليقاطعهما في هدوء: «أرجوكما.. يجب أنْ نجد حلًا وسطًا».

التفتت إليه بريشيليا لتقول في غل: «اخرس أنت! سأحرص أشد الحرص على ألا أخرج من هذه القلعة قبل إلقائك في الزنزانة!»

تجاوزتهما لتقف على باب الجناح: «سأذهب بنفسي وأطلب من أبي أنْ يخصص لي من خزينته الخاصة.. يمكنكما الانصراف لتقسيم ميزانية الحفل كما تريدان!»

كانت تعلم أنّ لا حل سوى أنْ تسبق الجميع في إعلام والدها بمطالبها، ولذلك، قررت أنْ توقف أوفيليا هذه المرة وتسلبها هذه الفرصة الذهبية في تحريض والدها ضدها.

دلفت بريشيليا إلى الداخل، وفي الحجرة الملكية، وجدت والدها يجلس في شرفته، يتصفح كتابًا ضخمًا بين يديه، بينما يرشف من المشروب الساخن جواره.

رفع حدقتيه الزرقاوين إليها بينما أشرقت ابتسامة واسعة على وجهه الذي تغطيه لحية سوداء كبيرة.

همس: «بريشيليا عزيزتي.. أهلًا بك».

كان وجهها متجهمًا، اقتربت لتجلس على الكرسي المقابل له، همست: «أبي.. أنا لا أعرف كيف أشرح لك الأمر».

كانت تعرف كيف تكسب عاطفته، لم تذكر أنها حزينة لأنها لم تستطِع الحصول على نصف ميزانية الحفل، بل أخبرته بأنها لم تكُن تعلم بأمر الحفل فاستهلكت ما كان معها من مال، ولذا فهي بحاجة إلى مال من خزينته الخاصة. وحين لاحظت استجابته، تجرأت لاستخراج مستند الخيوط الذهبية من طية كُمِّها.. وطلبت منه أنْ يُرسله مع أحد الخدم إلى مملكة الصحاري.

ولأنها الابنة المدللة، فقد وافق والدها على إرسال المستند وعلى إعطائها ما يعادل ميزانية الحفل كاملًا.

***

في قبو قصر الرمال، نزلت ليلاك الدرجات ثم اتجهت إلى الحجرة الأولى التي يقطنها رئيس الزنزانات. هب واقفًا حين رآها على بابه..

- أهلًا بك يا مولاتي.

أومأت ردًا على تحيته، ثم بادرت بالسؤال: «ما الذي حدث مع سجين ميست؟ هل أفصح عما لديه؟»

أشاح الرئيس ناظريه بعيدًا.. مفكرًا في كيفية صياغة جواب مناسب..

قالت في حيرة: «لقد تعرض لتعذيب شديد ورغم ذلك ما زال يرفض الاعتراف؟! أي ولاء يملك هذا الجاسوس!»

همس الرئيس: «لقد فقد عينًا.. كان مستعدًا للموت وما كان سيتكلم أبدًا».

- لكنكم تملكون طرقًا أخرى.. التعذيب الجسدي هو المرحلة الأولى وحسب.

لم يرد جوابًا، فعادت لتسأل: «ما بك؟ هل مات؟!»

رفع الرئيس ناظره قليلًا وهو يهمس: «لا يا مولاتي.. ولكن تم الإفراج عنه».

اتسعت عيناها في دهشة بينما تبدّى الخوف في لهجتها، «أفرجتم عن سجين كهذا؟! ك.. كيف؟! ومتى حدث هذا؟!»

في خجل أردف: «أمرني الملك بنفسه بالإفراج عن هذا السجين فور رحيل الأمير ميست.. تعلمين أنّ الملك أمر بالإفراج عنه منذ زمن ولكن الأمير كان عنيدًا.. ولهذا قرر الملك أنْ يستغل غيابه».

ازدردت ليلاك ريقها وهي تهمس في خوف: «هل تعلم ما يمكن أنّ يسببه هذا السجين؟! إنه جاسوس خطير! لقد قبض عليه ميست وهو ينسخ مستندات سرية تخص عُدّتنا العسكرية!»

- أعلم أيتها الملكة.. ولكني لا أستطيع رفض أمر الملك.. كاد يجن جنونه حين رأى حالة السجين.. لقد أشفَقَ عليه بشدة.

أخذت شهيقًا عميقًا محاولة إخفاء رجفة أطرافها.. همست قبل أنّ تنصرف: «فهمت». صعدت الدرجات في هدوء بينما عصفت في عقلها زوابع من المخاوف، «إيدن سيقضي علينا بقراراته الغبية.. يجب أنّ يعود ميست.. لو ظل في صومعة القضاة لعاد ليجد مملكته قد تحولت أنقاضًا.. يجب أنّ يعود ليوقف هذا المعتوه المختل». وإلى حجرتها الخاصة اتجهت، ثم شرعت بكتابة رسالة.

قرب المساء، وفي حجرة الأمير الصغير.. جلست أوفيليا قبالة رقعة الشطرنج بينما تعلو وجهها ابتسامة واسعة.. لقد حاصرت الملك الخاص بآرون تمامًا.. ألقت نظرة خاطفة على وجه آرون المتجهم.. ثم حركت حصانها لتطيح بالملك.

لم يكونا وحدهما، فخلف أوفيليا، وقفت آيريس تحملق في رقعة الشطرنج.. تتابع بعينيها كل تحركاتهما.. ورغم معرفة أوفيليا باضطراب النمو الذي تعانيه آيريس، فإنها قد فوجئت بمَلَكَة الحفظ لديها بعد فترة بسيطة من البدء في خدمتها.. كان فهم آيريس بطيئًا.. ولكنها كانت قادرة على تذكر كل التحركات على رقعة

الشطرنج من مجرد متابعة المباراة بعينيها.. ولهذا، قررت أوفيليا استغلال هذه الموهبة لتطوير إستراتيجياتها.. فأمرت آيريس بمتابعة أشواط اللعب ثم تدوين كل ذلك في أوراقٍ تحتفظ بها في مكتبتها.. بالطبع، لم تكُن آيريس تدون شيئًا كونها لا تجيد الكتابة أو القراءة، ولكنها كانت ترسم باحترافية.

قال آرون بينما لا تزال عينيه معلقتين بمَلِكه المهزوم: «لقد قرأتُ مرة إنّ الحصان هو الضربة القاضية للمحترفين.. أنتِ تفوزين بالحصان دائمًا.. أما أنا.. فأول ما أفقده هو الحصان!»

ضحِكت: «كل محترف له أساليبه الخاصة.. هناك مِن المحترفين مَن يفوز بالملك دائمًا.. تخيل.. بالملك وحده».

التمعت في عينيه نظرة تحدٍّ، «أريد أنْ يكون لدي هذا الأسلوب من الاحتراف! الفوز بالملك فقط!»

سألته: «هل تريد اللعب من جديد؟»

- أود ذلك.. لكن عليَّ أنْ أرى طيوري.. سنلعب غدًا.

بدت نظرة استغراب على وجهها، قالت: «إذًا فما سمعته صحيح.. أنت تربّي طيور البوم!»

أجاب وقد اتسعت ابتسامته: «نعم! تعالي معي لأريكِ إياهم! إنهم رائعين!»

ابتسمت، «فيما بعد يا عزيزي فيما بعد! هناك ما يشغلني».

- أنتِ منشغلة دائمًا.. ورغم ذلك تلعبين الشطرنج معي كل يوم.

«لا بُدَّ من تخصيص بعض الوقت لشقيقي الغالي»، قالتها وهي تباغته بقرصة في وجنته لم ينجح بتفاديها.

في ذلك اليوم، قضى آرون المساء برفقة طيوره، أما أوفيليا، فقضته في حجرة مظلمة تحتل عليّة القلعة.. بين شموع سوداء وكتب ضخمة مصفرَّة الصفحات.



الفصل الثالث
أمير الطين

في بهو القصر الواسع، وتحت القبة المنحوتة بالذهب.. سارت ليلاك جيئة وذهابًا.. غير قادرة على منع ارتجاف أوصالها.. لقد مرت سبعة أيام منذ أنْ أرسلت رسالتها السرية برفقة إحدى خادمات القصر.. كان من المفترض أنْ يصلها الرد سريعًا، فالخادمة اتجهت إلى الطريق الذي خرجت إليه عربة ميست.. ولم يكُن ميست يبعد أكثر عن مسيرة يوم واحد من العاصمة.

قررت أنها ستصبر، ولكنها أدركت أنّ رسالتها لم تصل حين فوجئت بقرار زوجها الملك هذا الصباح.. فقد قرر منع أي رسالة تخرج من القصر دُون أنْ يطَّلِع عليها بنفسه.. وقرر أنّ كل خادمة وحارس سيتم تفتيشهم عند البوابة.. تعلم تمامًا أنّ هذه القرارات ليست قراراته الشخصية؛ بل هي قرارات مُستشاره ريجان.. ولذلك كانت تنتفض غضبًا.

سمعت أصوات الخطوات القادمة، فأدركت أنّ إيدن قد عاد من رحلته إلى الكهوف.. لم تكُن تنتظره، بل كانت تنتظر ريجان الذي يرافقه إلى كل مكان.

اتجه إيدن إلى جناحه مباشرة، وكان ريجان وراءه، فأوقفته بحزم: «ريجان.. اتبعني إلى مجلس الاجتماعات الصغير».

توقف، ثم همس لمَلِكِه: «اعذرني يا مولاي.. سأعود لاحقًا».

لحق بليلاك التي سرعان ما كانت تجلس حول منضدة الاجتماعات.. تعلو وجهها نظرة غضب واضحة رغم هدوئها الظاهري.

قال: «مولاتي.. ماذا هناك؟»

أجابت بصوتها البارد: «اجلس أولًا».

سحب له مقعدًا، وجلس، ثم رفع ناظره إليها في تساؤل.

رمقته بنظراتها الحادة بينما همست: «مَن تظن نفسك؟ أخبرني».

- مُستشار الملك.. وهذه حقيقة وليست بِظَن.

كانت تحفظ أسلوب حديثه عن ظهر قلب، فتابعت دُون أنْ تنتفض لوقاحته: «أين الخادمة ريتا؟»

- المعذرة يا مولاتي.. ولكني لستُ المسؤول عن معرفة مواعيد عمل الخادمات.

أخذت نفسًا عميقًا، تابعت: «سألتك عن خادمة واحدة.. وأنت تعرف مكانها لأنك اختطفتها بينما كانت في طريقها لإيصال رسالتي».

أخفض ناظره ليرمق انعكاس وجهه على المنضدة الزجاجية، همس: «اممم.. أنا اختطفت خادمة اسمها ريتا؟»

- صحيح.. وسأكون ممتنة إنّ توقفت عن الاستغباء حتى لا نضيع وقتنا.. كلانا يعلم بأننا نفهم بعضنا جيدًا.

رفع ناظره إليها ليرمقها بذات نظرتها، «تعلمين أنّ استغبائي لصالحك يا مولاتي ورغم ذلك تحاسبينني! لو لم أتظاهر بالغباء لكان الملك إيدن يعرف كل شيء».

باستنكارٍ أجابت: «كل شيء؟ ماذا تقصد بكل شيء؟»

- أعني تآمُركِ مع الأمير ميست لسرقة العرش.

ارتسمت على وجهها ابتسامة ساخرة: «أهذا ما فسرت به رسالتي؟ هل تريد مني الجلوس ورؤية المملكة تنهار؟ الأمير ميست يملك عقلًا قادرًا على إدارة المملكة.. عودته ضرورية.. وليس في هذا استيلاء على عرش إيدن.. فليجلس على العرش كما يشاء.. ولكنه لن يتخذ القرارات لأنه غير مؤهل لذلك!»

ابتسم بدوره: «إذًا.. أنتِ ستسمحين له بوضع التاج فقط.. أما الحكم فسيكون بيد الأمير ميست.. وبهذا لن تكوني خائنة!»

- وماذا عما تفعله أنت؟ أنت تحكم بدلًا عن إيدن.. لمَ لا تعتبر نفسك خائنًا أيضًا؟

قال، بينما كشر في اعتراض: «أنا لا أحكم بدلًا من الملك! حتى وإنّ تدخلت في بعض الأمور من وراءٍ ظهره، فهدفي هو حمايته وحماية المملكة.. لكن من المُحال أنّ أتخذ قرارًا ضده أو أقنعه باتخاذ قرار خاطئ».

- حقًا؟ أين كنتَ حين أفرج عن الجاسوس إذًا؟ أين كنتَ حين أرسل إلى الملك ميرلين طلبًا ببناء قناة مائية تمتد ألفي ميل وبتكلفة مقدارها ثلاثمئة طن من الذهب؟!

- لم يقدم لنا الأمير ميست أي دليل على تورط ذلك السجين.. وأما القناة المائية، فهي الحل الأمثل رغم تكلفتها.. لا يمكننا أنْ نعتمد على بضعة ينابيع في الصحراء الغربية.. هذا إنْ كانت موجودة.

زفرت ليلاك بعمق: «بناء مثل هذه القناة قد يستغرق أكثر من عشرين سنة.. هل قمتم بأي دراسة قبل إرسال الرسائل والعروض إلى الملك ميرلين؟! هل تعلم ما هي الآثار المترتبة على مشروع كهذا؟!»

- لقد اقترحت على الملك أنْ يبدأ البناء من الجهتين.. يبني الملك إيدن من جهتنا.. ويبني الملك ميرلين من جهته.. وبهذا نقلص مدة البناء إلى النصف.. وحتى ذلك الحين سنفرض قوانين تحد من استهلاك المياه وسنشتري المياه عند الحاجة.

- حتى أنت تتحدث عن شراء المياه؟! خلتك تملك عقلًا! لكن يبدو أنّ إيدن قد نقل إليك عدوى الجنون.

بدا الانزعاج على وجه ريجان بينما اقترن حاجباه: «مولاتي.. من غير المسموح لأي كان أنْ ينعت الملك إيدن بالجنون! صحيح أنّ الملك يتخذ قرارات غير مدروسة في غالب الأحيان، ولكني أومن به جدًّا! قد لا نفهمه.. ولكنه ليس مجنونًا!»

- إذًا.. فأنت ترى بأنّ إيدن مؤهل وقادر على اتخاذ القرارات!

- بالطبع! ولكنه يحتاج بعض المشورة كجميع الملوك.. يجب أنْ تقفي إلى جانبه عوضًا عن التآمر عليه يا مولاتي.. أنا لن أسمح بأي مؤامرة على الملك ما دمتُ حيًّا.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجهها وهي تهب واقفة: «ولماذا لا تسرع بإخباره بأني أتآمر عليه لتتخلصا مني؟ ما الذي تنتظره؟»

- الملك رقيق المشاعر.. سوف يحزن بشدة إنْ أخبرته.. أعلم أنكِ عاجزة عن فعل أي شيء دُون الأمير ميست.. وما دمتُ قد قطعتُ طريق التواصل بينكما فلن يكون هناك مصدر للخطر.

لم يستطِع منع ابتسامته الهازئة التي جعلت ابتسامة ليلاك تتلاشى.

رمقته بنظراتها الحارقة قبل أنْ تشيح بعينيها بعيدًا لتهمس: «يمكنك الانصراف».

همس: «بالمناسبة.. ريتا أتلفت الرسالة قبل أنْ أقرأها.. لكن تخميني كان صحيحًا بعد كل شيء».

أومأ، ثم انصرف.. تاركًا ليلاك وسط غضبها.

- يا لك من لعين!

سارت عدة خطوات نحو الشرفة.. فتحت المصراعين لتهب عليها نسمات المساء الباردة.. ورغم هذه النسمات، فإنها كانت تشعر باختناق وضيق جعلاها تتخذ قرارًا حَذّرها ميست كثيرًا من مجرد

التفكير فيه: «ستندم على اعتراض طريقي يا ريجان.. وستتمنى لو أنك تسببت بقتلي حين واتتك الفرصة».

بعد مرور عشرين يومًا آخرين.. وفي حجرة خشبية ترتفع ثلاثة طوابق، جلس سيسيل برفقة عدد ممن يرتدون ذات زيه ويستمعون إلى الشيخ الأشيب الذي وقف في الصدارة، يتحدث بصوته العميق البطيء:

- ستأتون برفقتي الليلة لنمثل صومعة القضاة في قلعة القمم الدخانية.. سنرحب برفيقنا الجديد.. الأمير ميست.

ارتفع صوت متسائلك «وكيف ينبغي لنا أنْ نرحب به؟»

أجابه الشيخ: «سترحبون به ترحيبًا يليق بأمير.. ولكنكم لن تنادوه بهذا اللقب غدًا.. الليلة هو الأمير ميست.. وغدًا هو الزميل ميست.. الذي يأكل الخبز اليابس وينام على القش».

مرت هنيهة من الصمت قبل أنْ يُردف: «وككل الزيارات الرسمية.. لن تأكلوا شيئًا.. لن تشربوا شيئًا.. لن تجلسوا.. وسترفضون أي دعوة من أي كان ولأي شيء كان.. لن تفعلوا سوى الوقوف وإلقاء التحية على النبلاء ومبادلتهم الحديث إنْ بادروا هم!»

رأى إيماءات التفهّم قبل أنْ يُنهي درسه، ثم نهض الزملاء كلٌ يحمل كتبه وينصرف في اتجاهٍ.

نزل سيسيل الدرجات الخشبية بينما ارتسم على وجهه تعبير من التجهم.. سار في الساحة الواسعة متجهًا إلى البوابة الكبيرة..

كان تصميم صومعة القضاة يوحي بأنها مكان صغير وفقير.. ولكنها كانت في الحقيقة أشبه بمدينة متكاملة.. فكان فيها بيوت وقاعات تدارس ومختبرات وأقبية.. وكان كل بيت خشبي فيها يرتفع عدة طوابق وينزل عن الأرض بطابق أو اثنين.

وتلك البوابة لم تكُن البوابة المؤدية إلى خارج الصومعة، بل كانت تؤدي إلى مساكن الطلبة.. وكانت البوابة الوحيدة التي يُسمح للطلاب بتجاوزها دُون إذن.

توقف سيسيل قبل تجاوز البوابة عند مبنى خشبي شبيه ببقية المباني، يعلو بابه النحت الذي ينتشر في كل أنحاء الصومعة.. نحت يرمز إلى شعار صومعة القضاة - البومة الغافية.

دلف سيسيل إلى الداخل متجهًا إلى اللوح الأسود ليضيف اسمه على قائمة الأسماء التي كتبها أصحابها بذات الطبشور الأبيض.. وقبل أنْ ينصرف، انحنى ليحمل الطبق المعدني المُغطى ببُردة بيضاء.. كانت تلك وجبة عشائه.

اقترب من البيت الخشبي الصغير على طرف السور ثم طرق الباب لتفتح له فيولا التي صارت زوجته منذ زمن قصير.. تناولت من يده الطبق المعدني وسبقته بالنزول.. كان قبو ذلك البيت هو مسكنهما.

وضع حقيبته التي كانت تثقل كتفه أرضًا.. ولم يكد يلتفت لها حتى وجدها قد كشفت الطبق المعدني وهمّت بغطس قطعة الخبز في وعاء الحساء.

«مهلًا يا فيولا». قالها وهو يقترب ليأخذ قطعة الخبز الأخرى وقطعة الجبن، ويلفهما بالملاءة..

«ألا تريدني أنْ آكل؟» قالتها بفم ممتلئ..

- أنا أخذت نصيبي وحسب.. لن أشاركك نصيبك.

- لكني أريد قطعة الجبن أيضًا.. أنا أتضور جوعًا!

قَسَم قطعة الجبن إلى نصفين، وناولها نصفًا، ثم عاد ليلف الملاءة حول ما تبقى من الطعام.

انتظرها حتى تنتهي من طعامها، ثم ناولها الصرة التي صنعها بالملاءة ورمقها بالنظرة التي تعرفها جيدًا.. وتظاهرت هي بالجهل كما تفعل في كل يوم.

- خذي هذا الطعام إلى آيريس.

- ولكنك لم تأكل!

- لا تقلقي.. أنا بخير.

تناولت الصرة ثم اتجهت إلى الخارج، نحو البوابة الأخرى التي تؤدي إلى خارج صومعة القضاة.

تأملها سيسيل هنيهة وهي مبتعدة، ليزداد وجهه تجهمًا.. «كانت تريد قطعة الجبن خاصتي.. ثم تظاهَرَت بالقلق لأني لم آكل!»

كان تناقضها يزعجه جدًّا.. ولكنه كان يشعر بشفقة كبيرة تجاهها.. لا بُدَّ أنها عاشت حياة عصيبة في ذلك الملجأ.. لقد نشأت

دُون أب وأم.. وربما كانت تنام الليالي جائعة.. ربما كانت تتعرض للضرب والإهانات.. والآن، تقع على عاتقه مهمة جعلها تشعر بالأمان والحب.. ولكن غباءها كان يقف عائقًا! كلما أراد أَنْ يحدثها بكلمة رقيقة.. صمت إثر تفوهها بأمر غبي.. كلما تجاهل أمرًا غبيًا فوجئ بآخر.. ولهذا.. بات حديثه معها أقصر.. وصار يتأخر في عودته ويرحل مبكرًا جدًّا.. لقد بدأ بوضع الحواجز بينهما رغم اعتراض ضميره.. أما هي، فلاحظت كل هذا لتصير أكثر عدائية وتظهر غباءً أكثر.. وبهذا تزداد الحواجز أكثر وأكثر!

لم تتأخر كثيرًا، وفور عودتها، وجدته ينام على فراش القش في زاوية القبو الصغير.. لم يكُن نومه عميقًا، وسمع نهنهتها وبكاءها في الزاوية الأخرى من القبو.. ولكنه لم يحرك ساكنًا.. بل واصل غفوته.. لقد اعتاد عادتها هذه.. ففي كل يوم، تقضي الليل في البكاء لسبب تافه.. لقد سألها سابقًا عن سبب بكائها وصار على علم بطبيعة هذه الأسباب.. واستنادًا على أسبابها السابقة، صار قادرًا على تكهن سبب البكاء لهذه الليلة.. يعلم جيدًا أنه لو استيقظ ليسألها عما بها، لصاحت وسط دموعها: «لقد تأخرتَ في عودتك اليوم حتى تجعلني أتضور جوعًا أكثر!» أو «لقد أخذتَ قطعة الجبن لعلمك بأني أحب هذا النوع من الجبن!» وبالطبع، سيكون الاتهام بالكراهية مرفق بهذه الأسباب دائمًا.. لم يملك المزاج والصبر ليبرر اتهامات كهذه.. ولذا اختار تجاهلها رغم صوت بكائها الذي يعلو لتتقصد به إيقاظه!

كانت الفوضى تعم حجرة بريشيليا حتى بدت وكأنها قد تعرضت لزلزال.. ولذا اندفعت بعض الخادمات للترتيب فور خروج بريشيليا بكامل زينتها متجهة إلى قاعة الكريستال التي عُقِد فيها حفل الاستقبال.

سارت مزهوة بفستانها المزركش ومجوهراتها اللامعة حتى بدت وكأنها قادمة إلى حفل زفافها.. كانت قد تعمّدت التأخر حتى يشهد الجميع وصولها لتلفت الأنظار أكثر.. وكان هذا ما حصل بالفعل، فحين خطت أولى خطواتها إلى القاعة، لم تخفَ عليها العيون المتسلطة عليها فاتسعت ابتسامتها وهي غير قادرة على إخفاء سعادتها.. كانت تدور بعينيها باحثة عن الأمير المنشود، حين لاحظت شقيقتها أوفيليا ترمقها في ثبات.. فكرت وهي تزيح ناظرها بعيدًا، «حتى في حفل مثل هذا ترتدي أثواب الراهبات».

تابعت سيرها بينما لحقتها وصيفتها العجوز بخطوتين.. همست لها: «أميرتي.. أترين الشاب صاحب البشرة النحاسية والدبوس الذهبي؟ إنه الأمير ميست».

أومأت بريشيليا وهي تدير ناظرها إلى تلك الزاوية.. وهناك، وجدته برفقة بعض ممن بدوا لها كحرّاس.. فسارت متجهة إليه مباشرة.

قالت بصوت هادئ قلّما تستخدمه: «أهلًا بك في مملكتنا أيها الأمير».

أومأ، ثم أجاب بالهدوء ذاته: «شكرًا لكِ.. لا بُدَّ أنكِ الأميرة بريشيليا».

- صحيح.. وكيف علمتَ بذلك؟

- أنتِ معروفة بجمالك الأخّاذ.

ضحكت: «إذًا.. فقد خمنتَ هويتي لأني الأجمل في هذه القاعة؟»

ابتسم: «صحيح».

ابتسمت بدورها: «تُرى ما الذي أتى بكَ إلى مملكتنا؟»

- لقد انتسبت إلى صومعة القضاة يا أميرتي.

تساءلت بحيرة: «صومعة.. ماذا؟»

بدت على وجهه الحيرة من جهلها، ولم يدرِ بمَ يرد.. وقبل أنْ ينطق بأي جواب، تدخلت أوفيليا التي اقتربت دُون أنْ يشعرا بها، «أتساءل عن سبب اتخاذك لقرار كهذا».

التفت ميست إليها: «منذ طفولتي وأنا أختار الخيارات الصعبة دائمًا.. تجذبني الطرق المفروشة بالأشواك».

كادت بريشيليا تنطق لتتساءل عن السبب، ولكن أوفيليا سبقتها: «أتفهمك.. أنت تشبهني من هذه الناحية».

شعرت بريشيليا بالغضب إزاء تقصد شقيقتها سرقة انتباه ميست بالكامل.. فبعد عشر ثوانٍ، بدا وكأنه نسيَ وجودها.. تراجعت عدة خطوات واستلت كأسًا من العصير من خادمة عابرة، ثم وقفت لتمطرهما بنظراتها منتظرة ابتعاد أوفيليا.. ولكن انتظارها لم يدُم.. وأما غضبها، فسرعان ما تلاشى حين سرق انتباهها شيء

آخر.. شيء أفقدها كل اهتمامها بالأمير الذي ارتدت الكثير من المجوهرات لأجله.

ابتعدت خطوات قليلة لتتوقف عند شاب يرتدي زيًا شبيهًا بزي الحرّاس.. يقف بينما يشبك يديه وراء ظهره.

سألته لتنتشله من سرحانه: «مَن أنت؟»

واكتفى بنظرة خاطفة قبل أنْ يعيد بصره إلى الأرض مجيبًا: «أنا من صومعة القضاة يا سيدتي».

- سيدتك؟ أنا أميرة أيها الحارس.

- عذرًا أيتها الأميرة.

بدا كمَن يريد الهرب من هذا الحديث.. وكان ما زاد فضولها نحوه هو عدم تعلق بصره بها.. كان يبدو وكأن عقله منشغل بما هو أكبر وأهم من حفل كهذا.

عادت لتسأل: «أيعقل أنك تحرس قلعتنا ولا تعرف أميرات هذه القلعة؟»

- لستُ حارسًا أيتها الأميرة.. أنا من صومعة القضاة.

انزعجت إثر ذكر صومعة القضاة التي لا تعرف ماهيتها.. ولكنها لم تسأل عنها فقد فطنت للتو أنّ جهلها بها سيدل على غبائها وحسب.. ولذا سألته عن أمر آخر: «ألا تملك اسمًا؟»

- اسمي هو سيسيل أيتها الأميرة.

تنبهت إلى نظرات وصيفتها وفهمتها.. ولكنها تجاهلتها.. ولذا جاءت تلك الوصيفة لتهمس لها بعد محاولاتها الفاشلة في صرفها عن محادثة سيسيل: «أميرتي.. يكفي هذا.. أطباق عشائك جاهزة.. هلمي إلى تناول العشاء».

وكادت الوصيفة تصفع نفسها حين عادت بريشيليا لتقول: «سيسيل.. هلم لتناول العشاء على منضدتي».

- هذا شرف لا أستحقه أيتها الأميرة، شكرًا للطفك.

- أنا أتناول إفطاري مع وصيفتي إيفي كل صباح.. ليس في هذا الأمر تشريف أو استحقاق.

- أقدر دعوتك حقًا.. ولكني لا أستطيع.

- لماذا؟!

- قوانين صومعة القضاة أيتها الأميرة.

انزعجت مجددًا إثر ذكر هذا الاسم الذي أجبرها على الصمت.. ارتسمت ابتسامة على وجهها قبل أنْ تنصرف إلى منضدتها: «لا بأس.. لنلتقي مجددًا يا سيسيل».

وما إنْ جلست حول تلك المنضدة حتى زفرت بعمق إثر همسات وصيفتها المتوترة: «ما كان عليكِ أنْ تعطيه أكبر من حجمه يا أميرتي.. كيف دعوته إلى طاولة عشائكِ؟! هذه الدعوة كان من المفترض أنْ تُوَجّه إلى الأمير ميست!»

زفرت بريشيليا مجددًا: «فليذهب الأمير ميست إلى الجحيم».

همست الوصيفة بصوت بادي الخوف: «أخفضي صوتكِ يا أميرتي!»

تناولت بريشيليا شوكتها وسكينها لتشرع بتقطيع قطعة اللحم في طبقها.. كان عقلها غائبًا.. تفكر بعمق تحت تأثير صدمة تعيشها لأول مرة في حياتها.. ما معنى مشاعر الحزن هذه التي اجتاحت قلبها فجأة؟ ما معنى أنّ تتجاهل الأمير الذي كانت تنتظره بلا أي سبب؟! وكيف يمكن أنّ تسطو على عقلها عينان لم تلتقيا بعينيها إلا للحظات؟ في تلك اللحظات.. صُدِمت بشيء لم تره من قبل.. نظرة خاطفة إلى عمقٍ لم تدرك أنّ له وجودًا من قبل.. عمق لا متناه في تلك العينين الشفافتين اللتين لا تلتفتان لأي بريق حولهما مهماً بلغ سطوعه.. ولأن وجهها كان من الوجوه سهلة القراءة، فقد أدركت أوفيليا مشاعر شقيقتها باستراق النظرات وحسب.. فكرت بينما ترشف رشفات من كأس الليمون في يدها: «إذًا.. هذا هو الأمير الذي جئتِ تبحثين عنه يا بريشيليا».

في تلك الليلة، ولأول مرة في حياتها، باتت بريشيليا ليلتها بينما تختنق بمشاعر الحزن التي فشلت في التعبير عنها بالبكاء أو الكلام.. ولكن الأمر كان جليًا لوصيفتها.. وكانت ترتعد خوفًا لأن بريشيليا وقعت في حب فتى الصومعة.. ولأنها تعلم بأنّ بريشيليا حمقاء وغبية.. ولأنها لاحظت نظرات أوفيليا المتفحصة.

ولم تكُن بريشيليا الوحيدة التي باتت ليلتها مختنقة بالحزن.. ففي البيت الطيني المتهالك، نامت آيريس خاوية المعدة.. يتقطع قلبها حزنًا لأن سيسيل وعدها بإرسال طعام العشاء لها كل ليلة ولم تحضر زوجته أي طعام منذ رحيله.





الفصل الرابع
البومة الغافية

ظهيرة اليوم التالي، وفور انتهاء الدرس، اندفع طلاب الصومعة إلى الساحة الصغرى لرؤية حدث لم يره أغلبهم من قبل، سيتم إحقاق العقاب لأحد السجناء القدامى بعد أنْ صدر الحكم بحقه أخيرًا.. وحين همَّ سيسيل باللحاق بهم، استوقفه معلمه الذي انتظر لحظة كهذه للانفراد به.

بدت علامات الدهشة على وجه سيسيل بينما يهمس معلمه: «قد يكون ما أطلبه غريبًا.. ولكن عليك أنْ تذهب إلى قلعة القمم الدخانية لبعض الأيام».

- أذهب إلى القلعة؟ بأي صفة؟

- بصفتك الحارس الشخصي للأميرة أوفيليا.

رفع سيسيل حاجبه في استنكار: «ولماذا أتغيب عن دروسي لأحرس الأميرة؟»

- لأنها أمَرَت بذلك.

- ظننتُ أنّ أوامر قلعة الحُكام لا تسري في صومعة القضاة.

- صحيح.. ونملك حق الرفض.. ولكني آمركَ بالذهاب.

- غدًا نبدأ التطبيق العملي لوشوم الشفاء.. وأنت تعلم أنّ وشوم الشفاء هي سبب انتسابي للصومعة!

تنهد الشيخ بعمق قبل أنْ يجيب: «سأحرص على أنْ أعوّض أي درس يفوتك».

لم تختفِ نظرات الدهشة والاستنكار من عيني سيسيل، فاقترب الشيخ منه خطوة ليهمس: «ما ستتعلمه هناك لا يقل أهمية عن دروس وشوم الشفاء.. أنت لن تذهب كحارس.. بل ستكون بومتنا الغافية».

ازدرد سيسيل ريقه وهو يدرك أنه سيذهب في مُهمة من أجل الصومعة..

تابع شيخه: «ستطير إلى قعر القلعة دُون أنْ تصدر أجنحتك أي صوت.. ستجلس صامتًا.. ستتظاهر بالغفوة بينما تسترق السمع.. وحين يحل الظلام، ستفتح عينيك لتبصر كل شيء وستدير رأسك في كل الاتجاهات حتى لا تفوّت أي زاوية.. ولن تنطق.. فالبوم لا ينعق إلا بعد الظفر بفريسته». ثم همس له ببعض الكلمات التي اتسعت عيون سيسيل دهشة إثرها؛ ولكنها أقنعته بضرورة قبول هذه المهمة.

وقبل أنْ ينصرف، سأل شيخه: «أتفهم مُهمتي.. ولكن لماذا قد تستدعيني الأميرة أوفيليا؟»

- لا علم لي بأسبابها.. ولا تهمنا هذه الأسباب.. فقط علينا أنْ نستغل فرصة الدخول إلى القلعة.

- هل أوفيليا هي الأميرة التي كانت ترتدي أطنانًا من المجوهرات ليلة البارحة؟

- لا، بل هي الأميرة التي كانت ترتدي ثوبًا يغطي ذراعيها ورقبتها وتخفي كفوفها بالقفازات السوداء.

حلت هنيهة من الصمت قبل أنْ يردف الشيخ: «إياك أنْ تصرف انتباهك إلى أمر خارج مهمتك.. لا تهمك أسبابها ولا تهمك هويتها.. فقط نفذ ما هو مطلوب منك».

أومأ سيسيل موافقًا، ثم نزل الدرجات الخشبية.. وما إنْ خرج إلى الساحة حتى رأى جمعًا عند منصة كبيرة كانت معدّة لتطبيق وشوم العقاب.

كانت المرة الأولى التي يشهد فيها تنفيذ حكم قضائي من الصومعة.. وكان السجين فتاة.. بالأصح، شابة تبدو في منتصف العشرينيات.. جثت على ركبتيها بينما غطت خصلات شعرها الفاحم وجهها، وخلفها، وقف أحد قضاة الصومعة، يهم برسم وشم العقاب على ظهرها المكشوف.

تساءل سيسيل عن كُنّه الذنب الذي ارتكبته تلك الشابة، وعن كُنّه العقاب الذي يتم وشمه على ظهرها، ولكنه لم يملك الوقت لهذه الأمور.. فاكتفى بنظرته العابرة ثم تابع سيره متجهًا إلى قبوه.

وقفت فيولا لترمق سيسيل وهو يجثو ليرتب كتبه ويفرغ حقيبته من أغلب محتوياتها.. تساءلت: «إلى أين أنت ذاهب؟»

رفع ناظره إليها ليرى نظرات التوتر والخوف بادية في عينيها..

أجاب: «سأقضي بعض الأيام في قلعة القمم الدخانية».

- لكن.. لماذا؟!

- سأعمل كحارس مؤقت.

لمح نظرات الخوف تتبدل إلى نظرات الغضب في أقل من ثانية.. قالت بصوت عصبي: «أنت مَن طلب هذا! صحيح؟»

- تعلمين أني لا أملك الحق في طلب شيء كهذا.

- كنت تحتفل مع الأميرات ليلة البارحة.. لا بُدَّ أنك أعجبت بإحداهن فقررت العمل هناك.. بالطبع! كيف ستنظر إلى وجهي بعد رؤية الأميرات الجميلات؟!

أطلق زفرة عميقة وهو يشيح ببصره عنها ليتابع لف بعض الأوراق في حزمة.

«لا شيء ترد به! أي أني محقة في ظني! وكيف لي أنْ أخطئ حيال أمر جليّ كهذا؟!»، أطلقت ضحكة ساخرة بينما التمعت عيونها بالدموع، «أنت تعاملني بهذه الطريقة لأني فتاة مسكينة وليس عندي من أشتكي إليه!»

وقف سيسيل ليرفع بصره نحوها: «لا تبكي لسبب لا وجود له يا فيولا.. تعلمين أنكِ مخطئة في ظنونك هذه».

- لستُ مخطئة! أنت تكرهني!

أخذ نفسًا عميقًا قبل أنْ يجيب بهدوء: «لا أكرهك.. ولستُ هناك من أجل الأميرات.. ولا أريد أنْ أكرر حديثي مئة مرة».

صمتت للحظة وهي ترمقه في غل.. عاد ليردف: «يجب أنْ أذهب الآن.. أرجوكِ.. انتبهي لنفسك ولا تنسي إيصال الطعام إلى آيريس كل مساء».

لم ترد جوابًا.. فعاد ليكرر: «لا تنسي إيصال الطعام إلى آيريس.. تعلمين أنها مريضة وليس في حوزتها أي طعام».

قالت مقاطعة إياه في حدة: «آيريس تعمل في القلعة! أليس كذلك؟!»

- صحيح.

- أي أنها تأكل أصنافًا مختلفة من الطعام في كل يوم.. تأكل ذات أطباق الأميرة.. ماذا كان اسمها؟

- ليست خادمة مقيمة.. ولذا لا تحصل على الطعام.. إنها فقط تجني أجرًا زهيدًا تتصرف به والدتي.

- ولكن ما كان اسم تلك الأميرة؟

- أوفيليا.. لمَ تسألين؟

- لا شيء.. اذهب.

كانت دموعها قد توقفت وحل تعبير من الوجوم على وجهها.

- سأذهب.. لكن عديني بأنكِ ستأخذين الطعام إلى آيريس في غيابي.

- أعدك.

ارتسمت ابتسامة خافتة أرغمها على وجهه.. همس: «شكرًا»، ثم خطا خطوتين في اتجاهها ليحتضنها.. ولكنها دفعته وتراجعت إلى الخلف كمَن يهرب من ضربة أو صفعة! لم يقُل شيئًا، بل استدار نحو الباب منصرفًا.

أما هي، فوقفت تراقبه وهو يبتعد، همست: «أعدك بأني سألقي كل بقايا الطعام في القمامة ولن أعطي لقمة واحدة لشقيقتك البلهاء».

صباح اليوم التالي، وفي الحجرة الكبيرة التي ينام فيها الحراس، جلس سيسيل على حافة سريره، يغلق أزرار قميصه الجديد.. ويحكم ربط خيوط الحذاء الأسود طويل العنق.. الآن بات يبدو مثل حُرّاس القلعة تمامًا.

قاده رفيق له إلى بهو القلعة، وهناك وجدها في انتظاره.. أوفيليا.. الأميرة القصيرة ذات الثياب المحتشمة جدًّا.. التي لا تتزين إلا بتاجها اللؤلؤي.

لم يُطِل النظر إلى عينيها، انحنى ليقول في احترام: «أيتها الأميرة.. أنا رهن خدمتك».

ابتسمت: «أنت.. سيسيل، صحيح؟»

- نعم أيتها الأميرة.

- هل تعرف مهامك؟

- نعم أيتها الأميرة.. سأكون حارسك الشخصي لبضعة أيامٍ.

- هل تعلم لمَ اخترتك؟

- لا أعلم أيتها الأميرة.

- هل يهمك أنْ تعلم؟

- ما يهمني هو القيام بواجبي وحسب.

ابتسمت: «جيد.. اتبعني إذًا».

ولم تكد تتجاوز البهو حتى استوقفها المسؤول المالي للقلعة.. نايت.. اقترب، ثم أومأ احترامًا: «أميرتي».

- ماذا هناك يا نايت؟

رفع بصره نحو سيسيل كإشارة لها لتصرفه.. التفتت إلى سيسيل لتهمس له: «دعنا وحدنا قليلاً».

فأومأ احترامًا وابتعد ليقف في الناحية الأخرى من البهو.

همست أوفيليا: «ماذا هناك؟»

أجاب وعيناه لا تفارقان سيسيل: «لمَ هذا الشاب هنا يا أميرتي؟»

- هذا ليس من شؤونك.

- لا أقصد التدخل فيما لا يعنيني.. ولكنه من صومعة القضاة يا أميرتي.. ينبغي لكِ أنْ تكوني حذِرة.

- أحذر من ماذا تحديدًا؟

- إنه قادر على أذيتك.. تعلمين الوشوم الشيطانية التي يتعلمونها في صومعة القضاة.. إنْ انفرد بك ورسم شيئًا من هذه الوشوم على أي جزء منك ستكون نهايتك!

- أعلم ما يقدر طلاب صومعة القضاة على فعله.. ولكنه لن يفعل شيئًا.. كُن مطمئنًا.

- هل تسمحين لي بمراقبته عن بُعد؟ لن ألفت نظره لي.

«افعل ما شئت». قالتها ثم أشارت لسيسيل باتباعها، واتجهت إلى قاعة الطعام حيث جلس والدها وبريشيليا وآرون.

جلست على مقعدها بينما وقف سيسيل خارجًا عند الباب.. ولكن بريشيليا لمحته وعرفت هويته.. ولم يفُت أوفيليا تعبير الرعب الذي ارتسم في عيني بريشيليا.. الرعب الذي لا تجدي معه الكلمات.. الرعب المكتوم الذي يُعاقب ضحيته إنْ نطق به. فكرت بينما تتناول شوكتها وسكينها، «أخيرًا ستذوقين مرارة الكتمان».

لم تكُن بريشيليا مخطئة حينما اتهمت أوفيليا بالغيرة سابقًا.. كانت أوفيليا تشعر بغيرة شديدة تجاهها.. ولكن تلك الغيرة لم تكُن من جمالها.. لم تكُن من تحررها.. لم تكُن من إسرافها.. لم تكُن من راحة بالها.. بل كانت لسبب آخر لا يخطر على بال أحد.. كانت تشعر بالغيرة من بريشيليا لأن الأخيرة لا تغار منها! وتحديدًا.. لأن بريشيليا لم تفكر في كيفية إبعاد أوفيليا عن عرش والدها الذي تضمن الحصول عليه رغم أنها ليست الوريثة الكبرى! كانت تتمنى أنْ ترى التحدي وأنّ تقاتل شقيقتها الكبرى لتثبت أنها الأحق.. كانت تتمنى

أنْ تحمل هموم المملكة بينما يواسيها حسد الآخرين على الأقل.. ولكن بريشيليا لم تقاتل من أجل سلبها هذه المسؤوليات.. كانت تعلم بأنّ أوفيليا هي الملكة القادمة.. ولم تعترض.. لم تهتم ولم تظهر أي غيرة!

***

في قبو حصن قديم وسط الصحراء الشرقية.. جلست ليلاك برفقة رجلين يرتديان السواد.. كانا ملثمين، ولم ترَ سوى أعينهم النفاذّة.

تحدث أحدهما: «تُرى.. ما الذي دفع الملكة إلى استدعائنا؟»

رفعت ناظرها إليه، وتعلقت بجزء من الثانية بالقلادة التي يرتديها.. التي تنتهي بريش أبيض قصير ومنتوف.

أجابت بتساؤل: «إذًا.. أنتَ الصيّاد؟»

أجاب الملثم، الذي لم يميزه عن رفيقه سوى عينيه الزرقاوين المائلتين إلى الشفافية: «صحيح.. هذا هو لقبي».

مرت لحظات من الصمت قبل أنْ تردف في ثبات: «أريد منكم خدمة.. ولكم أنْ تطلبوا ما تريدون من الذهب».

- وما هي؟

- غدًا.. سيذهب الملك إيدن إلى الكهوف الغربية كعادته وسيكون معه جمع صغير من الحُراس.

صمتت هنيهة وهي تدير عينيها بينهما، ثم أردفت: «سُيقتل الحُرّاس.. وسيُختطف الملك ومستشاره.. ويُسجنان في مكان لا يعلمه أحد».

- مِن السهل تنفيذ ذلك.. ولكن هل لكِ أنْ تشرحي لنا أسبابك؟

- لِمَ تهمك أسبابي؟

- نحن لا نقتل من أجل الذهب وحسب.. بل من أجل إحقاق العدالة.. لا نرتكب الظلم أبدًا.

- الملك إيدن معتوه حقًا كما يُعرف عنه.. ولا يستطيع إدارة المملكة.

- يبدو سببًا قويًا.

- يرفض استغلال الكهوف الغربية لسد حاجات الشعب من المياه.

- لنا مصادر أكدت لنا صحة هذا الأمر.

ابتسمت بينما ارتفع حاجبها: «إذًا.. أنت مقتنع بأسبابي».

- سنتساوم على الذهب بعد تنفيذ المهمة.

أومأت، ثم وقفت لتراقبهما وهما يبتعدان. اتسعت ابتسامتها وهي تفكر: «ستأتيك الضربة من حيث لا تتوقع يا ريجان».

حول طاولة كبيرة.. وفي إحدى قاعات الاجتماع في قلعة القمم الدخانية.. جلست أوفيليا برفقة ثلاثة لم يجتمعوا منذ زمن. ولكن انتباههم جميعًا كان منصبًا على الأعور الذي تغطي الضمادات يديه.. لم يكُن أعورَ حين غادرهم آخر مرة.. ولكن زنزانة قصر الرمال أفقدته عينه وبعض أصابعه.

قال بصوت اكتسب بحة جديدة: «مملكة الصحاري ليست بالقوة التي قدرناها يا ملكتي».

كان يناديها بالملكة كرفيقيه.. ورغم أنّ والدها ما يزال يشغل ذلك العرش، فإنهم بايعوها بالولاء منذ زمن..

تابع: «يملكون الكثير من الذهب.. ولكن عدتهم العسكرية لا تستحق أنْ تسمى عدة عسكرية».

تدخلت أوفيليا بالسؤال: «كم عدد جنودهم؟»

- عشرة آلاف جندي.. بينهم ألف فارس وألفين من المشاة.. وسبعة آلاف من الرماة.

بدت الدهشة في عيني أوفيليا: «ما هذه التركيبة الغريبة!»

أجاب: «لا أدري.. ولكني لا أظن أنّ هناك من دبّر أو خطط لها.. بل هي نتيجة إهمال وتقاعس».

تدخل الرجل الجالس بجانبه، والذي ميزه لونه الأسمر الشبيه بالمعدن المحترق: «ولكن.. ألا يمكن أنْ تكون هذه تركيبة تقصّدها ريجان؟»

أجابه الأعور بالثقة ذاتها: «ريجان لم يَعُد القائد العسكري الأول.. لقد عُزِل عن مهمته هذه ليصير مُستشار الملك إيدن.. أو بالأحرى.. مرافقه الذي يقضي يومه في التسلية وزيارة الكهوف».

فقالت أوفيليا: «عقلية جبارة كهذه تُعزَل عن قيادة الجيش! إيدن هذا.. معتوه حقًا».

- لو كان يملك ذرة من العقل لما كنتُ أجلس بينكم الآن.

تدخلت في الحديث امرأة بدت في الثلاثين، لها شعر أحمر قصير ووجه دائري ممتلئ: «إذًا.. لدينا مملكة يحكمها معتوه.. يحرسها جيش صغير أغلبه من الرماة.. ويغيب عنها الأمير الذي كان يقف بالمرصاد لكل مَن يحاول المساس بأمنها».

أومأ الأعور وهو يرمق أوفيليا بعينه الوحيدة: «أي أنها فرصتنا الذهبية يا ملكتي».

حلت هنيهة من الصمت تبادلوا فيها نظرات عميقة المعنى.

التفتت أوفيليا إلى صاحب اللون المُحترق لتهمس: «يمكنك البدء بتصميم الدروع التي حدثتك عنها من قبل».

أومأ بالموافقة.. كان يُدعَى برئيس الحدّادين.. وكان المسؤول عن صناعة أسلحة جيش القمم الدخانية.

جاءت طرقات على الباب، فهبوا واقفين وصمتوا عندما شرع الحارس باب القاعة.. وبعد لحظات جاء الملك ميرلين الذي دلف إلى القاعة.. ولحقه بعض الرجال الذين جاءوا خلفه.

جلس في مقدمة الطاولة، ثم أشار لهم بالجلوس، وقبل أنْ يبتدئ الاجتماع التفت إلى أوفيليا وقال ضاحكًا: «متحمسة للاجتماعات دائمًا يا أوفيليا! أول الحضور كالعادة!»

ارتسمت ابتسامة على وجهها وهي تقول: «بل أنت الذي يتأخر دائمًا يا أبي».

ابتدأ الملك ميرلين اجتماعه، غير عالم بأنّ هناك اجتماعًا خاصًا قد انتهى قبل لحظات.. كانت أوفيليا أذكى من أنْ تعقد اجتماعاتها السرية تحت جنح الظلام أو في أماكن منعزلة.. كانت اجتماعاتها الخاصة تُجرَى في القاعات ذاتها التي يعقد فيها والدها اجتماعاته.. كل ما كانت تفعله هو الاتفاق مع أولئك الثلاثة -الذين يحضرون اجتماعات الملك ميرلين أيضًا- على الحضور مبكرًا! وهكذا، فهي تخطط لما تريد دُون حاجة لتبرير تواجدها المغلق مع ثلاثة من كبار رجال المملكة.

خارج ذلك الباب، وقف سيسيل الذي بدأت معدته بالتضور جوعًا.. لقد اقترب المساء وهو ما يزال يتنقل بين أبواب القاعات.. واقفًا على قدميه في انتظار الأميرة أوفيليا وهي تتنقل بين اجتماعاتها.. سأله الحارس الآخر الذي يقف على الباب ذاته: «أنت جديد هنا، أليس كذلك؟ مَن بديلك؟»

انزعج سيسيل لفضول الحارس، ولكنه أجاب: «بلى.. أنا جديد، ولا أعلم ما الذي تقصده ببديلي».

- أعني الحارس الذي تستبدل معه موقع الحراسة عند مغيب الشمس.. أم أنك تقف على قدميك طوال الليل والنهار؟

- لا أعلم.

ارتسم تعبير من الاستغراب على وجه الحارس، ولكنه لم يجادل.. بل ابتعد ليحل محله الحارس البديل.. انصرف إلى مسكن الحرّاس لتناول العشاء.. أما سيسيل، فظل واقفًا حتى انتهاء الاجتماع.

وفور انتهائه، تَبِع سيسيل أوفيليا بعد خروجها، واتجها إلى قاعة الطعام الخاصة بالملك.

التفتت له عند باب الحجرة آمرة: «لا حاجة للوقوف خارج قاعة الطعام».

رفع ناظره للحظة وكأنه يتأكد مما سمعه.. فكررت: «ستنتظرني عند الباب، ولكنك ستقف داخل القاعة».

- أمرك.

تعمّدت ذلك لتراقب تعابير بريشيليا.. ولم تخِب توقعاتها.. لم تكُن بريشيليا على طبيعتها.. لم تثرثر.. لم تضحك.. لم تغضب.. لم تصرخ.. بل ظلت صامتة تتحاشى النظر إلى الباب.. غير قادرة على إنهاء ربع طبقِها.

أفاقت من سرحانها الصامت عندما جاء صوت والدها: «ما بكِ يا بريشيليا؟ لمَ لا تأكلين؟»

أجابت في توتر: «لستُ جائعة يا أبي».

- هل أنتِ مريضة؟

أرغمت ابتسامة على وجهها لتتظاهر بأنها على ما يُرام، «أبدًا.. لا تقلق، أنا بخير».

حلت وهلة من الصمت قبل أنْ يخرقها آرون: «سنلعب الشطرنج هذا المساء، أليس كذلك يا أوفيليا؟»

ارتسمت على وجهها الابتسامة الوديعة التي لا ترتسم إلا لآرون، «بالطبع.. سنلعب فور الانتهاء من طعام العشاء».

أومأ مبتسمًا وهو يعاود النظر إلى طبقه.

قالت أوفيليا دُون أنْ تلتفت إلى الخادمة التي وقفت على مسافة قصيرة تنتظر الأوامر: «هل أتت آيريس اليوم؟»

- نعم يا أميرتي.. إنها في المطبخ.

- استدعيها.. ولتنتظرنا في حجرة آرون.

- أمرك.

انصرف الأربعة بعد انتهاء العشاء.. ولكن بريشيليا سارعت بإيقاف أوفيليا لتفرغ فيها شيئًا من غيظها..

«انتظرني في حجرتك يا آرون»، قالتها أوفيليا وهي تتوقف لتواجه بريشيليا التي كانت تمطرها بنظرات السخط.

بادرتها بريشيليا بالحديث لتهمس من بين أسنانها: «لِمَ جئت بذلك الشاب ليعمل حارسًا شخصيًا لك؟»

- أنتِ تعرفين الإجابة.

- ما أعرفه هو إنّ كل ما تفعلينه سببه خبثك وجشعك وكراهيتك العمياء لكل ما حولك.

ابتسمت أوفيليا وهي تصفق بيديها في سخرية: «ذكية كعهدك».. ثم استدارت لتبتعد، ولكن بريشيليا قبضت على كمّها الطويل الفضفاض بقوة لتوقفها مجددًا ولينكشف جزء من كتفها.. ولم تتوقع الغضبة التي ارتسمت في عينيّ أوفيليا وهي تزيح قبضة بريشيليا بقوة وتعيد رفع كُمّها.. قالت بغضب لا تتذكر متى رأته على وجهها من قبل: «كيف تجرؤين؟!»

لبعض اللحظات، ظلت بريشيليا ساهمة تحت تأثير الغضبة المفاجئة.. وتحت تأثير الوشم الأحمر الغريب الذي فوجئت به يغطي كتف شقيقتها.. ولكنها طردت خواطرها هذه بعيدًا ثم قالت في غل: «أنا أعرفك.. أعرفك جيدًا.. أنتِ تملكين قلبًا متفحمًا.. تنوين إيذاءه، أليس كذلك؟»

أجابتها أوفيليا التي استعادت هدوءها ولكن نظرات الغضب لم تفارقها بعد: «وأنت تكترثين لأمره جدًّا.. إنه أميرك الذي كنتِ تبحثين عنه طويلًا.. أَليس كذلك؟»

ثم تابعت: «إنه لأمر محيّر حقًا أنْ تقعي في حب أمير لا يملك الذهب! أتساءل ما الذي رأيتِه فيه بعد لحظات من الحديث التافه وحسب! أيملك هو القدرة على تشويش عقول الأميرات حقًا أم أنّ كل ما في الأمر هو كونك بلا عقل في المقام الأول؟ في كِلْتا الحالتين..

سَتُدْفَن مشاعركِ لأن والدنا لن يقبل مهزلة كهذه مهما بكيتِ أو صرختِ». ولم تكد تكمل جملتها حتى جاءتها صفعة بريشيليا لتسقطها أَرضًا!

كان سيسيل يقف على بُعد مسافة قريبة.. وما إنْ ارتطمت أوفيليا بالأرض حتى جاء مسرعًا ليساعدها على النهوض.. سألها: «هل أنتِ بخير أيتها الأميرة؟»

وقبل أنْ ترد جوابًا، صاحت فيها بريشيليا: «صحيح.. أنا بلا عقل.. هذا هو السبب.. ولهذا توقعي أنْ أخنقكِ بيدي إنْ نطقت بشيء عن هذا! تذكري وتخيلي ما يمكن لفتاة معدومة العقل أنَ تفعل!» ثم استدارت مسرعة لتبتعد وتلحق بها وصيفتها المرتعدة.

أما أوفيليا، فهمست: «مَن قال أني بحاجة إلى أنْ أنطق بأي شيء؟»، ثم وقفت لترتب ثوبها مجددًا، وتابعت مسيرها إلى حجرة آرون.





الفصل الخامس
الوشم الأحمر

فوجئ سيسيل باندفاع آيريس ناحيته عند باب حجرة آرون، احتضنته بقوة فجَثَا على ركبتيه ليكون في مستوى طولها.. كانت عيناه تفيضان بالامتنان لرؤيتها فلم يكُن يتوقع رؤيتها قبل انقضاء السنوات السبع.. وعلى مسافة قصيرة، جلس آرون وأوفيليا يتأملان هذا المشهد دُون أنّ يعترضا.

قال سيسيل، بعد أنّ قام ليقف مجددًا، مخاطبًا أوفيليا: «أعتذر أيتها الأميرة.. ولكن هذه الطفلة هي شقيقتي.. ولم نرَ بعضنا منذ زمن».

أجابت مبتسمة: «لا بأس».

كان سيسيل يرغب في سؤال آيريس عن أحوالها.. ولكن لم يكُن في المكان ولا الزمان المناسب، ولذلك همس لها: «الأميرة أوفيليا تنتظرك يا عزيزتي.. اذهبي.. سنجلس ونتبادل حديثًا طويلًا فيما بعد».

غابت ابتسامتها وهي تسأل: «متى؟»

- لا أدري.. ولكننا سنلتقي حتمًا.

ربت على كتفها وهو يدفعها بلطف: «هيا.. اذهبي».. ثم أومأ احترامًا للأميرين وخرج من الحجرة ليقف على بابها.

بوجه عبوس، جاءت آيريس لتقف خلف مقعد أوفيليا، همست لها الأخيرة قبل أنْ تبدأ باللعب: «لا تحزني يا آيريس.. لقد وعدكِ بأنكما ستلتقيان وأنا واثقة بأنكما ستفعلان.. عليكِ أنْ تركزي على لوح الشطرنج الآن».

أومأت آيريس، ثم حرّك آرون جنديه الأول.

أخذ سيسيل يسترجع في عقله ما حدث قبل أنْ يلتقي بآيريس، محاولًا تذكر ما رآه حينما جذبت بريشيليا كُم أوفيليا.. تساءل: «أكان ذلك وشمًا أحمر؟ لا أستطيع الجزم بما رأيت». كان ذلك الوشم الأحمر كافيًا لتعريض أوفيليا لتساؤلات خطيرة.. ففي مملكة القمم الدخانية، يُحرّم تعلم الوشوم وتجربتها على غير المنتسبين لصومعة القضاة، ويُستثنى من هذا وشم الجنة الذي سربه أحدهم إلى الفقراء منذ زمن بعيد، واتفقت صومعة القضاة على تجاهله لأنهم اعتبروه عقابًا ذاتيًا يستحقه مرتكبوه. كانت صومعة القضاة هي ميزان الحكمة الذي ينصاع له الجميع.. فأي مجرم.. أي مخالِف مهما كانت درجته في المجتمع ومهما كان مقدار ثروته.. يتم تقرير عقوبته من قِبل صومعة القضاة.. ويتم معاقبته بوشم يضعوه عليه.. لم تكُن هذه الوشوم أشكالًا عادية.. بل هي أوامر سحرية محتومة

التحقق.. ولكن ما معنى أنّ تحمل أميرة القلعة أحد الوشوم؟ الوشوم إما عقاب وإما شفاء.. ولم يسبق أنّ جاء أحد حكماء الصومعة لرسم أي منها على كتف هذه الأميرة.. كان هذا ما أخذ يدور في عقل سيسيل وهو يتذكر كلمات معلمه الشيخ. ولكن اقتراب أحدهم جعل سيسيل يضع هذه الخواطر جانبًا لوهلة.

كان القادم نايت، وكان سيسيل قد لاحظ مراقبته إياه طوال اليوم.

- هل أنت جائع؟

رفع سيسيل ناظره إليه، حائرًا في الإجابة المناسبة..

ابتسم نايت: «بالتأكيد أنت جائع.. تفضل». قالها وهو يُخرج قطعة من الخبز من جيبه.. يواريها في طية كمه حتى لا ينتبه أحد الحراس الآخرين في الممر.

أجابه سيسيل: «شكرًا.. لا أريد».

اقترب منه نايت ليهمس: «إنها من الأميرة بريشيليا.. ينبغي لك أنّ تقبلها».

- شكرًا.. ولكني لا أريد.

- تعلم أنك ستظل واقفًا على قدميك حتى الصباح، صحيح؟

- نعم.

- معلوماتك خاطئة إذًا.

ارتفع حاجب سيسيل متسائلًا، فرد نايت: «لن تقف حتى الصباح، بل ستقف حتى تسقط مغشيًا عليك.. ثم ستأمر الأميرة أوفيليا الحراس بإيقاظك وإجبارك على الوقوف مجددًا.. حتى تسقط مجددًا.. وهكذا.. تظل واقفًا دُون نوم أو طعام أو ماء حتى تصبح كالجثة.. أو تصبح جثة حقًا».

- ولماذا قد تفعل الأميرة شيئًا كهذا؟

- إنها ذكية.. ولكن أساليبها بسيطة دائمًا.. تقتل مَن تريد عن طريق توظيفهم ثم حرمانهم من فترات راحتهم! هكذا وحسب!

- لم تجب عن سؤالي.

- لا أعلم أسبابها.. ولكن غدًا سيكون يومًا صعبًا للغاية عليك.. ولهذا أنصحك بتقبل هدية الأميرة بريشيليا.

- إنّ كان ما تقوله صحيحًا فلا فائدة من قطعة الخبز هذه.. لن تفعل سوى تمديد فترة وقوفي وجعل يومي أصعب.

كشر نايت وهو يعيد قطعة الخبز إلى جيبه، همس: «أنت تظنني أمزح معك.. تظن أنّ الأميرة غير قادرة على فعل شيء كهذا لأنك من صومعة القضاة! غبي».

قالها واستدار مبتعدًا، أما سيسيل، فبدأ يتساءل كيف يمكن لفتاة مثلها أنّ تفعل أشياء كهذه -إنّ كان هذا صحيحًا-؟ هو يعلم أنها لطيفة للغاية مع شقيقته التي أخبرته مسبقًا بأنّ الأميرة تحبها ولا

تسمح بإرهاقها أو تحميلها عملًا يفوق طاقتها.. بل تأخذها معها وتعطيها الكثير من الأوراق والألوان للرسم.. ورأى كيف تحدث آرون وتبتسم له برقة بالغة.. هل يمكن أنْ يجتمع اللطف الشديد والقسوة الشديدة في قلب واحد؟ تساؤلات لا حصر لها ولا إجابات لها.

بعد انتهاء أشواط الشطرنج، انصرف آرون ليرى طيوره، أما أوفيليا، فصرفت آيريس ثم أمرت سيسيل باتباعها. ودّع شقيقته بابتسامة من بعيد.. ثم سار وراء أوفيليا التي اتجهت إلى جناحها.. وعند باب حجرتها، حدجته بنظرة حادة وهي تقول: «لن يغمض لك جفن، ولن تجلس.. ستظل واقفًا حتى آمرك بغير ذلك».

- أمرك.

- هناك مَن يراقبك.. وسأعلم بالأمر إنْ فعلتَ خلاف ما أقول.

- لن أخالفك.

تجاوزته ودلفت إلى حجرتها.

رفع سيسيل بصره من الأرض ليتأمل السقف الذي بدا كهوة مظلمة، بينما تداعت كلمات شيخه إلى عقله مجددًا.

- تقول بعض خادمات الأميرة أوفيليا بأنها تختفي عند منتصف الليل دائمًا.. تختفي في حجرتها ثم تعود للظهور وكأن شيئًا لم يكُن.. نحن نشك بوجود حجرة سرية متصلة بحجرتها.. وقد تحتوي هذه الحجرة على الكتب المحظورة التي اختفت بشكل

مبهم من صومعة القضاة.. لا سيما بعد أنْ أشاعت بعض الخادمات أنّ الأميرة تخفي وشومًا حمراء على سيقانها.. كل شيءٍ يشير إلى أنها تملك الكتب المسروقة.. يتطلب الأمر تخطيطًا محكمًا وذهبًا كثيرًا للتمكن من تسريب هذه الكتب.. لا أحد سوى فرد من العائلة الحاكمة قادر على تدبير أمر كهذا.. والأميرة أوفيليا هي المشتبه الأول.

كانت كلمات الشيخ ترن في عقله وهو يفكر بطريقة للتمكن من استكشاف حجرتها: «الليلة هي فرصتي الوحيدة».

لمس زجاجة السائل القاني المختبئة في صرة لفها تحت حزامه.. واسترجع الوشوم التي تعلم نقشها في صومعة القضاة حتى الآن.. ولكن عاقبته يمكن أنْ تكون الموت إنْ رسم وشمًا على الأميرة دُون علمها ودُون حُكم رسمي من صومعة القضاة.. ولهذا، سيترك الوشوم كحلٍ أخير.. ثم انحنى ليستل قاطعة المعادن التي ثُبِّتت في ظهر حذائه الطويل، وعاود الوقوف شابكًا يديه خلف ظهره، بينما استقرت قاطعة المعادن بين مقبض الباب وإطاره، وصدر هسيس خافت إثر احتكاكها بالقفل النحاسي.

كيف علم بأنّ القفل نحاسي؟ كيف علم بأنّ مقبض باب الحجرة من هذا النوع؟ كلها معلومات بدأ شيخه بجمعها منذ زمن وعلى دفعات.. كان كل شيء مهيأ لهذه المغامرة.. كل شيء عدا المقتحم الذي جاءته الدعوة أخيرًا مِن الأميرة نفسها.

لقد حل منتصف الليل.. وتم قطع لسان القفل بالكامل.. ولا بُدَّ أنّ حجرة أوفيليا خالية الآن.

دار سيسيل بعينيه في أرجاء المكان باحثًا عن أي حراس.. ولكنه لم يرَ أحدًا.. فكر «لا بُدَّ أنّ مُراقبي يختبئ جيدًا.. أو أنه يأخذ غفوة.. لكنه سينصرف للبحث عني في مكان آخر إنْ اكتشف اختفائي».. ثم دفع الباب في هدوء شديد.. ومن الفرجة الصغيرة انسحب إلى الداخل، وأعاد غلق الباب وهو ينخفض على ركبتيه.. رفع بصره إلى الحجرة التي كانت مظلمة.. عدا شمعة صغيرة يتراقص نورها عند الشرفة، نور خافت جدًّا لا يكاد يرى إثره شيئًا.. ولهذا ظل عدة دقائق في مكانه، حتى اعتادت عيناه الظلام وبدأ بتمييز حواف الأشياء.

الآن صار يرى معالم الحجرة؛ خزانة ملكية ضخمة.. لوحات مذهبة الأطراف.. سرير ضخم تحيط به الستائر ويغص بالأغطية والوسائد.. لم يكُن قادرًا على تبين إنْ كان هناك من ينام على السرير.. ولكنه كان متأكدًا من أنها قد وضعت بعض الوسائد -تحسبًا- لتوحي بأنها نائمة.. في كل الأحوال.. يملك الفرصة الذهبية لتفقد الحجرة الآن.

لقد قرأ كثيرًا.. ويعلم أنّ مداخل المخابئ في القلاع غالبًا ما تكون تحت السجّاد.. خلف اللوحات.. خلف المكتبات.. بداخل الخزائن.. ولهذا بدأ بتفقد هذه الأماكن.. ومرت الدقائق.. دُون جدوى.. بالتأكيد مخبأ كهذا يحتاج وقتًا أطول.. ولكن الأميرة أوفيليا بسيطة الأساليب.. هذا ما أخبره به نايت.. إنها معقدة لكنها تتبع الأساليب البسيطة دائمًا.. ولهذا، قرر البحث في الأدراج الاعتيادية.. والأماكن التي لا يمكن أنْ تكون مدخلًا لأي مخبأ.. ولكنها قد تحمل دلائل.

وفي أحد أدراج مجوهراتها، وجد ورقة ملفوفة، فتحها.. فرأى رسمًا – نقوش متداخلة على نحو شديد التعقيد؛ هذا الرسم لوشم سحري.. يستطيع إدراك هذا بشكل مؤكد، وشم شبيه بما يتعلمه في صومعة القضاة.. يشبهه من ناحية كونه وشمًا، ولكنه يختلف في أمر آخر.. لقد تعلم أنّ وشوم العقاب تتميز بوجود نجمات كثيرة.. أما وشوم الشفاء فتتميز بدوائرها ومنحنياتها الشبيهة بأغصان النباتات.. لكن هذا الرسم لا يحوي على أي نجمة أو دائرة! إنه خليط من الأشكال الرباعية والنقاط المصطفة على نحو لم يره من قبل، تساءل: «أي نوع من الوشوم يمكن أنْ يكون هذا؟ مهلًا.. قال المعلم بأنّ الكتب التي في حوزتها كتب محظورة.. وهذا يعني». واتسعت عيناه وهو يدرك أنّ هذا الوشم وشم محظور.. والوشوم المحظورة لا يدرسونها ولا يتطرقون لها.. بل لا يعلمون بوجودها.. وازدرد ريقه وهو يدرك أنّ ما يتعلمه حكماء الصومعة ليس سوى جزء من علم كبير جدًّا تم إخفاؤه لأسباب مجهولة.

أعاد الورقة إلى مكانها، ثم سمع صوت حركة قادمة من سرير الأميرة.. وحين التفت، وجدها تنهض من سريرها –لقد كانت نائمة هناك بعد كل شيء– وقفت.. بشعرها المنكوش وثوبها الفضفاض الواسع.. مقطبة الجبين.. ترمقه بنظرات تقطر غضبًا بينما يتراقص نور الشمعة على جانب وجهها مضيفًا إليها لمسة مرعبة لم تكُن تنقصها.

صباح اليوم التالي، وفي أحياء العاصمة الذهبية.. سار إيدن مع حشد من حراسه في أحياء عاصمته.. لقد خرج ليتفقد مدينته بنفسه -بناءً على نصيحة ريجان- حتى يعطي السكان الانطباع بأنه يفهم مشاكلهم ويعمل على حلها.. لقد كانت هذه الأحياء تزدان بنوافير المياه في آخر مرة زارها.. أما الآن، فقد زحفت الرمال فوق العتبات وعلى بعض الوجوه.. ورأى عدة مشاجرات على قِرب المياه وعلى أسعارها عند عتبات الدكاكين.. ولكن ما أثار فضوله حقًا كان رؤية بعض الناس مرتمين عطاشى على عتبات أبوابهم المزينة بالذهب.

همس لريجان متسائلًا: «لِمَ لا يبيعون ما يملكون من الذهب من أجل شراء المياه؟»

أجابه: «لا أحد يشتري الذهب يا مولاي.. السوق المحلية كاسدة والذهب أقل قيمة من الفحم».

- هل رد الملك ميرلين على عرضنا؟

- ليس بعد.. لكني متأكد من موافقته.. صحيح إنّ الذهب لا يعادل شيئًا هنا.. ولكنه يعادل كل شيء في مملكة القمم الدخانية.

أومأ إيدن وهو يتابع سيره.. بينما ترامت إلى مسامعه عبارات التوسل والاستجداء، ولهذا، أمر رجاله بملئ الآبار من مخزون قصره.. ورغم أنه لم يرغب بفعل هذا حقًا، فإنه كان ضروريًا لتتحول عبارات التوسل إلى شكر وثناء بدلًا من أنْ تتحول إلى لعنات تطاله.

- هذا يكفي.. فلنذهب إلى الكهوف.

كان ذلك ما همس به إيدن لريجان الذي أومأ بالموافقة، ثم أمر الرجال بإحضار عربة الملك.

في بهو قلعة القمم الدخانية، وأمام الملك ميرلين.. وقف سيسيل خافضًا بصره إلى الأرض.. بينما زينت وجهه كدمتان كادتا تسحقان عينه اليسرى.. كانت السلاسل تكبل يديه وقدميه.. بينما غص المكان بالحراس ورجال صومعة القضاة.. لم يكُن غضب الملك ميرلين من الأشياء المحبذ رؤيتها.. ولكن دموع ابنته أوفيليا المرمية في سريرها والوشم الشيطاني الذي زين ذراعها النازفة أصابه بغضب مجنون.. لقد قال رجال الصومعة بأنّ هذا الوشم من وشوم العقاب.. ويصيب صاحبه بحمى شديدة ترديه صريعًا في يومين.. هم هنا من أجل علاجها.. ولكنهم أخبروا الملك بأنّ وشم الشفاء المعاكس لم يسبق أنْ نجح من قبل.. أي لا فائدة من تجربته حتى.. وبالطبع، لم يستمع إليهم.. بل أمرهم بتجربة أي علاج حتى وإنْ كانت فرصة نجاحه شبه معدومة.

انصرف الحكماء إلى حجرة الأميرة، يتقدمهم سيروس.. وأما سيسيل، فشعر بالاختناق بينما قبضت أصابع الملك على رقبته وهو يصرخ فيه: «ألن تجيبني أبدًا؟! لمَ فعلتَ هذا بابنتي؟!»

جاءت كلماته بصعوبة: «لستُ الفاعل».

– وتنكر الأمر بكل وقاحة!

دفعه أرضًا وهو يأمر الحراس بأخذه إلى الزنزانة، صاح فيهم: «ستنتزعون اعترافه بأي ثمن! هل تفهمون؟!»

- أمرك أيها الملك.

تقدموا ليجرجروه إلى خارج البوابة.. متجهين إلى بوابة أحد أبراج القلعة، الذي يُدعَى ببرج السلاسل لكثرة المقيدين بها في زنزاناته.

كانت بريشيليا تراقب الأمر من بعيد.. قابضة على يد وصيفتها التي شعرت بمدى خوفها وتوترها.. همست متسائلة: «ما الذي سيفعلونه به؟»

أجابت وصيفتها بصوت خفيض: «لقد رسم وشمًا شيطانيًا مميتًا على ذراع الأميرة أوفيليا.. سيقتلونه حتمًا».

- أوفيليا خبيثة ومخادعة.. أنا واثقة بأنه بريء.

- أنت لا تعرفين عنه شيئًا يا أميرتي.. قد يكون أكثر خداعًا وخبثًا من الأميرة أوفيليا.

- أنا متأكدة أنها تتظاهر بهذا من أجل قتله وحسب.. كانت تلمح إلى أنها ستجعل والدي يقتله.. قالتها بنفسها ليلة البارحة.

- الأميرة أوفيليا مصابة بالحمى حقًا.. وجروح ذراعها حقيقية.. أعلم أنها الطرف المخادع في العادة.. ولكنها اليوم ضحية على وشك الموت يا أميرتي.. هذا الغريب قاتل جاء للنيل من شقيقتك وعليكِ أنْ تصدقي هذه الحقيقة.

- ستنهض من فراشها كأنّ شيئًا لم يكُن وسترين.

حلت لحظات من الصمت قبل أنْ تردف: «لن أسمح لهم بقتله مهما حصل».

رمقتها إيفي بنظرة مرعوبة وهي تهمس: «لا تقولي هذا يا أميرتي! لو سمعكِ أحد سيظن أنك تآمرتِ معه!»

تجاهلتها بريشيليا وهي غير مقتنعة بأي كلمة من كلماتها.. فَعِنادها كان الشيء الوحيد الذي يتفوق على غبائها.

في الصحراء الغربية، اتسعت عيون إيدن رعبًا حين خرج من كهفه ليجد جثث حرّاسه تفرش الأرض حول المدخل.

صاح: «ريجان! أين أنت؟! ريجان!»

ولكن لم يأتِه أي رد.. أخذ يركض بين الجثث.. يهزها ويبحث عن ريجان بينها.. ولكن لم ترد أي جثة جوابًا.. ولم يجد مستشاره بينها.. جَثَا على ركبتيه حائرًا.. ليفاجأ بكف غليظة تطبق على فمه وتسحبه إلى الخلف.. وقبل أنْ يتلقى الضربة التي أفقدته وعيه، لمح القلادة المنتهية بالريش المنتوف.

قبيل المغيب، وفي برج السلاسل، وقف سيروس ليرمق سيسيل جالسًا في زاوية الزنزانة.. مقوس الظهر.. يريح رأسه بين ركبتيه..

رفع رأسه حين سمع صرير الباب الحديدي وهو يُفتَح من قِبل حارسه، ثم دلف إلى الداخل معلمه الذي بدا على وجهه تعبير من الوجوم.

اقترب ليجثو جواره، محاولًا تجاهل جراحه التي تسبب بها سوط سجّانه، ومحاولًا تجاهل السوائل المختلطة بشعره الفاحم.. سأله في همس: «أخبرني.. ما الذي حدث؟»

- هل تصدق أنني فعلت ذلك حقًا؟

- لا أصدق.. ولهذا أسألك.

- لقد تسللتُ إلى حجرتها كما اتفقنا.. ولم أدرِ كيف وجدتها واقفة ورائي فجأة، تحدجني بنظرات غاضبة.. ولكن سرعان ما سَقَطَت أرضًا إثر ضربة جاءتها من قِبل شخص لم أره.. ولم تكد تسقط حتى تلقيتُ أنا الضربة ذاتها.. ذلك الشخص.. هو مَن رسم وشم الحمى على ذراعها.

- هل تملك فكرة عن هويته؟

- لا أدري حقًا.

حلت هنيهة صمت قبل أنْ يردف: «كان سريعًا.. محترفًا.. لقد ضربها وضربني قبل أنْ ألمحه حتى».

- إذًا.. هي تعلم بأنك لم ترسم ذلك الوشم على ذراعها.

- كنتُ بعيدًا عنها حين تلقَّتْ ضربتها.. ولكن من المُحال أنْ تبرِّئني من هذا الأمر.

- هل عَلِمَت عمَّ كنتَ تبحث؟

- رأتني وأنا أتفحص شيئًا يحظر عليها حيازته.

- الكتب المسروقة؟

- ورقة فيها رسم لأحد الوشوم التي أعتقد أنها نسختها من الكتب المسروقة.

أطلق سيروس تنهيدة عميقة بينما تعصف في رأسه الأفكار.. عاد ليقول: «هناك الكثير من الأمور التي ينبغي لنا كشفها.. ولكن أهمها وأولها هوية مَن رسم هذا الوشم على ذراعها.. حاول التذكر.. ألم ترَ أي شيء مريب طوال فترة حراستك؟ ألم يكُن هناك من يحوم حولك أو حولها؟»

صمت سيسيل هنيهة ثم أردف: «لا شيء مريب.. ولكن.. لقد تشاجرت مع شقيقتها التي صفعتها بقوة وأهانتها.. وسمعتها تهددها بخنقها».

- تذكر أنّ الشخص المريب ليس صاحب الصفعات أو التهديدات العلنية.. أولئك لا يملكون سوى كفوفهم وألسنتهم.. ولهذا يجاهرون بها.. ولكن الشخص المريب هو مَن يرمقك في حذر ثم يضحك في وجهك فجأة ويبدي حبًا لا منطق له.. المريب هو صاحب أكثر العطايا جزلًا.

حل صمت قصير بينما اتسعت عينا سيسيل وهو يدرك ما لم يخطر على باله من قبل: «في الحقيقة.. هناك مَن كان يحوم حولي

طوال الوقت.. أظن أنه كان يراقبني.. لستُ واثقًا.. لكنه الوحيد الذي يملك مثل هذه الفرصة.. اسمه نايت».

أومأ سيروس متفهمًا، ثم همس محذرًا: «اسمعني جيدًا.. ستصمد تحت السوط ولن تذكر اسمه أبدًا.. أخبرهم بأنك لا تعرف أحدًا ولا تشك بأحد.. في النهاية، سيقوم أحد حكماء الصومعة بإصدار الحكم في حقك.. ولن يكون عقابك الموت ما دُمت تنكر الأمر».

- لكن.. لماذا لا آتي باسمه؟ ربما يكون هو الفاعل حقًا.

- ألم تتساءل كيف يمكن لشخص مثله أنْ يجيد رسم وشوم العقاب؟

- بلى، هو ليس من صومعة القضاة.. ولا يملك النفوذ الكافي لسرقة كتب الصومعة.. فكيف!؟

- إنْ كان الفاعل حقًا، فأنت تقف أمام أحد المنتسبين لجماعة البوم الهالك.

- البوم.. الهالك؟

- إنها جماعة منشقة عن صومعة القضاة.. يكِنون لنا كراهية شديدة.. ويتخذون من جثث البوم وريشه المنتوف رمزًا لهم.. لقد تم نفيهم إلى مملكة الصحاري منذ زمن بعيد.. ولكن يبدو أنّ بعضهم ما يزال هنا.. يجيدون رسم بعض الوشوم.. ويسعون إلى تحقيق العدالة الحقيقية بزعمهم.. يظنون أنهم آلهة هذا العالم.

- ما مدى خطرهم؟

- هم أخطر من أي عدو قد تواجهه.. فعوضًا عن معرفتهم بالوشوم، يتلقون تدريبات جسدية صارمة.. وتدريبات نفسية للاعتياد على القتل من أجل تطهير العالم.. هم أخطر من أي قاتل مأجور لأنهم يظنون بأنّ مِن حقهم اختيار هوية مَن يقتلون.

- إذًا.. عليَّ أنْ أخرس وأتظاهر بالغباء بينما يقطع ذلك الجلاد ما تبقى من جلدي.. لأن هذا أفضل من التورط معهم.

تنهد سيروس بعمق وهو يقول: «سأبذل قَصَارى جهدي لإخراجك من هنا.. لا يستطيع الملك ميرلين قتلك.. الأمر بالتحقيق معك هو أقصى صلاحية يملكها.. صومعة القضاة هي مَن تقرر».

نهض سيروس واقفًا.. ثم همس: «إنّ هذا الأمر بيني وبينك.. إياك أنْ تنطق بشيء عن وشوم الكتب المحظورة أو عن جماعة البوم الهالك.. لا أحد ينبغي له أنْ يعرف شيئًا أو يعرف أنك تعرف شيئًا!»

أومأ سيسيل، ثم لمح معلمه يسير مبتعدًا، فأسند رأسه إلى الجدار الصخري ثم أغمض عينيه.

صباح اليوم التالي، وفي بهو قلعة الحكام، توقف نايت عند أحد الأعمدة الرخامية، متظاهرًا بقراءة رسالة خاصة بإحدى الطلبات بينما تتبع عيناه المارة.. رأى بريشيليا تصعد الدرجات متجهة إلى جناحها، فكر: «دوركِ هو القادم أيتها الجميلة».

ارتسمت على وجهه ابتسامة وهو يتذكر الرسالة التي دسها في يد أوفيليا يوم البارحة.. في تلك الرسالة، أكد عليها بأنّ تبقى في سريرها طوال الليل ولا تغادره ثانية واحدة.. أكد عليها بأنّ لا تغفى لها عين لأن هناك ما يجب أنّ تراه.. لقد سمع هو أيضًا باختفاء الأميرة عند منتصف الليل.. ولهذا لجأ إلى هذه الرسالة ليجبرها على البقاء في سريرها.. أرادها أنّ تكون هناك حتى يرسم ذلك الوشم على ذراعها.. لا وقت أفضل من فعلها في وجود فرد من صومعة القضاة.. فرد يتحمل التهمة ويبعد عنه أي شبهة ممكنة.

لقد رسم وشم الحمى على ذراعها.. ورسم وشمًا آخر أيضًا بدا أنّ رجال صومعة القضاة لم ينتبهوا له.. رسم وشم النسيان.. وبهذا يضمن أنّ لا تتذكر أوفيليا ما حدث قبيل تلك الضربة.. ستكون أوفيليا واثقة بأنّ سيسيل هو الفاعل.. وستنطق باسمه قبل أنّ تنهيها الحمى.





الفصل السادس
قمة البرج

لقد مضت ثلاثة أيام، وما زالت أوفيليا تستلقي بلا حراك في فراشها.. يحيط بها حكماء الصومعة العاجزين عن فعل شيء سوى تفقد نبضها.. لقد رسموا وشمًا مضادًا لوشم الحمى على ذراعها الأخرى.. ولكنهم كانوا يعلمون أنّ لا جدوى منه.. اليوم فقط، بدأوا بالتساؤل إنّ كان وشمهم المضاد هو سبب بقاء قلب أوفيليا نابضًا رغم انقضاء ثلاثة أيام.. ففي العادة، يقضي وشم الحمى على ضحيته في يومين أو أقل.. وقف آرون على بابها يراقبها صامتًا.. وأما آيريس، فكانت أكثر مَن ذرف الدمع في هذه الأيام الثلاثة.. رغم سخرية بقية الخدم منها ومحاولتهم إقناعها بأنّ الأميرة أوفيليا لا تستحق كل هذا الحزن.. فإنها لم تكُن قادرة على التوقف عن البكاء.. هذه الأميرة.. تكاد تكون أكثر من تقضي وقتها معه، الوحيدة التي صحبتها معها كثيرًا إلى تلك الحجرة التي تقع في علية القلعة وتمتلئ بالكتب.. الوحيدة التي كانت تعطيها الكثير من ريش الرسم والأوراق وتقضي وقتها معها في الرسم.. لقد كانت تسمح لها بالرسم على أجزاء جسدها حتى.. تتذكر آيريس النقوش التي رسمتها على ظهر الأميرة وساقيها وكتفيها.. كانت سعيدة جدًا بقضاء وقتها في ممارسة الرسم

الذي تعشقه! وتتذكر تحذير الأميرة لها من البوح لأي كان عن هذا الأمر وإلا سيأخذونهما إلى الزنزانات.. ولهذا، لم تنطق بالأمر حتى لسيسيل الذي كانت تسرد له كل ما يحدث في القلعة.

ما الذي سيحدث لها إنْ ماتت الأميرة؟ ستصبح وحيدة جدًّا مجددًا.. لن يكون هناك من يحدثها برقة ولطف.. فالجميع -عدا سيسيل وأوفيليا- يصرخون عليها طوال الوقت ويتهمونها بالغباء والتخلف.. ستغادر هذه القلعة لأنها تكره كنس أرضيات المطبخ وتنظيف الأواني وتعنيف الطهاة.. وستعود مجبرة إلى الحجرة الطينية حيث تصرخ أمها وتتهمها بالغباء وعدم الجدوى وتجبرها في النهاية على التسول في الطرقات.

ولكن حزنها لم يدُم، واتسعت عيناها فرحًا حين سمعت بأنّ الأميرة أوفيليا صارت قادرة على الجلوس والحديث.. ولهذا، هرعت إلى حجرتها لتطمئن بنفسها.. واتسعت ابتسامتها وهي ترى الأميرة تقف على قدميها، ترتدي ثوبها الطويل بينما تسرح إحدى الخادمات شعرها.

تراجعت إلى الوراء حين رأت الملك قادمًا بنفسه، تعتلي وجهه ابتسامة واسعة.

وقفت عند الباب تنظر إلى الملك وهو يعانق ابنته في سعادة، وانتظرت انقضاء هذه اللحظات حتى يأتي دورها في محادثة الأميرة وإخبارها كم هي سعيدة بشفائها.. ولكن دورها لم يأتِ.

فحين غادر الملك، وضعت الأميرة تاجها اللؤلؤي على رأسها ثم خرجت من حجرتها مسرعة.

وفي حجرة الأختام، هب نايت واقفًا احترامًا لأوفيليا التي جاءت إلى حجرته وأغلقت الباب خلفها لتنفرد به.

سرت رعشة رعب فيه وهو يدرك أنها شفيت من وشم الحمى الذي لم ينجُ منه أحد قبلها. ولكنه رسم ابتسامة ودود على وجهه وهو يقول: «أميرتي.. لقد شفيتِ.. أنا سعيد برؤيتكِ وقد تعافيتِ».

لم تبتسم، كان تعبير من الجدية والحزم يرتسم على وجهها، أجابت: «أريد مساعدتك».

- أنا طوع أمرك أيتها الأميرة.

- أريدك أنْ تساعدني في عقاب من رسم ذلك الوشم على ذراعي.

- إنه في برج السلاسل.. أظن بأنه يتلقى جزاءه بالفعل.

- أعلم.. ولكني أريد أنْ أضمن سلامتي.. إنْ خرج حيًّا من تلك الزنزانة فستكون نهايتي أنا.. يجب أنْ نتخلص منه.

رفع نايت بصره إليها متسائلًا: «هل تعنين.. قتله؟ ولكن.. ماذا إنْ علم أحد بتورطكِ أيتها الأميرة؟ إنّ هذا أمر خطير».

- لهذا طلبتُ مساعدتك! لدي خطة.. ولن يتورط أيٌّ منا في الأمر.

أومأ، «أنا طوع أمرك».

- اتبعني إذًا.. سنذهب لزيارته.

ارتسم تعبير من الدهشة على وجهه لعجلتها، ولكنه لم يعترض، بل تَبِعها وخرجا متجهين إلى برج السلاسل.

***

على عتبة البيت الطيني المتهالك، جلست والدة سيسيل صامتة، وبجوارها جلست فيولا التي جاءت لزيارتهم بعد غياب طويل.. قالت بصوت حزين: «لقد جئتُ دون علم سيسيل.. إنه لا يسمح لي بالخروج من ذلك القبو.. إنْ علمَ بخروجي يضربني بشدة».

- هل قلتِ بأنه انتقل للسكن في قلعة القمم الدخانية؟

- قال إنه ذهب للعمل عند الأميرة أوفيليا.. لقد مرت ثلاثة أيام منذ رحيله.. لا أدري متى سيعود.

- هذه هي دراسته التي أزعجنا بها إذًا؟

«إنه لا يدرس أبدًا.. لم أره ممسكًا بأي كتاب.. يرحل صباحًا ويأتي ليلًا ويغضب بشدة إنْ سألته عن أي شيء».. ثم غطت وجهها بكفيها وهي تقول بصوت باك: «ثم يضربني ويتركني أبكي في زاوية القبو ويذهب لينام! أنا لم أفعل أي شيء! لا أدري لماذا يكرهني!»

- هو لا يبالي بوالدته التي أنجبته فكيف سيبالي بكِ أنتِ؟

حلت وهلة من الصمت، قطعها قدوم آيريس التي فوجئت بوجود فيولا.. ولكن سرعان ما دلفت إلى الداخل متجاهلة إياها.. استوقفتها والدتها: «تعالي إلى هنا».

اقتربت وهو ترد قاطبة الجبين: «ماذا؟»

- أنتِ تخدمين ذات الأميرة التي يعمل سيسيل لديها.. أخبرَيني.. هل رأيتِه في القلعة؟

بدا التردد على وجه آيريس، ولكنها أجابت: «نعم.. رأيته».

- هل قال شيئًا؟

- إننا سنلتقي قريبًا.

- فقط؟ ألم يقُل أي شيء آخر؟

- لا.

- ألم يسألك عني؟ ألم يسألكِ مِن أين نأتي بقوتنا؟! ألم يسأل عن والده؟

- لا.

زفرت والدتها بقوة وهي تقول: «يا له من حقير».

- لا!

- بل هو كذلك! هل تعلمين بأنه لا يسمح لفيولا بالخروج من بيته؟ يمنعها من إحضار الطعام لنا!

- تكذب!

قالتها وهي ترمقها بنظرة غاضبة.. ولكن الأخيرة تدخلت لتقول بينما تملأ عيناها الدموع: «أنا لا أكذب! شقيقك لا يبالي بك ولا بأي أحد آخر!»

صاحت آيريس: «تكذبين! سيسيل يحبني!»

لم ترد فيولا جوابًا، بل رمقتها بنظرة حاقدة لم تمتزج بتلك الدموع التي تجمعت في عينيها.. تدخلت والدة آيريس لتقطع هذا الجدال: «اذهبي واستبدلي ثيابك يا آيريس.. اذهبي!»

ولم تدرِ أي أفكار أخذت تجوب عقل فيولا.. ففيولا تكفيها مثل تلك النظرة الغاضبة حتى تستثير كراهيتها وتجعلها تتخذ قرارًا بتأديب صاحب هذه النظرات.. ولقد قررت للتو أنّ الأوان قد حان لتعليم البلهاء الصغيرة بعض التهذيب.

صعدت أوفيليا الدرجات الصخرية في برج السلاسل بينما يتبعها نايت في صمت.. كانت استغاثات السجناء وتأوهاتهم تعلو أكثر وأكثر كلما تقدموا في المسير.. فكلما ارتفعت زنزانة السجين ازدادت أساليب التحقيق فظاظة.. تساءل نايت عن ثبات الأعصاب الذي تملكه أوفيليا لتسير وسط أجواء كهذه دُون أنْ تبدي أي انزعاج.. ولكنه بقيَ على صمته حتى خرقته هي بسؤالها: «نايت.. أنت تعلم أنك أكثر مَن أثق به في هذه القلعة، أليس كذلك؟»

- هذا شرف لي يا أميرتي.

- وتعلم أني أستعين بك أكثر من أي شخص آخر، صحيح؟

- أعلم يا أميرتي.. وآمل ألا أخيب ظنك أبدًا.

- وتعلم أنّ لك مكانًا مميزًا في قلبي.. صحيح؟

لم يعلم بمَ يرد.. ولكنها لم تنتظر رده، تابعت: «لطالما أُعجبت بأسلوبك الهادئ في التعامل مع الأمور.. وبأفكارك الذكية في التخطيط وتوزيع الأموال.. أعجبتُ بتفانيك من أجل القلعة وبانحيازك إلى جانبي دائمًا.. في كل يوم كنت أجد سببًا جديدًا للإعجاب بشخص مثلك».

توقف نايت للحظة وهو يدرك أنهما قد تجاوزا الجناح الذي يحوي زنزانة سيسيل.. ولكن أوفيليا كانت تواصل المسير.. لم يعرف كيف يقطع حديثها.. سيكون من الوقاحة أنْ يقاطعها وهي تتحدث عن إعجابها به!

- لقد قررتَ أني مَن يستحق إخلاصك في هذه القلعة.. ولا تعلم كم مرة شعرتُ بالامتنان العميق لك.

حلت لحظات من الصمت قبل أنْ يهمس في ارتباك: «هذا أكثر مما أستحق أيتها الأميرة.. أنا لا أفعل سوى واجبي».

لم ترد جوابًا.. فانتظر لحظات أخرى قبل أنْ يردف: «أميرتي.. نحن نتجاوز زنزانة سيسيل.. علينا أنْ نعود».

ودُون أنْ تلتفت أو تتوقف أجابت: «أعلم.. قُلت لك بأني أملك خطة».

تبعها.. ولم يتحدثا حتى وصلا إلى قمة البرج.. كانت قمة البرج تحوي زنزانة واحدة فقط.. وكانت خالية.

وحين توقفت أوفيليا والتفتت إليه بوجهها الممتقع حزنًا.. سرت فيه رعشة رعب لم يشعر بمثلها في حياته!

وقبل أنْ يفتح فمه بالسؤال، فوجئ بالرجال الذين يدفعونه دفعًا إلى تلك الزنزانة، ثم يقيدون ذراعيه ورجليه بسلاسل ثقيلة إلى جدارها.

كانت صدمته تشل لسانه.. لم يعلم ما رد الفعل المناسب.. هل ينكر؟ يسأل؟ يعترض؟ يستنجد؟! ولكنها أجابت على كل أسئلته بينما ترمقه بتلك النظرة التي تمزج الحزن والغضب: «لم ولن أنسى طعنتك لي أبدًا.. لا فائدة من وشم النسيان الذي وضعتَه على ظهر رقبتي.. لسوء حظك.. أنا منيعة ضد وشوم النسيان».. ثم همست: «لستُ بومة غافية.. لا أحد ينتف ريشي». وابتعدت بالخطوات تاركة إياه في انتظار لحظات الألم الشنيع.

كان سيسيل جالسًا على الأرضية الصخرية.. يهم بتناول وجبته الأولى بعد ثلاثة أيام من التجويع.. شعر بالدماء تجري في عروقه مجددًا وبذلك الصداع القاتل ينجلي فجأة.. لم يأتِ سجّانه لزيارته اليوم.. تساءل في داخله عن السبب.. ولكن زيارة أوفيليا حملت الإجابات.

رفع ناظره ليرمق باب الزنزانة وهو يُفتَح.. ثم تدلف الأميرة التي لا تخشى شيئًا ولا تشمئز من أي شيء.. تسير غير آبهة بكونها تدوس على قذارات قد تكون دماء أو فضلات بشرية أو قيء.. ولا تعتصر لها خلجة في وجهها إثر الرائحة المنفرة.

وقفت قبالته، فتوقف عن مضغ قطعة البطاطس التي ملأت فمه.. وابتلعها كما هي..

قالت بوجه لا يشي بأي تعبير: «سوف أسامحك على تطفلك».

ارتسم تعبير من السخرية على وجهه وهو يجيب: «سيكون هذا لطفًا منكِ أيتها الأميرة».

- لكني أريد منك الصمت في المقابل.. لن تفضح سرّي.

- وما الذي يضمن لكِ هذا إنْ أطلقتِ سراحي؟

- أستطيع مساعدتك في إيجاد الوشم الذي يشفي شقيقتك آيريس من حالتها المرضيّة.

- وكيف أضمنُ هذا؟

- لن تضمن شيئًا.. ولكن ما الأثمن برأيك؟ هل تفضل التخلي عن فرصة ضئيلة لعلاج شقيقتك مقابل فضح أميرة لن تنفعك فضيحتها بشيء؟

- بالطبع أفضل الاحتفاظ بأي فرصة لعلاج آيريس.. ولكن لماذا تخاطرين أنتِ بإطلاق سراحي؟

ارتسمت ابتسامة على وجهها وهي تجيبه: «لذات السبب الذي يجعلك تجادلني.. أنت تثمّن المعرفة أكثر من أي شيء آخر».

- ما الذي تقصدينه؟

- إنّ الوشوم المحظورة أشبه بتيار لا يلبث أنْ يجرك إلى أعماقه.. لقد رأيتَ أحد هذه الوشوم.. وستلهث وراءها قريبًا جدًّا.. لا أرى الغباء في عينيك.. الأغبياء فقط من يدمرون فرصهم الذهبية من أجل تدمير الآخرين.

لم تغِب الدهشة عن وجهه..

عادت لتردف: «أنا لا أضيع أي فرصة تجعلني أقوى.. ولهذا سأنتظرك.. سترحل من هذه القلعة وستدفن نفسك في غبار مكتبات الصومعة.. وحين يحين الوقت المناسب، ستأتي إليَّ لنعمل معًا على إيجاد أشياء كثيرة.. وسيكون شفاء آيريس أولها.. لا أستطيع أنْ أدَّعي بأني أحبها أكثر مما تحبها.. ولكن ثق بأنّ هذه الطفلة تملك مواَهب أحتاجها جدًّا.. لا أستطيع الاستغناء عنها مهما حدث».

حلت لحظات صمت قبل أنْ تتابع: «شرطي الوحيد هو أنْ تكون إلى جانبي.. في اللحظة التي سأجدك تقف إلى جانب شخصٍ آخر.. سيكون موتك».

استدارت مبتعدة، وجاء الحُراس ليفكّوا أغلاله.. أما سيسيل، فقد بدأت جذوة فضوله تشتعل بالفعل.. لقد بدأ يفهم سبب ثقتها به.. إنه يرى أين تكمن مصلحته الآن.. أين تكمن فرصة علاج آيريس.. عليه أنْ يسكتشف الإرث المحظور.

أخذت فيولا تكنس الأرضية قبالة البيت الطيني المتهالك.. كانت قد أعدت طعام الغداء وانتهت من جلب المياه وتنظيف الملابس.. لم تسمح للعجوز بأداء أي من مهام البيت.. كانت تريد أنْ تظهر بمظهر الزوجة الرائعة في عيني والدة سيسيل.. وقد نجحت بالفعل.

وضعت المكنسة جانبًا حين لمحت آيريس الجالسة على البقعة الطينية.. تهم برسم أشكال مختلفة على الأرضية باستخدام عود خشبي أخذت تغرسه في الأرض وتلوث معه يديها ووجهها وثيابها.

اقتربت منها فيولا لتهمس: «لقد نظفتُ بيتكم القذر للتو.. لن تدخلي إلى الداخل وأنتِ بهذه الحالة!»

لم ترد آيريس جوابًا، بل تابعت الرسم.. لم تتقصد تجاهلها هذه المرة، ولكن تركيزها كان منصبًا على ما ترسمه.

اقتربت فيولا وقد رسمت تعبيرًا من الاشمئزاز على وجهها: «ما الذي تفعلينه؟! هل تظنين نفسك طفلة حقًا؟! مَن في عمرك يتزوجون وينجبون أطفالًا وأنتِ ما تزالين تلعبين بالطين!»

ولم يأتِها جواب.. فاقتربت أكثر.. وارتسمت على وجهها الدهشة حين رأت الأشكال التي ارتسمت على الأرضية الطينية.. كان خليطًا من الأشكال الرباعية والنقاط المصطفة على نحو دقيق يصعب على أي طفل -أو بالغ- أنّ يتقنه.

كشرت فيولا وهي تسألها: «ما هذه الأشكال؟ من أين تعلمتِ هذا؟!»

الآن فقط، نجحت في جذب انتباه آيريس التي انتفضت خوفًا وأخذت تطبطب على الأشكال لتخفيها.

جثت فيولا قربها وعادت لتسأل: «مَن علمكِ هذه الأشكال؟ أجيبيني!»

- لا أحد!

ونهضت لتجري إلى داخل البيت.

صاحت فيولا: «توقفي! لقد نظفتُ البيت للتو!»

ثم انصرفت بدورها للتظلم والشكوى عند والدة سيسيل.

في قبو الحصن القديم.. جلست ليلاك برفقة الملثّمَين بالسواد.. بادرت بالحديث: «لقد نفذتم الاتفاق.. وحان دوري لأعطيكم أجركم من الذهب.. ألم تحددوا أجرتكم بعد؟»

قال أحدهما: «الفوضى تعم قصر الرمال.. والجميع يبحث عن الملك ومستشاره.. كيف تنوين إخماد هذه الفوضى؟ هل أنتِ مَن سيحكم المملكة؟»

- لطالما كنتُ مَن يحكم.. هل تظن بأنّ إيدن كان يحكم حقًا؟ كل ما كان يفعله هو تعطيل كل قرار يصب في مصلحة مملكته.

- أنتِ تريدين تنصيب الأمير ميست ملكًا.

- وهل ترى هذا قرارًا سيئًا؟

- الأمير ميست منتسب إلى صومعة القضاة.

- سأتدبر الأمور إلى حين عودته.

حلت لحظات من الصمت قبل أنْ يجيبها بصوته الصارم: «أنتِ.. ضعيفة الذاكرة جدًّا».

ارتسمت تكشيرة استنكار على وجهها، فتابع: «صومعة القضاة هي المكان الذي خرجنا منه.. صومعة القضاة هي المؤسسة التي

ننوي تدميرها.. لقد تم نفينا إلى هذه المملكة حتى لا تتاح لنا فرصة المساس بها.. وأنتِ تريدين تنصيب أحد المنتسبين لها مَلِكًا!»

زفرت بعمق وهي تقول: «ميست لم يذهب إلى هناك ولاءً لهم.. بل ذهب ليتعلم حتى يصبح ملكًا حكيمًا».

- عودة ميست ستكون بعد سبع سنوات في كل الأحوال، ولكن هناك أمر آخر ينبغي لنا أنْ نذكرك به.

- ذكرني به إذًا.

- بعد أنْ تم نفينا إلى هذه المملكة.. هناك مَن شن علينا حربًا لأننا نشكل خطرًا.. هل تتذكرين هوية مَن بدأ بتصفيتنا حتى فقدنا نصف عددنا؟ هل تتذكرين السبب وراء اختبائنا لنصير منظمة سرية من مجهولي الهوية؟

ازدردت ليلاك ريقها وهي تشعر بقشعريرة خوف تسري فيها..

تابع: «إنه أنتِ أيتها الملكة ليلاك! تظنين بأنّ أوامرك كانت سرية حقًا؟! تظنين أنَّ البوم الهالك لا يعلم بهوية مَن قضى على نصف سربه؟»

أجابت في هدوء وصوت حاولت أنْ يظهر الحزم فيه: «كان هذا إجراء ضروري ضد التهديد الذي جاء يطال مملكتي.. ولكني أدركت بعدها أنكم لا تمثلون تهديدًا وتركتكم في حال سبيلكم! لقد مرت عشر سنوات منذ هذه الحادثة.. لمَ تتحدث عنها الآن؟!»

- بل أدركتِ بأننا نفوقك قوة ولهذا تركتِنا في حال سبيلنا.

نهضت ليلاك واقفة وقد تبدى الغضب واضحًا في عينيها: «لمَ تحاسبني على أمر كهذا؟! لقد حدث هذا منذ زمن بعيد! نحن هنَا الآن من أجل الاتفاق الذي عقدناه ووافقتم عليه».

- أنتِ لا تغيرين نظرتكِ عنا أبدًا.. كم مرة علينا أنْ نخبرك بأننَا لسنا قتلة مأجورين؟ نحن نفعل الصواب أيتها الملكة.. نحن لا نقتل من أجل الذهب وحده!

- ما الذي تريدونه إذًا؟!

- نريد إحقاق العدالة.. وهذه العدالة تتجلى في أنْ يتم إقصاؤك أنتِ وميست مِن أي سلطة.

- لـ... لماذا وافقتم على طلبي إذًا؟ ومَن الذي سيحكم المملكة؟!

ارتسم تعبير من الدهشة والرعب على وجهها وهي تسمع أصوات الأقدام القادمة على درجات القبو.. وخلال لحظات.. اقترب إيدن ومستشاره ووقفا يرمقانها بكراهية لم ترَها من قبل!

نهض الملثم واقفًا، همس: «كان من الضروري تدبير هذا ليتسنى للملك رؤيتك على حقيقتك.. هذا يساعده على اتخاذ قرار سليم ما كان سيتخذه تحت ظروف أخرى».. ثم استدار ورفيقه منصرفَين.. أما إيدن.. فاقترب منها ليقول في غضب وانكسار: «لا أصدق أنكِ عرضتِ الذهب لقتلي.. أنا.. لا أصدق».

أجابت بصوت يشوبه الرعب: «أنا.. لم آمر بـ.. قتلك».

تدخل ريجان: «الملكة ليلاك يجب أن تُعاقَب».

رد إيدن ولم تفارق عيناه ليلاك لحظة: «بالطبع.. لا يمكن أنّ تمر فعلة كهذه دُون عقاب».

استدار منصرفًا وتبعه ريجان.. أما ليلاك.. فظلت في ذلك القبو الذي جعله إيدن سجنًا لها.



الفصل السابع
الإرث المحظور

صباح اليوم التالي، وفي قلعة القمم الدخانية، وقفت فيولا تنوح على بوابة القلعة حتى يسمحوا لها بمقابلة الأميرة أوفيليا.. لقد لحقت بآيريس ولكن الأخيرة سبقتها واختفت في داخل القلعة.

وحين أدركت أن لا سبيل للسماح لها، أخذت تتوسل إلى المارة ليوصلوا رسالتها -الشفهية طبعًا- إلى الأميرة.. وبالفعل، وجدت مَن يوصل تلك الرسالة.. وأدركت بأنها وصلت حين جاء أحد الحراس ليصحبها إلى الداخل لمقابلة أوفيليا.

وفي بهو القلعة الواسع، وقفت قبالة الأميرة بينما ترتعش أوصالها.. كانت المرة الأولى التي تزور فيها مكانًا كهذا.. وزادت رهبتها إثر رؤية الأميرة أوفيليا.. الآن تدرك أنّ سيسيل لم يأتِ إلى هنا من أجل العبث.. أميرة كهذه لا يمكن العبث معها أبدًا.

اقتربت منها الأميرة لتهمس: «أخبرتني إحدى الخادمات بأنك تعلمين شيئًا عن شخص ينشر وشوم القلعة».

قالت فيولا بصوت مرتجف: «نـ.. نعم.. هـ.. هناك خادمة تعمل عندك.. اسمها.. آيريس.. إنها ترسم وشومًا غريبة في كل مكان..

إنها.. لا تزور مكانًا سوى القلعة.. ولهذا.. ظننت أنّ من واجبي أنْ أخبرك بالأمر».

- هل لكِ أنْ تهدئي قليلًا؟ لِمَ كل هذا الخوف؟ أنا لن أؤذيك.

- سيسيل.. سيقتلني إنْ علم بالأمر.. أرجوكِ.. لا تخبريه بأني أخبرتك بالأمر!

- سيسيل؟

- أنا.. زوجته.

أومأت أوفيليا تفهمًا، ثم عادت تسأل: «اسمعيني.. لا توجد هناك وشوم تخص القلعة.. ولكن يبدو أنّ آيريس تأثرت قليلًا بما تراه من نقوش وزخارف في أرجاء القلعة».

شعرت فيولا بخيبة أمل كبيرة، لكنها قالت: «أنا أعتذر إنْ كنتُ مخطئة أيتها الأميرة.. ولكني خلتُها مثل الوشوم التي يدرسها سيسيل.. أنا آسفة جدًا لأني أضعت وقتك الثمين!»

- لكن.. كيف قامت آيريس بنشر هذه النقوش؟ هل تملك أوراقًا وكتبًا في بيتها؟

- لا.. ولكنها ترسمها على الجدران بالطبشور.. وتقول بأنها تعلمتها من قلعة القمم الدخانية.. هناك من بدأ بتقليدها في الحي.. وأخشى أنْ تمتلئ جدران الحي بها.

أخذت أوفيليا نفسًا عميقًا قبل أنْ تهمس: «لا يمكن أنْ ينجح أحد في تقليد آيريس.. تعلمين أنها تملك موهبة رسم عظيمة لا يضاهيها

فيها أحد.. لقد وصلت رسالتك.. وأتمنى أنْ تغربي عن وجهي لأني أكره الكذب جدًّا».

اتسعت عينا فيولا رعبًا وهي تتراجع خطوة إلى الوراء، ثم همست قبل أنْ تبتعد: «أنا آسفة على تضييع وقتك الثمين أيتها الأميرة! سامحيني!»

ولكن أوفيليا تابعت سيرها مشيحة ببصرها عنها.. كانت واثقة بأنّ آيريس تفي بوعودها دائمًا.. لقد وعدتها بأنها لن تخبر أحدًا عن الوشوم.. من المُحال أنْ ترسم آيريس الوشوم على جدران الحي كما تَدّعي تلك الفتاة الهستيرية الكاذبة.. ولكنها تدرك أيضًا أنّ آيريس في الحقيقة طفلة.. عقلها عقل طفلة في الرابعة.. ومِن المحتمل أنْ تكون قد أفشت عن الأمر دُون قصد.. وما دامت هناك فتاة تنبهت إلى الوشوم.. فمِن المحتمل أنْ يتنبه غيرها أيضًا.. ولهذا، أخذت أوفيليا تفكر في حل جدّي لمنع احتمال كهذا.

استلقى سيسيل على السرير الخشبي في إحدى حجرات العلاج في صومعة القضاة.. لقد تم الاعتناء بجراحه دُون الحاجة إلى استخدام أي وشم، ولكنه كان يحتاج المزيد من الراحة للتعافي.. جلس سيروس -معلمه- جوار سريره، قال بعد لحظات من الصمت: «أنا السبب فيما حدث لك.. ما كان عليَّ أنْ أورطك في هذا الأمر».

- بل أنا ممتن لك.. وسأكون ممتنًا أكثر إنْ أخبرتني أكثر عن الوشوم المحظورة.

بدت نظرة استنكار على وجه سيروس وهو يجيب: «ما الذي تقوله؟ من غير المسموح لك أنّ تأتي بذكر هذه الوشوم على لسانك.. عليك أنّ تنسى كل ما حدث.. هل تفهم؟ انسَ كل ما رأيتَ وكل ما سمعت!»

لم يرد سيسيل جوابًا.. كان سارحًا.. تلتمع في عينيه نظرة تعلق وتوق..

همس سيروس في غضب: «عقاب مَن يعبث بالوشوم المحظورة هو الإعدام! هل تعلم هذا؟!»

- لماذا؟ ما القوة التي تملكها هذه الوشوم حتى يتم تحريمها بهذا الحرص؟

- إنها تفتح بوابة من بوابات الجحيم.. وحين تفتح لك تلك البوابة.. ستعبرها كالأحمق لأنك تريد المزيد.. ستود بالمزيد دائمًا.. لا يمكن أنّ تكتفي من هذه الوشوم.. إنها وبال كفيل بتدمير العالم.

- لكني لا أريد سوى شيء واحد.. أريد إيجاد علاج لشقيقتي.. أنا لستُ أحمق.. ولن أعبر بوابات الجحيم.

- الوشوم التي نتعلمها لها ضوابط وقواعد.. نعرف حدود ما نتعامل معه.. ولكن الوشوم المحظورة أمر آخر.. لا قواعد في التعامل معها.. يمكن أنّ تدمجها لتصبح شيئًا آخر.. يمكن أنّ تُطبقها على الجماد والحيوان وعلى أكثر من جسد واحد.. يمكن أنّ تطبقها على أجسام ليست في مجال بصرك ولا حتى في العالم الذي نعيش فيه! إنها غير قابلة للتصنيف.. قوتها

تفوق قدرة أي بشري على التحمل والتحكم.. لا تؤدي إلا إلى الهلاك.

- قوة كهذه لا بُدَّ أنها كافية لعلاج شقيقتي.

- هذه ليست قوة! بل فوضى شيطانية عارمة.. لا يمكن أنْ تحيط بهذا العلم! لا يمكن أنْ تملك العقل الكافي! سترتكب أخطاءً وتهلك قبل أنْ تجد العلاج الذي تبحث عنه.

- لكن الأمر يستحق المحاولة.. لم يجد أحد علاجًا لحالة شقيقتي باستخدام وشوم الشفاء العادية.. ولا يمكن أنْ أجد أنا العلاج.. فهذه الوشوم محدودة ولها قواعد صارمة.. لا يمكن أنْ تفعل أكثر مما تم تقديره.

زفر سيروس بقوة وهو يقول في صرامة: «سيسيل!»

- يمكنني أنْ أعدك بعدم الاقتراب من هذه الوشوم.. ولكني سأفعل في غيابك.

- أنت تجعلني أشعر بأشد الندم لأني ظننت بأنّ من الإمكان الوثوق بك.

- لا أريدك أنْ تندم.. أريد أنْ أفعل هذا تحت إشرافك.. أريد مساعدتك.

- لا يمكنني مساعدتك.

- لا أريد منك أنْ تعلمني أي شيء.. ما أريده منك هو أنْ أبقى تحت رقابتك لتوقفني إنْ انجرفتُ دُون وعي.

- وستريد مني أنْ أسمح لك بالاطلاع على المكتبات السرية أيضًا.. ستريد مني أنْ أخرق قوانين الصومعة وكل مبادئي وعهودي.

- وهل ستتركني أبحث عن طريقة أخرى من وراء ظهرك؟

- لن أفعل.. أعلم مدى عنادك.

- إذًا، أنت موافق على خرق القوانين من أجلي.

- وعليَّ قتلك إنْ رأيتك موشكًا على عبور بوابة الجحيم.

ارتسمت ابتسامة على وجه سيسيل وهو يقول: «شكرًا».

- أنا لا أمزح.. سأقتلك بيدي دُون تردد إنْ لزم الأمر.

- أعلم.. ولهذا أشكرك.

حلت وهلة من الصمت، عصفت فيها الأفكار برأس سيروس.. هو لم يوافق على قرار كهذا لأن سيسيل أجبره.. ففي داخله، تكمن ذرة من التشجيع لدفع سيسيل لاتخاذ هذا القرار.. كل ما في الأمر هو أنه لم يكُن يريد أنْ يتحمل ذنبه.. لم يكُن يريد أنْ يحكم عليه بالهلاك بنفسه.. أما الآن، فيمكنه أنْ يتنفس الصعداء لأنه لم يحكم على سيسيل بالموت.. فسيسيل اختار الأمر بنفسه.. صحيح أنه سينقض القوانين، ولكنه سيفعل هذا لمصلحة الصومعة.. سيكون سيسيل هو الأداة التي سيتمكنون خلالها من فرض المنع على الوشوم المحظورة.. فكيف يمكن أنْ يتم القبض على مَن يجيد هذه الوشوم دُون الاستعانة بمَن يفهمها؟ ربما كان من المُحال أنْ يقدر فرد عادي على مواجهة

الأميرة أوفيليا والقبض عليها متلبسة بجريمتها.. ولهذا، لا بُدَّ أنْ يشرف على تجنيد مَن يقدر على ذلك.

لم تستطِع أوفيليا تفادي بريشيليا التي جاءت لتقطع طريقها، تمطرها بنظراتها الغاضبة.. بادرت حديثها بسؤال مباشر: «أين هو؟»

أطلقت أوفيليا زفرة عميقة قبل أنْ تجيب: «أميرك الذي لم ينجح في قتلي؟ إنه يتعفن.. اذهبي وابحثي عنه في برج السلاسل».

- لقد أرسلتُ من يبحث عنه بالفعل.. ولم يجدوا له أثرًا.

- كما تعلمين.. لقد قضيت الأيام المنصرمة أحتضر في فراشي.. مِن الصعب أنْ أراقبه وأنا أحتضر.

- لقد اختفى اليوم! أي بعد نهوضك من مرضك الكاذب.

ارتسمت ابتسامة على وجه أوفيليا وهي تقول: «ربما ذهب إلى القبر إذًا».

ولم تستطِع أنْ تتفادى الصفعة التي لفحت خدها.

أخذت بريشيليا تصيح: «أجيبيني! ما الذي فعلته؟! أنتِ تتذكرين تهديدي السابق، صحيح؟ سأخنقك في نومك! سأخنقك!»

وضعت أوفيليا يدها على خدها الملتهب وهي ترمق شقيقتها الهائجة بنظرات هادئة تختزن الكثير.

همست: «حاولي»، ثم تنحت جانبًا وابتعدت.

أما بريشيليا، فابتعدت مسرعة إلى جناحها، تلحق بها وصيفتها المرتعدة -كالعادة- وهناك، تجاوزت الصندوق الذي فاض بالخيوط الذهبية.. دُون أنْ تلقي له بالًا.

بادرت إيفي بالحديث لتخفف من انفعالها: «لقد وصلت الدفعة الأولى من خيوطك الذهبية يا أميرتي.. هل آمر الخادمات بإحضار القماش وإبر التطريز؟»

- لا أريدها! خذيها أنتِ!

اقتربت منها إيفي لتقول في هدوء: «ما تفعلينه خاطئ يا أميرتي.. أنتِ لا تلاحظين تصرفاتك»..

أجابتها بريشيليا في غضب: «أوفيليا تستحق ما هو أكثر من تلك الصفعة!»

- أوفيليا ستصبح الملكة يا أميرتي.. أنت تعطينها أسبابًا لأذيتك حين تملك القوة.

لم ترد جوابًا.. كانت تعلم مدى صحة هذا.. ولكنها كانت من النوع الذي يخطو الخطوة ولا يفكر بالخطوة التي تليها.

تابعت إيفي: «كيف أضعتِ فرصتكِ مع الأمير ميست؟ أنا لا أصدق ما فعلتِ».

- بدا لي متغطرسًا ولئيمًا.. أنا أكره هؤلاء المنمقين.. أكرههم.

- عندما يقارنك الآخرون بالأميرة أوفيليا.. يرون أنكِ الأكثر تنمقًا.

حلت لحظة صمت قبل أنْ تسألها بريشيليا: «هل أنا.. متناقضة حقًا؟»

- نعم يا أميرتي.. أنتِ شديدة التناقض.. وهذا ما قد يستغله أعداؤك.

- لكني لا أشعر بأني متناقضة.

- لأنكِ لا ترين نفسك يا أميرتي.

قالت بنظرة سارحة: «ما أشعر به.. هو أني كنت ضائعة ومتخبطة.. لم أكُن واثقة حقًا مما كنت أريده.. في داخلي.. كنت أعرف أني مخطئة.. ولكني لم أكُن أجرؤ على الاعتراف.. الآن فقط.. أعلم ما الذي أريده حقًا».

- وما الذي تريدينه؟

- أريد أنْ أكتشف عالمه.. ذلك الشاب البسيط.. أريد أنْ أتحدث معه.. أريد أنْ أعرف كيف يعيش حياته البسيطة.

تابعت بعد لحظة صمت: «صرت أكره العيش في هذه القلعة بعد رؤيته.. أشعر بأني لا أعيش الحياة على حقيقتها».

- هل تظنين بأنّ حياته بسيطة حقًا يا أميرتي؟ حياته أكثر تعقيداً من حياتك بمراحل.. جميع البسطاء يعيشون حياة معقدة.. إنهم يفكرون في أمور تظنينها وُجِدت بمحض

الفطرة أو الصدفة.. هل فكرتِ يومًا في كيفية الحصول على قوت يومك؟ هذا أبسط مثال.

- لكنكِ لم تنظري إلى عينيه يا إيفي.. إنه مختلف.. ذلك العمق في عينيه.. لا أعرف كيف أصفه.

- جميع الفقراء يملكون مثل تلك النظرة يا أميرتي.. كل ما في الأمر هو أنكِ لم تحدقي في عيونهم بما يكفي.. وأنا أتفهم سبب انجذابك إليه.. لقد شدّك لأنه لم يلتفت إليكِ، صحيح؟ لم يبالِ بجمالك بينما كان الجميع يحدقون بكِ.. قد يكون تصرفه هذا غريبًا ولكنه ليس مبررًا لردة فعلك المبالغ فيها.. ربما كان قد جاء إلى القلعة تاركًا والدته أو شقيقته تتضور جوعًا.. ولهذا كان شاردًا يفكر في كيفية تدبر قوت عائلته.. لا بُدَّ أنه يعيش حياة معقدة حقًا.. ولكنك أميرة.. أنتِ في مستوى يفوق مستواه بمراحل.. لا يمكنك أنْ تنحدري إلى تعقيدات حياة البسطاء!

- لا أستطيع.. كلما تذكرته.. أشعر بقلبي ينقبض حزنًا.. لا يمكنني أنْ أتجاهله.

- هل تظنين أنه سيرحب بك ويبادلك الإعجاب؟ أهناك مَن يُعجب بمن يراه سببًا لشقائه وتعاسته؟ جميع الفقراء يؤمنون في داخلهم بأنّ الأغنياء هم سبب فقرهم.. لو كانوا قد تخلوا عن بعض أموالهم لما صار هناك تفاوت في الثروات.. أنا من هذه الطبقة يا أميرتي وأعرف كيف يفكرون.

- أنا لا أريده أنْ يُعجب بي.

- تريدين أنْ يقحمكِ في حياته ويفتح لك قلبه لأنكِ ترغبين في ذلك وحسب.. لن يرحب بكِ يا أميرتي.. إنه ليس سبيكة ذهب تمتلكينها! إنه بشريّ.. ولا يمكنكِ أنْ تتوقعي أنْ يحدث ما تريدين لأنكِ ترغبين بذلك! لا تفكري كما يفكر أغلب الأغنياء.

حلت وهلة من الصمت لم تعرف بريشيليا كيف تخرقها.. ولكن التعبير المرتسم على وجهها كان يشي بالضياع المشوب بالحزن.

ربتت إيفي على كتفها وهي تهمس: «أرجوكِ.. عليكِ أنْ تدركي أنّ لا جدوى من هذا التفكير».

- حسنًا.. سأحاول تجاهله.. ولكني أريد أنْ أطمئن أنه بخير أولًا.. لا أدري ما الذي حدث له بعد حادثة أوفيليا.

- عليكِ أنْ تتجاهلي هذا أيضًا.

- أحضري ريشتي وعدة الكتابة.. سأكتب رسالة إلى.. صومعة.. ماذا كان اسمها؟

- صومعة القضاة.

قالتها وهي تنهض لتحضر ما أمرت به بريشيليا.. رغم المخاطرة، فإنّ إيفي كانت سعيدة بأنّ بريشيليا اكتفت برسالة عوضًا عن الذهاب بنفسها.. ولم تعلم بأنّ هذه الرسالة كانت البداية.. بداية

لانخراط بريشيليا في أمور أكبر منها وأكثر تعقيدًا من أي شيء مضى في حياتها.

حين عادت فيولا إلى القبو.. وجدت سيسيل.. يجلس في إحدى الزوايا منهمكًا في الكتاب الكبير الذي فرشه على طاولة خشبية صغيرة قبالته.

تنبه إلى قدومها، ولكنه لم يبدِ أي رد فعل.. بل تابع قراءته.

صاحت وهي تندفع نحوه: «سيسيل! لقد اشتقت إليك! لا أصدق أنك قد عدتَ أخيرًا!»

كانت ترسم ابتسامة بلهاء على وجهها.. بينما تكاد عيناها تذرف الدمع -الذي تذرفه في كل يوم دُون انقطاع-

رفع بصره لجزء من اللحظة قبل أنْ يعيده إلى كتابه.. ولم يرد جوابًا.

عادت لتقول بنبرة أعلى: «أهكذا تستقبلني؟! لماذا تتجاهلني؟ أخبرتك بأني اشتقت لك كثيرًا!»

همس: «أستقبلك كما ودِّعتِني.. ما الذي يثير غرابتك؟»

صمتت للحظة قبل أنْ تقول بصوت مهزوز: «لقد ودعتكَ بدموعي لأني لم أكُن أحتمل فكرة غيابك!»

رفع رأسه ليتأملها للحظة قبل أنْ يسألها: «هل أنتِ واثقة؟ ما أتذكره هو أننا كنا نتشاجر».

- لماذا تتهمني بأنني كنت أشاجرك؟ أنت من دفعني بقوة لأسقط أرضًا! لقد تسببتَ لي بكدمة كبيرة على كتفي.

أطلِق زفرة عميقة وهو يهمس: «حالتك تتفاقم سوءًا.. ربما كان من الأَوْلى أنْ أبدأ بالبحث عن علاج لحالتك.. من الواضح أنها أكثر خطورة من حالة آيريس».

تبدلت ملامح وجهها ليرتسم الغضب عليها: «والآن تقارنني بتلك البلهاء؟!» ثم استدارت لتدفن وجهها في كفيها باكية.

لم يرد جوابًا، صار قادرًا على تجاهلها بكفاءة.. وقادرًا على التركيز فيما يقرأ رغم صوت بكائها.. كان واثقًا بأنّ تجاهله إياها يغذي كراهيتها له -رغم أنه لا يملك وسيلة أخرى للتعامل معها- ولكنه لم يتوقع أنّ ما فعله للتو سيدفعها إلى اتخاذ قرار جديد هذه المرة.. لقد قررت أنه يحتاج إلى بعض التهذيب.. وستبدأ في البحث عن ثغرة.. لديها كل الوقت لتقضي أيامها بحثًا عن خطأ يُعاقب عليه.. يجب أنْ يفشل في إيجاد العلاج الذي يبحث عنه.. يجب أنْ يُطرد من الصومعة.. يجب أنْ يُلقى في زنزانة القلعة.. هكذا فقط ستشعر بالارتياح بعد إهاناته لها.





الفصل الثامن
الاختفاء

مرت عدة أيام، تنازلت فيها ليلاك عن كبريائها لتقرر الحديث إلى حارس زنزانتها.. كان عنيدًا وجبانًا.. يخشى التواطؤ معها مثلما يخشى تجاهلها.. ولكن الدقائق التي كان يفتح فيها باب القبو -لإيصال طعامها- صارت تطول شيئًا فشيئًا.. وفي النهاية، أقنعته بالقيام بمُهمة صغيرة لصالحها.. مُهمة ما كانت لتقدر عليها لو كانت في القلعة.. لقد طلبت منه أنْ يأتيها بعدة كتابة وأنْ يتولى مهمة إرسال رسالتها إلى صومعة القضاة.. وتحديدًا، إلى الأمير ميست.. تخبره فيها بأنها تتعفن في قبو معزول بينما يعيث إيدن وريجان فسادًا في المملكة.

ولم تكُن تلك رسالتها الوحيدة.. فقد نجحت في جعل حارسها مرسالًا لها.. وكان الوسيلة التي تلقت بها رسالة من ميست أخيرًا.. تعجبت لسرعة وصول الرد، ولكن تعجبها تلاشى حين همت بالقراءة لتدرك أنّ هذا ليس ردًا.. لقد أرسل ميست هذه الرسالة قبل أنْ يتلقى رسالتها.. وعوضًا عن التعجب، ارتسم على وجهها تعبير من الرعب وهي تقرأ كلماته..

إلى الملكة ليلاك..

أكتب هذه الرسالة بكل ما في الأمر من مخاطرة لأني أثق بأنك الوحيدة القادرة على التصرف بحكمة.

لقد سمعت إشاعة عن رئيس الحدّادين.. مفادها بأنه يعمل على تصميم دروع قوية قادرة على مقاومة الحرارة العالية.. مملكة القمم الدخانية لا ترى الشمس إلا نادرًا.. قد ترين أني أتوهم، ولكنني لا أخطئ في هذه الأمور.. هناك مخطط لغزو مملكتنا.. عليكِ أنْ تفعلي كل ما في وسعك لإعادة تهيئة الجنود.. وعليكِ أنْ تفعلي هذا بمساعدة ريجان.. عليه أنْ يرضخ ويفهم.. يجب أنْ نجهز دفاعاتنا.

في صومعة القضاة، وفي أحد الأقبية.. جلس سيسيل وحيدًا، محاطًا بأكوام من الكتب شبه المهترئة.. لقد مر شهر كامل منذ أنْ اتخذ قراره باستكشاف الإرث المحظور.. والآن، صار يدرك بأنّ محاولة الإمساك بأطراف هذا العلم شبه مستحيلة.. فكلما حاول الإمساك بخيط أفلت آخر.. ولكنه كان أيضًا يؤمن بأنه على الطريق السليم.. عليه أنْ يتشتت وأنْ يفشل.. هذه مراحل لا بُدَّ منها.. ما يهم هو الصبر والاستمرار.

لم يكُن يعكر صفوه سوى رسائل بريشيليا التي تكاثرت في الآونة الأخيرة.. في كل مرة كان يعود لبيته يجد رسالة منها.. لم تكُن فيولا تجيد القراءة، ولكن نظرات عيونها المتشككة لم تغب عنه وهو يمزق الرسائل بعد قراءتها.

جميعها كانت رسائل بلا معنى -برأيه- تسأله عن أحواله وإنْ كان بصحة جيدة.. لم يرد أي جواب.. وكان يتساءل في داخله عن السبب الذي يجذب البلهاوات إليه.

ولكن هذا لم يكُن رأي فيولا التي صارت تراقبه دُون كلل.. تترصد لكل حركة من حركاته.. تحاول استرجاع ما كانت تتعلمه في دروس القراءة لتعرف ماذا يفعل! تشتم غباءها وإهمالها وتعيد المحاولة.. وكثرت المرات التي كان يأتي ليجدها تحملق في كتبه وأوراقه.. ولكنه لم يكُن يلقي لها بالًا.

لم يكُن يلقي بالًا لأي شيء سوى كتبه.. حتى تلقى تلك الرسالة من الأميرة -التي سماها في داخله بالأميرة البلهاء-

سيسيل..

لا أعلم لِمَ لا ترد على أي من رسائلي.. ولكني أظن بأنّ هذا الأمر يهمك.. شقَيقتك آيريس مفقودة.. لقد أرسلتُ خادمة تتفقدها في بيتها.. ولكن والدتك أخبرتها بأنّ آيريس لم تَعُد إلى البيت منذ عشرة أيام.. لقد خرجت دُون عودة.

تلك الرسالة، كانت ما قَلَب أفكاره ومشاعره رأسًا على عقب.. تلاشت ملامح اللامبالاة ليحل محلها تعبير من الغضب المشوب بالخوف.. كيف يمكن أنْ تختفي طفلةٌ معدومة لا يبالي بها أي لص أو مختطف؟! كانت نظراته كفيلة بإشعال الفضول في فيولا التي اقتربت لتسأله في قلق: «ماذا حدث؟! لمَ أنت غاضب؟»

أجابها بسؤال فاجأها: «هل أخذتِ الطعام إلى آيريس ليلة البارحة؟»

جاء ردها فوريًا: «بالطبع! أنا آخذ الطعام إلى هناك في كل يوم!»

- هل رأيتِ آيريس؟

هنا، أحست بأنّ هناك ما يريب في سؤاله، فأجابت: «لم أرها ليلة البارحة.. هل حدث شيء ما؟»

- متى كانت آخر مرة رأيتِها فيها؟

ألجمها سؤاله.. ولم تعرف ما الجواب الأنسب حتى لا تفضح كذبتها..

عاد ليسأل: «متى رأيتِها آخر مرة؟»

تعجبت من نفاد صبره، أجابت متأتئة بينما تتهيأ دموعها، «لـ.. لا أتذكر».

- أنا أتذكر.. أخبرتِني قبل ثلاثة أيام بأنّ آيريس شتمتكِ وقامت بسكب الحساء على ثيابك لأنه سيئ المذاق.

- لقد أريتُك ثوبي المتسخ!

- هذا ليس الجواب الذي أبحث عنه.

تراجعت خطوات عدة إلى الوراء بينما ألجمها الخوف والحيرة.

عاد ليقول بصرامة: «آيريس مفقودة منذ عشرة أيام.. لقد كنتِ تكذبين.. لم تأخذي الطعام إليها ولم تريها ولم تسكب الحساء على ثوبك».

أربكتها نبرة الحزم تلك.. لم تكُن قد سمعتها منه مسبقًا.. وكانت كفيلة بإطلاق شلال الدموع.

وكان يدرك بأنّ لا جدوى من الجدال معها.. رغم رغبته بعقابها، لكنه انصرف خارجًا مؤجلًا ذلك.. واتجه مباشرة إلى معلمه العجوز.. سيروس.

استنكر سيروس نظرات سيسيل الغاضبة وهو يطلب منه مساعدته على التسلل إلى خارج الصومعة..

كان رده صارمًا: «لن تخرج من الصومعة».

- أخبرتك بأنّ شقيقتي الصغيرة مفقودة.. يجب أنْ أذهب للبحث عنها.

- أنا لا أستطيع مساعدتك! ألا تفهم؟ ألا ترى كم حارسًا يقف على البوابات الخارجية؟!

- سأنجح بتجاوزهم إنْ حصلت على تصريح منك!

- ومَن قال بأنك ستقنعني في كتابة هذا التصريح؟ لن تخرج! هذا هو القانون الأكثر صرامة هنا.. لن تعبر البوابات!

- ماذا إنْ كانت شقيقتي في خطر؟ ما الفائدة من وجودي هنا؟ أنا لم آتِ إلى هذه الصومعة إلا من أجلها!

- يمكنني التدبر في إرسال مَن يبحث عنها.

- يجب أنْ أبحث عنها بنفسي.

أخذ سيروس شهيقًا عميقًا قبل أنْ يردف: «خروجك من الصومعة مرفوض.. لقد وافقتُ على مساعدتك في دراسة الكتب المحظورة ويجب أنْ تشكرني -على الأقل- باستكمال ما بدأتَ به.. لن تقدر على استكمال أي عملٍ تبدأه في حياتك إنْ سمحت لنفسك باختلاق الأعذار».

- اختلاق الأعذار؟ أترى اختفاء شقيقتي مجرد عذر اختلقتُه؟!

- صحيح أنه عذر قوي.. لكنه مجرد عذر.

- قد يبدو لك كعذر ولكنه أولويتي.. شقيقتي أكثر أهمية من الصومعة بما فيها.

- أخفض صوتك والتزم بآداب الحديث مع مَن يكبرك في السن والعلم والحكمة.

استدار سيسيل وهو ينوي الخروج بعدما بدأ باليأس من استجابة سيروس لمطلبه.. ولكن الأخير استوقفه: «إلى أين أنت ذاهب؟»

- لا شأن لك.

- بل هو شأني.. وستذهب إلى حيث أرشدك.

- لن أبقى في الصومعة.. مهما كانت عقوبتي ومهما كانت أوامرك.

- رغم وقاحتك.. تبقى مهمتي إرشادك.. ولن أبخل عليك بنصيحتي.

حلت لحظة من الصمت قبل أنْ يردف: «هناك طريقة تخرج بها من الصومعة.. دُون أنْ تلفت ناظر أحد.. ودُون أنْ تضطر إلى عبور البوابات».

اقترب سيسيل منه متسائلًا: «أي طريقة؟»

- أُومن بذكائك.. ولكنك تصدمني ببلاهتك في بعض الأحيان.

ابتلع سيسيل الإهانة.. فتابع شيخه: «ألم تقرأ حتى الآن عن وشم التنقل الآني؟»

كشر سيسيل مجيبًا: «قرأت عنه.. وشم شديد التعقيد وغامض الظروف.. إجادة وشم كهذا سيتطلب شهورًا».

- سيتطلب منك يومين أو ثلاثة.

- أنت تهزأ بي.

- سيتطلب يومين أو ثلاثة فقط إنْ كنت تفعلها من أجل شقيقتك.

- وهل يستحق الأمر أنْ أخاطر بإضاعة هذه الأيام؟

- وهل تفضل أنْ تقضي أضعاف هذه الأيام تسير فيها على قدمك بحثًا عنها؟ هل تتصور كَم الأماكن التي يمكنك البحث فيها إنْ أجدت الوشم؟ يمكنك أنْ تزور عشرات الأماكن -مهما بلغت المسافات بينها- في يوم واحد!

لم يرد سيسيل جوابًا.. لقد أدرك أنّ نصيحة سيروس هي الحل الأمثل.. فالتنقل الآني سيكون سلاحًا جبارًا.. ولهذا سيسهر الليلة ليدرسه وسيستهلك الكثير من الأوراق في محاولات إتقانه.. بالفعل، سيكون هذا الوشم سلاحًا جبارًا -وإنّ صح القول- سيكون جبارًا أكثر من اللازم.

على فراش القش، استلقى ميست بعد يوم طويل من الدراسة، يريح فقرات ظهره التي كانت تئن ألمًا إثر الجلوس المتواصل. وقبل أنّ يغفو، أخرج الرسالة التي استلمها قبيل عودته، وقرّبها من الشمعة الوحيدة المشتعلة قرب رأسه.. زفر بعمق بعد قراءة كلمات ليلاك.. همس: «تلك الحمقاء.. لقد حذرتها مرارًا من اللجوء إلى البوم الهالك».

أراح رأسه على الوسادة الخشنة وهو يغمض عينيه.. ولكن كلمات تلك الرسالة كانت كفيلة بشحن عقله بمختلف الوساوس والمخاوف.. حتى بعد إطفائه لتلك الشمعة وتخييم الظلام.. بقيت عيناه متسعتان.. يفكر في حل لمصيبته.. همس لنفسه: «لا يمكنني أنّ أغادر الصومعة.. عليَّ أنهاء ما بدأت به.. ولكن.. ليلاك لا يمكنها أنّ تفعل شيئًا.. لن يتركها البوم الهالك في حالها حتى وإنّ تم الإفراج عنها».

أطلق نفسًا عميقًا وهو يحدّق في السقف الذي لا يرى شيئًا منه، «حتى وإنّ كنت لا أستطيع أنّ أتلقى الدعم من مملكتي.. يمكنني أنّ أعمل لمنع هذه الحرب من الأساس.. يمكنني أنّ أستعين بمَن سيمنع الملك ميرلين من شن هذه الحرب».

كان هناك اسم واحد يلمع في عقله..

أوفيليا.. الأميرة الذكية والطموح.. من يمكن أنْ يردع قرارًا كهذا سواها؟ يجب أنْ يكسب دعمها.. هي وحدها من تقدر على إيقاف الحرب.. وفاتَه إنّ الذكاء والطموح هما منبع هذه النية.

وقفت فيولا، تتأمل ذلك الرسم الذي ملأ كل الأوراق التي تكومت في زاوية القبو.. لقد مر يومان.. قضاهما سيسيل في رسم الشيء ذاته.. انتفضت حين سمعت صرير الباب.. وابتعدت عن تلك الزاوية لترسم ابتسامتها الواسعة وهي تقول مرحبة به: «أوه.. لقد أتيتَ مبكرًا جدًّا! لكنك تبدو متعبًا!»

وضع الصفيحة المعدنية التي كان يحملها أرضًا وهو يقول: «خذيها واذهبي إلى بيتي.. تناولي عشاء هذه الليلة مع والدتي».

ارتسم على وجهها الحزن وهي تسأله: «لماذا؟ لماذا لا تريد تناول العشاء معي؟»

- لستُ جائعًا.. وأحتاج إلى التركيز فيما أعمل عليه.

- فهمت.. تريد التخلص من إزعاجي.

ولم يحتج إلى الالتفات ليرى تعبيرات وجهها المتبدلة في أقل من ثانية.. لتغيب الابتسامة ويحل الغضب والوجوم. يعلم تمامًا أنّ استكمال الحوار يعني انطلاق الدموع.. ولهذا اتجه إلى تلك الزاوية وجلس ليعطيها ظهره.

حملت الصفيحة المعدنية وهي تتجه نحو الباب بخطوات سريعة عالية الوقع.. ثم صفقته وراءها وابتعدت.. لم تكُن قد ابتعدت حقًا.. بل جلست وراء شجيرة وهمت بتناول طعامها.. ثم رمت ما تبقى وراء تلك الشجيرة.. وجلست تحدق في مدخل القبو بنظرات تمتلىء بالغل: «ما الذي يعمل عليه؟!» كان ذلك هو السؤال الذي يمزق أعصابها.

في الداخل، كان سيسيل يمسك بزجاجة السائل القاني.. يتأملها بينما اختلطت في داخله المشاعر.. لقد حان أوان رسم وشمه الأول.. استل الإبرة الرفيعة من صندوق خشبي صغير.. وأخذ نفسًا عميقًا قبل أنْ يشمر عن ساعده الأيسر.. لن يخطئ.. لقد تمكن من إتقان هذا الوشم - كان وشمًا صغيرًا.. ولم يعرف لمَ كان يعتقد بأنه سيأخذ الكثير من وقته حقًا.. صحيح أنه وجد بعض التناقض فيما يخص خواص هذا الوشم.. ولكنه لنْ يعلم الحقائق حتى يجرب.. إنه يحتاج إلى هذا الوشم.. ولا وقت لديه ليتعمق في تفحص تلك الخصائص الآن.

أغمض عينيه بقوة حين أحس بوخزة تلك الإبرة.. ولكنه أعاد فتحهما عنوة.. لا بُدَّ أنْ يرى مسار الإبرة جيدًا حتى لا يخطئ في الرسم، تابع.. ضاغطًا على أسنانه.. واصطفت على ذراعه النقاط واختلط السائل القاني بقطرات من دمه.. وحين اكتمل الشكل الرباعي الأخير.. سقطت الإبرة من يده ليشعر بتشنج شديد يعصف بعضلاته.. أغمض عينيه بقوة مانعًا نفسه من الصراخ.. ومرت لحظات الألم -التي بدت كساعات طويلة- لينتهي هذا التشنج

أخيرًا.. لقد اختفى من القبو تاركًا أوراقه وإبرته وراءه.. لقد نجح في إتقان وشم التنقل الآني.

وحين عادت فيولا إلى القبو.. فوجئت باختفائه.. وارتسم الرعب على وجهها للحظات.. لقد كانت تراقب المدخل طوال الوقت.. من المُحال أنْ يكون قد خرج! لكن مشاعرها سرعان ما تبدلت مجددًا حين وجدت أنّ هذه هي الثغرة التي كانت تبحث عنها.

ستنطلق إلى صومعة القضاة -وربما إلى القلعة أيضًا- لتخبر الجميع بأنه اختفى أمام ناظرها.. ستأخذ معها أوراقه لتريها إياهم.. وربما تدّعي أيضًا بأنه صفعها وذبح شقيقته قربانًا بعد أنْ سرق بعض الذهب.. هذه المرة، سيكون معها دليل ملموس سيجعل حكماء الصومعة ينتفضون.. دليل كافٍ ليفهموا كيف اختفى وليتخذوا قرارًا بالبحث عنه في كل مكان وإعلان أنه بات مطلوبًا للإعدام.

حين فتح سيسيل عينيه مجددًا.. وجد نفسه في مكان لم يره من قبل.. سماء صافية.. شمس خجول موشكة على المغيب.. وبيوت خشبية اصطفت في غير ترتيب.. لا أثر لأي جبال حوله.. نهض واقفًا حين تنبه إلى أنه يستلقي في منتصف الطريق الممهد بالحجارة.. حاول أنْ لا يثير الشبهة بفضوله.. ولكنه لم يستطِع أنْ يبعد عينيه عن المارة.. «أي قوم هؤلاء؟! كانت أشكالهم مختلفة.. لون بشرتهم يفتقر

إلى الشحوب الذي يتميز به قومه.. شعرهم يميل إلى درجات البني والأحمر المغايرين تمامًا للون شعره فاحم السواد.. حتى في حديثهم كانوا يستخدمون لغة مختلفة.

لقد نجح وشمه حقًا.. ولكنه لم يقرّبه قيد أنملة من شقيقته.. بل أبعده كثيرًا.. كثيرًا جدًّا.



الفصل التاسع
لقاء الساحرة

امتلأ صدر سيسيل بالقهر والحنق وهو يلعن نفسه ومعلمه على اتخاذ هذا القرار المتهور.. كان يجلس على قارعة الطريق عاجزًا عن فعل أي شيء.. يفكر في شقيقته.. يفكر في طريق عودته.. يفكر في الحقائق التي قرأها حيال هذا الوشم.. ويفكر في كيفية التفاهم مع هؤلاء القوم الذين يتجاهلونه ويبدون الاستغراب كلما حاول الحديث إلى أحدهم!

كان جائعًا.. وكان يشعر بنعاس شديد كونه قضى الليلة المنصرمة في الرسم على ضوء الشموع.. أرجع رأسه إلى الوراء ليستند إلى الجدار خلفه.. ولم يشعر بنفسه حين غفا غفوة طويلة لم يوقظه منها إلا شقاوة بعض الصبية الذين أخذوا يرشقونه بالحجارة في الصباح الباكر.. والذين لاذوا بالفرار فورًا حين رأوه يفتح عينيه.

نهض ليتجول في البلدة.. عله يفهم شيئًا على ضوء الشمس المنيرة.. تعجب من صخب السكان ومن الازدحام الذي لم يره ليلة البارحة.. وتعجب إثر أمر آخر لاحظه للتو.. هناك ما يشبه الضوء الخافت حول رؤوس المارين.. ضوء خافت يختلف في لونه وشدته

من شخص إلى آخر.. حاول أنْ يسير دُون أنْ يثير الفضول بحملقته فيهم.. ولم يتوقف إلا عندما وجد نفسه في ساحة مفتوحة: شبّان يرتدون دروعًا.. رغم حداثة سنهم.. آخرون يلوحون بسيوف خشبية.. تجمع بعضهم يتضاحكون أو يتشاجرون في مجموعات صغيرة بينما تفرق آخرون بدا عليهم الضياع.. بدا له المكان أشبه بساحة تدريب عسكري.. ولم تغب عنه نظراتهم المستنكرة لوجوده.. ولم يدرك مدى غرابة تواجده هنا إلى أنْ قبضت على كتفه يد حديدية لرجل ضخم البنية أخذ يصرخ فيه بصيغة متسائلة.

لم يرد سيسيل جوابًا.. كان يدرك بأنّ الرجل يسأله عن هويته أو سبب تواجده.. ولكنه لم يعرف كيف يصوغ له الجواب المناسب.

لم ينتظر الضخم كثيرًا.. بل دفع سيسيل دفعًا ليأخذه إلى أكبر الخيام المنتصبة في الساحة.

وفي الداخل، رآها تجلس على سجادة؛ امرأة بدت في الستينيات من العمر.. مُحاطة بأكوام من الكتب والأوراق المصفرة.. كان لها بشرة شاحبة تشبه شحوب بشرته، وإنْ امتلأت بالتجاعيد.. وكان لها شعر منسدل بالغ الطول، اختلط بياضه بسواده الذي كان فاحمًا يومًا ما.. ولم يكُن هناك أي ضوء يحيط برأسها كالبقية.. رفعت عينيها إليه.. ثم سألته: «مَن أنت؟»

ارتسمت على وجهه أمارات التعجب.. إنها تجيد لغته!

أجاب: «اسمي سيسيل.. مَن أنتِ؟»

انفرجت شفتيها عن ابتسامة كشفت بعض التجاعيد العميقة على جانبي فمها.. ثم أجابت: «أنا إينور.. ويلقبونني هنا بالساحرة».. ثم أشارت إليه ليجلس: «من المثير أنْ أجد أحد أبناء قومي هنا.. تفضل.. أود أنْ أسمع حكايتك».

واقترب رويدًا ليجلس على ذات السجادة.. وقرر أنه سيخبرها بالحقيقة.. لقد بدت له ككبيرة القوم هنا.. ثم إنّ تلك الكتب المتكوّمة حولها أعطتها لمسة من العلم والعقلانية.. وبعد كل شيء، لا أحد سواها قادر على فهم وضعه هنا.

ثم بدأ يفصح عما لديه.. يسرد حكايته منذ دخوله الصومعة وحتى انتقاله إلى هذا المكان الغريب.. ولم يرَ أي علامة من علامات التعجب على وجهها.. بل استمعت إليه في هدوء وانتظرته حتى ينتهي لتقول بلهجة ساخرة: «وكأنك تحكي حكايتي بشكل آخر».

سألها: «هل انتقلتِ أنتِ أيضًا إلى هنا بالوشم ذاته؟»

- صحيح.. كنت صغيرة ومتحمسة.. وظننت -بكل غباء- أنّ بإمكاني تطويع الوشوم المحظورة على هواي.

حلت لحظة صمت قبل أنْ يخرقها: «تتحدثين بصيغة الماضي.. أهذا يعني.. أنكِ.. أنكِ غير قادرة على العودة؟»

أخذت نفسًا عميقًا قبل أنْ تجيب: «أستطيع العودة متى ما أردت».

- ولماذا أنتِ هنا إذًا؟

- أنا سيدة القوم هنا.. الساحرة.. الحكيمة.. صانعة القوة التي يغرقها الملوك بالذهب لتساند جيوشهم.. هل تعلم ما سيحدث لي إنْ عدت إلى موطني؟ سأكون حبيسة زنزانة قذرة أو ربما أكون مجرد جثة.. لن أعود إلى هناك أبدًا.

- ولكن.. أي مملكة هذه؟ إنها لا تبدو كمملكة القمم الدخانية ولا حتى مملكة الصحاري.

اتسعت ابتسامتها مجددًا وهي تقول: «لا أصدق مدى بلاهتك حقًا.. أنت تفوق بلاهتي بكثير حين كنت في سنك.. على الأقل، كنتُ أعلم أنّ وشم التنقل الآني سينقلني عبر الأبعاد قبل أنْ أستخدمه».

اتسعت عيناه دهشة وهو يردد: «عبر.. الأبعاد؟ ما الذي تقصدينه بالأبعاد؟!»

- هل تظن بأنّ الأرض برمتها وُجدت ليسكنها سكان القمم الدخانية والصحاري وحسب؟ العالم أكبر بكثير مما تظن.. الأرض تسكنها مخلوقات عاقلة كثيرة.. كل ما في الأمر أنهم يسكنون أبعادًا مختلفة لا يمكن عبورها إلا بوسائل الإرث المحظور.. كل بُعد يسكنه مخلوقات يظنون بأنهم الوحيدون بسبب القصور في حواسهم.. عيوننا غير قادرة على رؤية ما هو أكثر من جزء شديد الضآلة من الطيف الضوئي الممتد.. آذاننا غير قادرة على التقاط ما هو أكثر من جزء شديد المحدودية من التردد الصوتي.. لا يمكنك حتى أنْ تتخيل سعة العالم الذي يقع خارج حواسنا.. فحتى عقولنا أصغر من أنْ تدرك كل هذه السعة.

كانت المرة الأولى التي يسمع فيها شيئًا كهذا.. عاد ليسأل: «أهذا يعني.. أننا.. في عالم مختلف؟»

- عمليًا.. نعم.. عالم مختلف من ضمن العوالم التي تقع على هذه الأرض.. أعلم أنّ من الصعب تخيل هذا، ولكن عالم الأرض ينطوي على عوالم مختلفة.. وكل عالم له محدوديته وقوانين الزمان والمكان الخاصة به.. وحين تنتقل بينها.. تنطبق عليك قوانين العالم الجديد.

- وما هي قوانين هذا العالم؟ كيف يختلف عن عالمنا؟

- هناك العديد من الاختلافات السطحية.. مثلًا.. صارت معدتي لا تتحمل بعض الأطعمة التي كنت معتادة على تناولها في عالمي.. وصار شعر رأسي ينمو بصورة غريبة منذ أنْ انتقلت إلى هنا، أحتاج إلى قصه كل شهر وإلا تجاوز طوله أسفل ظهري.

لم يقاطعها بينما تابعت: «وهناك عدد من الاختلافات الجوهرية.. مثلًا.. صرت قادرة على رؤية ما يشبه الهالة حول رؤوس هؤلاء الناس.. أستطيع معرفة مشاعرهم من ألوان هذه الهالة.. ولكن يبدو أنّ هذه القدرة لا تسري على سكان عالمي.. فأنت أول بشري أقابله هنا دُون هالة».

الآن أدرك أنها تشير إلى ذلك الضوء الملون الذي رآه يحيط برؤوس الجميع سواها.. وأدرك السبب وراء كونها استثناءً.

- ولكن لعل أبرز الاختلافات بين العالمين هو سرعة مرور الزمن.

انتفض إثر ذكر سرعة الزمن، سألها: «وهل عالمنا هو الأسرع؟»

- كلا.. هذا العالم أسرع بكثير.. فعام كامل هنا يعادل يومًا واحدًا فقط في عالمنا.. سأكون في الخامسة والعشرين من عمري إنْ كنت قد عدتُ إلى عالمي.

- ولكنك لم تعودي.

- لقد عشت ثلاثًا وأربعين عامًا بتمامها في هذا العالم.. لو كنت في عالمي ما كنت لأحظى بالفرص التي حظيت بها هنا.. سرعة مرور الزمن قد تبدو فرصة لنبدو أصغر أو نعيش أكثر.. ولكن الأمر ليس بهذه البساطة.. لا تستطيع الاحتيال على الزمن مهما حدث.. فجسدك سيعيش زمنه أينما كان.

كاد يسألها كيف تأكدت من ذلك وهي لم تحاول العودة إلى عالمها مجددًا.. ولكنه أومأ تفهمًا.. ثم قال بعد وهلة صمت: «قد يكون هذا هو العالم الأفضل برأيك.. ولكني أريد أنْ أعود إلى عالمي».

ارتسمت على وجهها ابتسامة وهي تقول: «لتبحث عن شقيقتك.. نعم.. أعلم أنك لن تقتنع بنصيحتي.. ولكن من الصعب جدًّا أنْ تنجح في النجاة بعد عودتك.. ما دُمتَ هنا، فكُن متأكدًا بأنّ المملكة برمتها تبحث عنك.. ولن يلبثوا أنْ يقبضوا عليك ويزجوا بك في زنزانة خانقة.. لقد انتقلتَ باستخدام وشم محظور.. ومِن المستحيل أنْ تنجو من عقبات أمر كهذا».

- لا أستطيع التخلي عن المحاولة ما دامت هناك فرصة.. مهما بلغت ضآلتها.

- ليست هناك أي فرصة.

- هذا أمر أقرره وحدي.

- وأنا لا مصلحة لي في تقرير قراراتك.. ولهذا سأساعدك إنْ أردت.. ولكن مساعدتي ليست بالمجان.

- وما ثمنك؟

- أنا أعمل الآن على وصفة شديدة التعقيد.. من شأنها مضاعفة حساسية الأفكار.. إنْ حصلتُ على ما ينقصني.. فسأنجح في منح قدرة التخاطر بالأفكار لهؤلاء القوم.

صمت سيسيل لحظة مستدركًا أنّ لقب الساحرة لم يُمنَح جزافًا لهذه المرأة.

تابعت: «أريد أنْ تحضر لي وثيقة إنبات الحجر النيزكي».

- تريدين مني العودة إلى هنا مجددًا؟ هل تظنين أني أملك الوقت الكافي حقًا؟

- لا تتغابى.. قضاء يوم كامل هنا يعني أنك لن تغيب عن عالمك سوى دقائق.

كان يدرك صحة ما تقول.. وكان يدرك أنه لا يملك خيارًا آخر.. إما أنْ يقبل عرضها وإما أنْ يتيه في هذا العالم لبقية حياته، سألها: «وأين سأجد وثيقتك؟»

أطلقت تنهيدة عميقة وهي تجيبه: «إنها في إحدى الحجرات السرية لقلعة القمم الدخانية».

دغدغ ردها ذاكرته.. أجاب: «لقد كنتُ في مهمة لاستكشاف حجرة كهذه منذ زمن قصير.. وفشلتُ في معرفة مكانها.. ولكن.. ما صلتكِ بهذه الحجرة؟»

ارتسمت على وجهها ابتسامة ساخرة وهي تقول: «أنا مَن جمعتُ الكتب المحظورة فيها.. وبالطبع، أعلم كل مخبأ ومخرج في قلعتي».

- قلعتك؟

- أنا الشقيقة الصغرى للملك ميرلين.

لم يستطِع سيسيل إخفاء الدهشة في عينيه، عاد ليسأل: «إذًا.. أنتِ مَن سرق الكتب التي تتهم الصومعةُ الأميرة أوفيليا بسرقتها؟»

- وقد لا يكون هذا اتهامًا جزافًا.. لطالما كانت أوفيليا معجبة بي ومتلهفة للتعلم.. لا بُدَّ أنها وجدت مخبئي بعد رحيلي.. واتخذته مخبأً لها.

- وكيف يمكن الوصول إلى هذا المخبأ؟

- سأخبرك بكل شيء.. لا تتعجّل.

ونهضت لتحضر كتابًا سميكًا وصندوقًا خشبيًا قديمًا.

جلست وهمَّت بفتح الكتاب: «عليَّ أنْ أعلمك المزيد عن وشم التنقل الآني.. يجب أنْ تفهم دلالاته الشكلية كاملة لتستطيع الانتقال إلى وجهتك بدقة».

ورغم صغر حجم هذا الوشم، استغرق درسها ساعات متواصلة، وكان شرحها كفيل بجعل سيسيل ينبهر بها.. تمنى لو أنه يتتلمذ على يديها.. ولكنه لا يملك الوقت الكافي لمزيد من الدروس الآن.. ربما يعود إليها في المستقبل مجددًا.. ربما.

حول طاولة الاجتماعات المستديرة، جلس ميرلين بينما ارتسمت على وجهه أمارات الانزعاج، يحدق برسالة جاهد كي لا يمزقها غضبًا.. رسالة تحمل كلمات شكر وامتنان من الملك إيدن، حل الصمت على الجالسين حوله، المشيحين بأعينهم تجنبًا لانفجار ملكهم.

قطع الصمت بصوته الجهور: «أوفيليا!»

كانت تجلس جواره، ولم يكُن بحاجة إلى رفع صوته حقًا، رفعت ناظرها إليه في تساؤل، «نعم يا أبي».

- لا أصدق كيف أمكنكِ أنْ تقبلي عرض الملك إيدن دُون علمي.. هل تعلمين مقدار الخسارة في مشروع كهذا؟

- أنت أعطيتني صلاحية الرد على الرسائل المُهملة.. وهذه الرسالة تم إهمالها لوقت طويل.

- ألم يخطر لكِ لمَ قمت بإهمالها؟ لأنها رسالة لا تحمل أي منطق! يريد بِناءَ قناة مائية بطول ألفي ميل! لا بُدَّ أنه كتب هذه الرسالة وهو ثَمِل.

- إنه ملك.. ويجب أنْ يتحمل مسؤولية الرسائل التي يكتبها.. ثم إنّ هذا لصالحنا نحن.

- ومنذ متى ونحن نبحث عن ثغرات جيراننا لنستخدمها ضدهم؟ إنهم يمرون بأزمة صعبة ويجب أنْ نساعدهم، لا أنْ نستنزف الثروة الوحيدة التي يملكونها.

- نحن لن نستنزف ثروته.. هو مَن سيفعل.

أخذ نفسًا عميقًا قبل أنْ يشيح بوجهه إلى مَن حوله ليصرخ: «اخرجوا جميعًا! اتركوني وحدي مع الأميرة أوفيليا».

لم تختلج عضلة في وجهها، بل تابعتهم في هدوء بينما يخرجون بخطى سريعة متوترة..

وما إنْ انتهى صرير الباب حتى عاد ليحدجها بنظرته الغاضبة: «لا يعجبني أسلوبك يا أوفيليا.. أنتِ تتخذين منحىً غريبًا جدًّا».

- ما الذي تعنيه بهذا يا أبي؟

- لا تملكين ذرة من التعاطف مع من حولك.

- وما الذي ينبغي لي فعله؟ ليس من مسؤوليتي تعديل قراراته.. إنْ كان ليس أهلًا لاتخاذ القرارات فهذه ليست مشكلتي.

- صحيح، أنتِ لستِ مسؤولة عنه.. ولكنك مسؤولة عن كم الأعداء الذين تكسبينهم دُون انقطاع.. إبداء بعض التعاطف واللطف لا يعني أنك ضعيفة.. بل يعني أنكِ ذكية في اكتساب الحلفاء.

- أنا لم أقسُ على أحد دُون سبب.

- بل تفعلين.. أنا أعلم الإجراء الذي اتخذتِه ضد نايت.

- نايت حاول قتلي.

- صحيح، ولكن ينبغي أنْ تتحلي ببعض الحكمة في العقاب.. كان الأَوْلى أنْ تقومي بحبسه وحسب.. قليل من الجلدات يهذّب، ولكن الكثير منها يشحذ الأنياب.. لقد اخترتِ قمة برج السلاسل.. جعلته يتلقى أشد أنواع التعذيب.. تركته يتغذى بالكراهية والرغبة في الانتقام.. وبهذا كسبتِ عدوًا لا يمكن قهره.

- عدو مقيد بالسلاسل.

- بل عدو طليق.. لقد اختفى قبيل الفجر.

بدت علامات الدهشة على وجهها وهي تردد: «ك.. كيف؟!»

- لا أدري.. ولا تهمنا كيفية هربه! ما يهم الآن هو ضرورة اتخاذ الحذر مع عدو مثله.. لا يمكن أنْ يهرب أحد من تلك الزنزانة إلا إنْ كانت وراءه جماعة قوية تدعمه.. جماعة يجب أنْ نهابها حقًا.. جماعة قمنا باستفزازها بسبب قسوتك اللا مبررة.

- وأي سطوة يملكها البوم الهالك في مملكتنا؟!

- لا ندري.. ولهذا ما كان علينا أنْ نتصرف بناءً على الظنون وحسب.. لا يمكن أنْ تأمني عدوك أبدًا.. ولكن يمكنك

تطويعه ليصير حليفك مؤقتًا.. يمكنك كسب وده حتى لا يراك فريسته الأولى حين يملك القوة.. لقد ضربتِ بهذه المبادئ عرض الحائط.

- وهل كان البوم الهالك حليفنا حين أرسلوا مَن يقتلني؟ العدو ليس طفلًا.. هو أيضًا يفكر مثلما نفكر.. ويمكنه أنّ يستغل سذاجتنا ليوهمنا بأنه حليف.. ثم ينقلب علينا لأننا كنا أغبياء حين لم ننقلب عليه في ضعفه.

- أنا أعرف إيدن منذ كان طفلًا.. إنّ كان البوم الهالك يستحق القسوة، فإيدن لا يستحقها.

- لا يمكن أنّ نضمن هذا أبدًا.. فهو لم يَعُد طفلًا.

زفر ميرلين بعمق بينما حل الصمت للحظات، بدت ردود أوفيليا مفحمة وإنّ كان لم يقتنع بحججها، ولكنه لم يملك حججًا أكثر.

في داخله، كان مبهورًا، وتساءل إنّ كان قائد جيشه نفسه يملك عقلية كعقليتها، ولكنه لم يصارحها بأفكاره كي لا تتمادى فيما تفعل، بل اكتفى برد صارم أراد به إنهاء حديثه، «على كلٍ.. لقد مضى ما مضى.. ولكن علينا أنّ نذهب في زيارة للملك إيدن للتفاوض في أمر الرسالة.. ولتوضيح أنّ القرار الذي رد عليه لم يكُن القرار الأخير».

- أنا.. لا أستطيع الذهاب.

كشر متسائلًا: «لماذا؟»

- لا أريد الظهور بمظهر البلهاء عديمة المسؤولية.. لا أريد مواجهته.

زفر بعمق وهو يقول: «سيكون هذا جُبنًا منكِ.. عليكِ أنْ تكوني معي».

- أبي.. أرجوك لا تجبرني على هذا.

- سننطلق في خلال يومين.. ولا أريد أي نقاش حيال هذا الأمر.

قالها وهو يستدير ليخرج، تاركًا إياها وقد ارتسمت في عينيها نظرة عميقة المعنى.. كانت تدرك أنّ قرار والدها قطعي.. وكانت منزعجة جدًّا من هذه الرحلة.

في خيمة إينور، وفي نور شموع كبيرة أشعلتها إثر تخييم الظلام، جلس سيسيل، ممسكًا بكتاب ضخم قرأه مرات عدة بالفعل.. لقد مضى على وجوده هنا ستة شهور كاملة.. كان عسيرًا عليه أنْ يتخيل أنّ كل هذا الزمن لا يعادل أكثر من نصف يوم في عالمه.. ورغم تحرقه للعودة، لكنه انتظر.. يجب أنْ يمر نصف يوم على الأقل في عالمه قبل عودته.. ولهذا استغل امتداد الزمن هذا ليتعلم المزيد.. وفي كل يوم من العالم الجديد، كانت تتضح له أمورًا أكثر.. لقد صار يتقن الكثير من الوشوم بالفعل، المحظورة وغير المحظورة.. وسيعود حتمًا إلى هذا المكان مجددًا.. ولكن عليه أولًا أنْ يجد شقيقته.. ورغم اعتراض إينور على عودته المبكرة، فإنه لم يستطِع الانتظار أكثر.

وكما وعدته، أوفت بوعدها.. فأعطته زجاجة السائل القاني والإبرة.. ونبهته على تفاصيل وشم العودة.. ثم تركته وحيدًا في الخيمة.. يهم برسم وشمه، هذه المرة، بخوف أكبر، وبحرص أكبر.

ومثلما وعدته، تلاشى.. ثم وجد نفسه في مكان سرعان ما ألِفه.. ضباب خانق يحيط به من كل جهة.. وبرودة تجمد العظام.. إنه في أعالي القمم الدخانية.. إذًا، لقد صَدَقَت الساحرة.

ولكنه لا يستطيع الانصراف للبحث عن شقيقته قبل أنْ يتم اتفاقه.. سيكون عليه الآن أنْ يجد وثيقة إينور.. وسيكون عليه أنْ يسرع جدًّا.. فكل يوم يمضي هنا يعادل عامًا كاملًا في عالمها.. وخطرت له بعض الأفكار.. لقد أعادته ووفت بوعدها، فلِمَ عليه أنْ يفي بوعده؟ إنه لا يحتاجها بعد الآن.

كان الظلام قد حل، وما زال سيسيل يتفحص طريقه نزولًا.. يسير في حذر، يلف وشاحًا كبيرًا على رقبته ونصف وجهه.. متحفزًا لأي حركة.. فقد كان على علم بأنه صار الهدف الأول لرجال القلعة والصومعة.. وصار على علم ًبأنه على الطريق الصحيح حين تبدت له ملامح الغابة التي يقطعهاً.. رغم أنها كانت خالية من البشر، فإنه يعلم بأنّ الخطر يتعاظم كلما نزل أكثر.. فالحراس ينتشرون على طول السفح.. ولكنه تابع سيره المنهِك حتى لمح ذلك البرج، توقف شاعرًا بنشوة الانتصار المؤقت.. لقد نجح في الوصول إلى قلعة القمم الدخانية.. يراقب أسوارها الخلفية من على بعد بينما يختبئ خلف جذع تنوب كبيرة.. وهنا تبدّت بعض الإجابات في عقله.

- «لقد جعلتني إينور أسلك هذا الطريق لتجبرني على تنفيذ اتفاقنا أولًا.. تلك الخبيثة».. ورغم انزعاجه، فإنه كان يدرك بأنّ تصرفها هذا يسمى حكمة لا خبثًا.. فهي بحاجة إليه ولا بُدَّ أنْ تتخذ

بعض الإجراءات لتضمن وفاءه.. هو يعلم أنّ الحراس يحتشدون عند السفح وعند البوابات.. ولكن لا حاجة إلى حراسة قمم الجبال التي لا يعيش فيها أي إنسي.. إنهم يحرسون القلعة من بشري لا من طائر سيأتي ليحط من السماء.. وكان هذا ما استغلته إينور.. فسيسيل لن يقدر على الذهاب إلى أي مكان سوى القلعة.. سينفذ اتفاقه ثم يعود إليها ليسلمها الوثيقة وبعدها فقط سينتقل مجددًا إلى مكان آخر أكثر أمانًا.

كان الليل قد انتصف، ولم يكُن قد مر زمن طويل على غفوة إيدن، ولكن -وككل ليلة- لم يهنأ بغفوة طويلة دُون أنْ ينهض في جزع إثر ذلك الحلم.. هذه المرة.. كان الخوف الذي اعتراه أعظم.. مد ذراعه ليلتقط الرسالة التي وضعها قرب الشمعة المولعة بجوار سريره.. الرسالة التي نجحت ليلاك في إيصالها له، والتي قرر تجاهلها حين رأى أنها قادمة من الأمير ميست.. لم يكُن يعلم بأنّ الملكة ليلاك قد اطلعت عليها بالفعل، فقد دبّرت الأمر ليبدو أنّ الرسالة وقعت في يده بينما لم يكُن من المفترض ذلك.

لقد نصحه ريجان سابقًا بتجاهل هذه الرسالة، وأخبره بأنّ خبايا الأمير ميست مجهولة.. ولا يمكن أنْ يثقوا بكلام مَن يجهلون نواياه.. ولكن إيدن لم يستطِع تجاهل هذه الرسالة.. كيف يتجاهلها وهي تذكره بحلمه الذي يراه كل يوم؟

هذه الرسالة.. تنذره من الحرب التي يراها كل ليلة.. من المُحال أنْ يتجاهلها.. من المُحال أنْ تكون مجرد صدفة.

ابتلع ريقه وقد اتسعت عيناه وهو يدرك شيئًا لم يخطر له من قبل، «أحلامي هي رؤى من المستقبل». ولكن هل يعني هذا إنّ هذه رؤيا تحذيرية أم تقريرية؟ لم يكُن متأكدًا.. وإنْ كانت رعشة جسده ترجّح الخيار الثاني.

لقد وجد سيسيل طريقه.. بأنفاس لاهثة وبحبات العرق المتجمدة على جبينه، هَمَّ بإزاحة القطعة الحجرية من قمة أحد الأبراج الرئيسية في قلعة القمم الدخانية.. لقد وجد هذه القطعة بعد بحث جهيد.. وكان الزمن قد تكفل بتهتك التحامها بباقي الأحجار.. لولا الليل وضباب القمم.. كان سيكون مكشوفًا للحراس الذين انتشروا في الأبراج الأكثر انخفاضًا.. ورغم ذلك، تابع عمله في هدوء تام.. وانْسَل إلى داخل الحجرة السرية التي صارت تثير فضوله أكثر من قبل.. ولم يكُن الظلام دامسًا حقًا.. فهناك شمعة صغيرة مشتعلة في الزاوية.

انكمش قلبه تحفزًا.. فهذه الشمعة تعني أنّ أوفيليا كانت هنا ويمكن أنْ تعود في أي لحظة.. ولكنه سرعان ما تجرأ ليخطو خطواته في اتجاه تلك الشمعة.. يجب أنْ يستغل غيابها لإيجاد الوثيقة.

انتفض حين داس بقدمه على شيء لم يعلم كنهه.. شيء رجح أنه مجموعة من الكتب المتناثرة.. فرائحة الورق العتيق كانت تملأ الجو.. تخللتها رائحة احتراق الشمع والفحم الذي لم يعلم مصدره.. وكانت هناك رائحة رابعة لم يستطِع تمييزها جيدًا.. ولكنه تابع السير حتى أمسك بتلك الشمعة.. ثم رفعها ليستكشف ما في الحجرة.. وبالفعل،

كانت جدران الحجرة مليئة برفوف الكتب القديمة.. بعضها بدا كأنه لم يمس منذ زمن بعيد إثر احتشاد الغبار.. لقد أخبرته إينور بأنّ الوثيقة في صندوق خشبي نقش عليه اسمها وأذيب قفله الحديدي.. إنه يلمح بعض الصناديق على الرف الذي يقابله.. عليه أنْ يمعن النظر أكثر ليجد مراده.

خطا عدة خطوات عائدًا من حيث أتى ليستكشف ذلك الرف.. وكشر حاجبيه حين داس بقدمه على كومة الكتب تلك مجددًا.. وأدرك أنها لم تكُن كومة كتب حين انحنى ليستكشف ماهيتها.. مد يده ليتلمس تلك الكومة.. وارتعش حين أحس بلزوجة غريبة في يده.. حينها.. أدرك ما رأى.. وكان ما رآه كفيل بزلزلة كيانه.

لقد كانت بقايا جثة.. جثة تعرف على صاحبها فورًا.. جثة شقيقته آيريس.. وكان ما تلمّسَه هو ما تبقى من رأسها.

رأسها الذي كان ملقىً بلا دماغ بعد أنْ تم إفراغ جمجمته.





الفصل العاشر

أمير البوم

كانت الصدمة كفيلة بجعل عضلاته تتهاوى وهنًا.. فارتطم بالأرض بينما اتسعت عيناه في غير تصديق.. قلبه يكاد يخرج من صدره من فرط الانفعال.. وعقله يرفض تصديق ما يدرك حقيقته.. ولكنها كانت الحقيقة حقًا.. شقيقته التي عبَرَ الأبعاد من أجلها فارقت الحياة منذ زمن. لم تَعُد هناك آيريس في هذا العالم.

عاود النهوض رغم ارتجافة أوصاله وغشاوة الدمع التي غلفت مقلتيه.. يدرك أنّ عليه التصرف بحكمة وعقلانية.. يدرك أنّ الأميرة التي أشعلت الشمعة ستأتي في أي لحظة لتجده.. يدرك أنّ التهور والجنون ليسا من سماته.. ولهذا لن يكون غبيًا.. سيتحمّل ألمه.. وسيُنهي ما أتى من أجله.. صحيح أنّ ضربات قلبه تأبى الرضوخ.. صحيح أنه صار لا يرى شيئًا من دمعه الذي صار يغطي وجهه.. صحيح أنّ أنفاسه صارت مختنقة جدًّا.. ولكنه سيتحمل.. سيتحمل هذه اللحظات العصيبة حتى يخرج من هنا.

سيترك تلك الأميرة تنجو من الموت هذه المرة، يمكنه أنْ يقتلها في لحظة، ولكن تبقى احتمالية بسيطة للفشل.. ولهذا.. سيتركها

ويرحل.. سيتركها، ولكنه سيعود يومًا ما ليدمرها.. ليدمّر هذا العالم برمّته. لقد ماتت آيريس.. ولا شيء يستحق البقاء بعدها.. لكن.. عليه أنْ يعود إلى تلك الساحرة أولاً.. عليه أنْ يتم مهمته.. عليه أنْ يجد وثيقة الحجر النيزكي.

كتم أنفاسه المضطربة وتجاوز الجثة متجهًا إلى ذلك الرف.. الشمعة تتراقص حتى تكاد تنطفئ في أي لحظة.. والبرودة المفعمة بالضباب المتسلل من الفتحة العلوية في ازدياد.. قرّب الشمعة من ذلك الرف ليستكشف الصناديق.. ومد يده المرتجفة ليتلمس الأقفال.. ثم وجده؛ صندوق خشبي صغير أذيب قفله.. وحين قرّب الشمعة، تراءى له اسم الساحرة بحروف مبعثرة صغيرة.. ومدّ يده ليستل ذلك الصندوق ثم يربطه حول خصره.. تبقى الآن مهمة العودة.. يجب أنْ يستجمع تركيزه وينقش وشم التنقل الآني ليعود إلى عالم إينور.

وضع الشمعة أرضًا عند زاوية المكتبة.. وهمّ باستخراج الإبرة والسائل القاني.. وما إنْ همّ برسم الوشم الذي حفظه عن ظهر قلب، حتى انتفض إثر سماعه صوت الخطوات.. إنها قادمة.. قاتلة آيريس تعود إلى الحجرة.. لن ينجح في استكمال الوشم قبل وصولها.. تراوده فكرة قتلها بقوة.. يود لو يحطم رأسها كما فعلت بشقيقته.. لا يرغب بشيء أكثر من إسالة دمائها في هذه اللحظة.. ولكن.. ولكنه سيكون أقوى من هذه العواطف التي يدرك أنها قد تتسبب بمقتله ونجاتها.. لن يرضخ لحزنه مهما كانت سطوته.. ولهذا.. وضع الإبرة جانبًا للحظة وحجب ضوء الشمعة بكفيه.. فأظلم المكان إلا من الضوء الخافت المتسلل من الفتحة العلوية.

الخطوات تتوقف.. ثم تستدير صاحبتها عائدة لتجلب شمعة أخرى ظنًا بأنّ شمعتها انطفأت.

أزاح سيسيل كفيه اللذين كادا يحترقان -أو احترقا فعلًا- وأخذ نفسًا عميقًا -لا يتوافق مع ضربات قلبه الجنونية- ثم همَّ باستكمال ذلك الوشم على ساعده الأيسر الذي صار مزدحمًا.

كان ريجان يقف في بهو قلعة الرمال بهندام مبعثر إثر استدعائه العاجل من قِبل الملك.. الملك الذي امتلأت مقلتاه بالدموع مما جعله يدفع به إلى إحدى القاعات المغلقة حيث لا يتفرج الحُرّاس.

لم يعرف ريجان ما رد الفعل الأنسب لموقف كهذا.. فقد كان إيدن على شفا الانهيار وهو يتمتم بعبارات مبهمة مختلطة ويردد كل حين: «أنا لا أملك جيشًا! لا أملك الأموال الكافية لبناء جيش ولا أملك الوقت الكافي! لا أملك جيشًا!»

وقاطعه ريجان بالسؤال عدة مرات قبل أنْ يجيبه: «سيغزون مملكتي! لقد كان ميست محقًا فيما يفعل! كان ميست محقًا في شكوكه وأنا لم أستمع إليه قط! بل أبرمت اتفاقًا بصرف كل الثروة التي أملكها لصالح الملك ميرلين الذي ينوي غزو مملكتي!»

عاد ريجان للتساؤل: «أرجوك اهدأ واشرح لي الأمر! كيف أدركت بأنّ ما كتبه الأمير ميست في تلك الرسالة صحيح؟ ربما كان يكذب».

حلت لحظة صمت على إيدن وهو ينظر إلى عيني ريجان في رعب: «الأحلام التي أراها حقيقية يا ريجان.. إنها تحذيرات من الحرب القادمة.. أنا لم أفهم فحوى هذه الأحلام من قبل ولكني أفهمها الآن.. سيزحفون على مملكتي ويعيثون بها فسادًا.. سيقتلون الجميع ويدمرون كل شيء».

أراد ريجان أنْ يسأله كيف استنتج هذا.. ولكنه أدرك أنه لن يلقى جوابًا.. هل هذا الملك مجرد مجنون بعد كل شيء؟ هل هذا الرعب الذي تنبض به عيناه مصدره الجنون؟ رغم تشككه، فإنّ تعابير وجه إيدن ونظرات عيونه الزائغة بعثت رجفة خوف في جسد ريجان.. لقد بات متخبطًا جدًّا.. يود لو أنه قادر على نبذ أفكار إيدن.. ولكنه يشعر بصدقها في داخله.. ربما كان عليهما أنْ يستمعا لميست حقًا.

ابتلع ريجان ريقه في صعوبة وهو يحاول بث الطمأنينة في نبرته: «أنا أثق برؤياك يا مولاي.. وأريد منك أنْ تثق بي وتعيدني إلى قيادة الجيش».

- ربما لن يكون هكذا كافيًا.. مـ... ما رأيك بأنْ نطلب مساعدة البوم الهالك؟ إنهم يدعمونني!

رد ريجان بصرامة لم يَعتد استخدامها مع ملِكه: «لن نفعل! يجب أنْ لا نرتكب خطأ الملكة ليلاك!»

- لكنهم يدعمونني! بفضلهم أجلس مجددًا على عرشي!

أخذ ريجان نفسًا عميقًا قبل أنْ يردف: «نحن لا نعلم شيئًا عن نواياهم! أرجوك يا مولاي! ثق بي وحسب! سأبذل وسعي من أجل إعادة بناء قواتنا ولن يتعدى أحد حدود مملكتنا ما ذمتُ أتنفس».

أومأ إيدن بعيونه الزائغة وهو يدرك أنّ الأيام القادمة ستكون مختلفة.. ستكون عصيبة!

فتح سيسيل عينيه مجددًا.. لقد زالت التشنجات العضلية ليستعيد توازنه، وتلاشت الظلمة التي كانت تغلفه في أثناء انتقاله عبر البُعدَين.. وها هو يقف مجددًا أمام الخيمة الكبيرة حيث تقطن إينور. تقدم خطوتين ثم ما لبث حارس الخيمة أنْ أفسح له الطريق دُون سؤال.. وهذا ما تعلمه الحُرّاس في أثناء إقامة سيسيل هنا خلال الشهور المنصرمة..

وفي الداخل، وجدها، تجلس مبتسمة وكأنها كانت تترقب عودته.

- أهلًا بعودتك.

لم يبتسم، بل سارع بفك الرباط المعقود بحزامه ليحرر صندوقها الخشبي.. ثم ناولها إياه بينما تنطق عيناه بغضب عميق أدركته فورًا.

مدت يدها متناولة الصندوق وهي تتساءل: «ما الذي حدث معك؟»

لم يكُن قادرًا على استخراج الكلمات من حلقه.. فالغصة التي أخفاها ألجمته.. من الصعب جدًّا أنْ ينطق دُون أنْ تنطلق دموعه التي يحبسها بصعوبة بالغة.

أشارت له بالجلوس، ثم همّت بفتح صندوقها بينما تمنحه الفرصة لاستعادة رباطة جأشه. اتسعت ابتسامتها وهي تقلب وثيقتها بين يديها.. همست: «إنها الوثيقة التي أردتها حقًا.. أشكرك! لا تعلم ما الذي قدمتَه لي! بسبب هذه الوثيقة سيخلّد التاريخ اسمي».

لم يرد جوابًا، ولم يزح ناظره عن الأرض التي كاد يثقبها بعينيه.

لم تتابع الحديث، بل همّت بالنفخ على وثيقتها المغلفة بالغبار.. ثم استلت منظارها السميك لتتمكن من قراءة الحروف الصغيرة التي بهت بعضها.. استغرقت في القراءة ساعات عديدة حتى كادت تنسى وجوده.. ولم تلتفت إليه مجددًا حتى نطق أخيرًا.

- أريد منكِ أنْ تعلميني المزيد.

كشرت جبينها متسائلة: «المزيد من الوشوم؟ ألا تريد العودة إلى عالمك؟»

- بلى.. ولكن بعد أنْ أتعلم بعض الوشوم.

- وأي وشوم تريد أنْ تتعلمها؟

- وشوم الاستدعاء.

ارتسمت على وجهها ابتسامة لا تناسب الموقف.. قالت بلهجة ملول، «لا تتحامق.. هل تدرك معنى ما تقول؟»

- أدرك ما أقول.

وكانت نظرات عينيه تشي بأنه يدرك ما يقوله حقًا.

غابت ابتسامتها وهي تشعر بجديته: «كيف سيساعدك استدعاء الكيانات الشيطانية في إيجاد شقيقتك؟ هل لك أنْ تشرح لي هذا؟»

رفع ناظره إليها ليجيب في هدوء اختزن الكثير من القهر المشوّب بالانكسار: «شقيقتي لم يَعُد لها وجود في عالمي.. ولهذا...».

استكملت عبارته وهي تدرك نيته: «... ولهذا تريد تدمير عالمك؟»

كان صمته يحمل الإجابة.. وأدركت أنّ لا جدوى من محاولات ردعه.

حلت لحظات صمت استغرقت فيها مفكرة قبل أنْ ترد جوابًا: «كما تريد.. سأعلمك.. ولكن سيستغرق الأمر وقتًا».

أجاب: «لا أملك شيئًا سوى الوقت».

ابتسمت مجددًا، ورغم أنها تملك كل شيء سوى الوقت، فإنها قررت أنه يستحق معروفًا كهذا.. ولم يكُن هذا سببها الوحيد لتقديم المساعدة، ففي داخلها، كانت تكمن رغبة مكبوتة في تدمير العالم الذي نبَذَها.

في اليوم التالي، كانت أوفيليا تجلس بداخل العربة الملكية التي شقّت طريقها إلى مملكة الصحاري.. تضع يدها على خدها وتحدق في الجبال المبتعدة من خلف النافذة.. والسماء التي بدأت تصطبغ بحمرة المغيب.. أطلقت نفسًا عميقًا وهي تعيد ناظرها إلى الكتاب السميك في حجرها.. تابعت القراءة.. أو بالأصح، تظاهرت بذلك.. فعقلها كان منشغلًا بأمر آخر اقترب أوانه.. لقد مضى يوم كامل منذ انطلاقهم من قلعة القمم الدخانية.. وصاروا على مقربة من النقطة التي بَنَتْ مخططها عليها.

عادت بذاكرتها إلى الأيام المنصرمة حين بدأت تخطط لهذه اللحظة.. وابتسمت حين تذكرت بأنّ كل شيء يسير وفق ما تريد.. فهي من دفع الملك ميرلين إلى الخروج في هذه الرحلة.. كانت تعلم عمق العلاقة التي تجمع الملِكَين.. وكانت تعلم ما سيسببه ردها على إيدن من غضب ولذلك أرسلته.. أرادت أنْ تفتعل أمرًا يدفع بالملك إلى الخروج من قلعته.. ونجحت في ذلك.. صحيح أنها لم تكُن تخطط للخروج معه أيضًا، ولكنها تملك خططًا بديلة دائمًا.

وانتفضت العربة ليسقط الكتاب من حِجرها.

صهيل الخيول المرتبكة إثر التوقف المفاجئ.. توتر وصياح سائسي العربات الملكيّة وانتفاضة حرّاس الملك الذين اصطفوا حول العربات مُشهِرين سيوفهم.

كل شيء يسير وفق ما تتوقع.. وتدرك جيدًا أنّ والدها الملك ينتفض رعبًا في عربته المنمقة.. ولكنها تؤمن بأنّ لا ضرر في ذلك فلن يقتله بعض الرعب.. هي تحب والدها وتقدّر ثقته فيها.. وفي الوقت ذاته، تؤمن بأنّ بعض الأهداف تلزمها بعض التضحيات.. سيرتعب قليلًا ويكرهها ثم يعتاد على حياته الجديدة الخالية من التيجان.. وهذه تضحية تافهة مقارنة بهدفها الحقيقي.

تحفزت إثر الاشتباك العنيف أمام باب عربتها.. وودت لو تصفع الوصيفة الجالسة قبالتها وهي تصرخ في هستيرية.. ورغم أنها من دبّر كل هذا، فإنّ قلبها كان ينتفض رعبًا حين اقتحم الرجل الملثم بالسواد عربتها، ثم جرها وراءه جرًا وهي بالكاد تمنع نفسها من التعثر في فستانها.

«إنهم يختطفون الأميرة أوفيليا! لا تسمحوا لهم بالهروب!» كانت تلك صيحات الحرّاس الذين افترش أكثرهم الأرض بالفعل.

ومن بعيد، لمحت والدها الذي أطل من عربته بعينين زائغتين غاضبتين وهو يصرخ.. لم تسمع ما يقول، ولكن محاولاته للخروج من عربته وممانعة الحرّاس جعلتها تدرك أنه يريد إنقاذها.. ولم ترَ ما حدث بعد ذلك، فقد ساقها الملثّم خلفه ثم رفعها على ظهر جواد سرعان ما انطلق بهما.. كان سريعًا قويًا.. لدرجة أنها لم تجد الفرصة للنطق أو الالتفات.. بل تشبثت بظهر الجواد وهي تغمض عينيها بقوة.

في إحدى حجرات صومعة القضاة، وقف سيروس وهو يتأمل الرسالة التي تلقاها منذ قليل لاستدعاء الأمير ميست من قِبل الأميرة أوفيليا.

- الأميرة أوفيليا متجهة إلى مملكة الصحاري ولن تعود قبل شهر على الأقل، لماذا تستدعي الأمير ميست إلى القلعة؟!

بدا الأمر غريبًا، ولكنها ليست المرة الأولى التي تتصرف فيها أوفيليا بغرابة.. فحتى استدعاء سيسيل سابقًا كان مليئًا بالريبة.

وكان سيروس يملك الحق في الرفض، ولكنه يدرك أنّ ميست أمير بعد كل شيء، وعليه أنْ يتفهّم أنّ هناك طوارئ تستدعي خروجه مهما حاول الانعزال عن العالم الخارجي.. ثم إنه مطلوب في القعلة لمدة

يوم واحد وحسب.. لا يستحق الأمر أنّ يتخذ موقف صاحب السلطة المستبد.. ولهذا، سمح له بالخروج.

ولم تغِب عنه نظرة التوتر والشرود التي كانت تعلو وجه ميست وهو يخبره بأمر استدعائه.. لم يكُن متفاجئًا أو متعجبًا.. بل كان يبدو على علمٍ بكل شيء.. أي شيء؟! لا يدري! ولا يريد أنّ يسأل حتى لا يواجهه ميست بالامتناع عن الإجابة.. فقد بدا حريصًا على الصمت ولم ينطق سوى بجملة واحدة: «لن آخذ معي شيئًا من حاجياتي.. فقد تم تجهيز جناحي مسبقًا في القلعة».

- تم تجهيز جناح كامل من أجل يوم واحد؟!

كان ذلك ما رد به سيروس متسائلًا، ولكن ميست لم يرد جوابًا، وأدرك سيروس مجددًا أنّ ميست هذا أمير ومِن المتوقع أنّ يُعَامل كأمير خارج الصومعة.

وما إنّ استلم وثيقة الخروج المؤقتة حتى همّ بالمغادرة، ثم صعد على متن العربة المنمّقة التي كانت تنتظره منذ زمن أمام البوابة الخارجية.

ومن عيني ميست بدت نظرة مشوشة.. كانت دقات قلبه مضطربة وهو يقبض بيده على رسالة أخرى كان يخبئها في ملابسه، يشد بيده عليها ثم يبتلع ريقه وهو يدرك المخاطرة التي يقحم نفسه فيها.

- هذه هي الطريقة الوحيدة لحماية مملكتي.

كان ذلك ما أخذ يردده في داخله ليبعث بعض الثقة في نفسه.. لا بُدَّ أنْ يكون مليئًا بالثقة حتى يفرض هيبته.. لا بُدَّ أنّ الأميرة أوفيليا في طريقها للعودة.. ويجب أنْ ينفذ ما اتفقا عليه في الأيام المنصرمة قبل أنْ تصل.

كانت بريشيليا تتخفف من مجوهراتها استعدادًا للنوم حين همست لها إحدى خادماتها لتجعل أي أثر للنعاس يختفي من عينيها..

- الأمير ميست في القعلة يا أميرتي.. إنه ينتظرك في البهو.

كشّرت وهي تلتفت بينما ترتسم على وجهها أمارات الانزعاج، «الأمير ميست؟! ما الذي يفعله هنا؟»

- لا نعلم يا أميرتي!

تأففت بريشيليا في ضيق وهي تعيد ارتداء القلادة التي خلعتها للتو.. بينما أعادت وصيفتها تثبيت شعرها إلى الوراء لتعيد وضع التاج على رأسها.

همست لها وصيفتها العجوز وهي تسرع الخطوات إلى الخارج، «لا تقابليه بوجه عبوس يا أميرتي! ابتسمي قليلًا!»

ولكن بريشيليا لم تعرها اهتمامًا.. بل تابعت خطاها إلى البهو حيث وجدته في انتظارها.. لم يكُن يرتدي هندام طلاب الصومعة.. بل كان يرتدي هندامًا جديرًا بأمير مملكة الصحاري.. وكان أكثر ما لفتها فيه رداؤه الذي تطرزت أطرافه بخيوط الذهب.. ونظرته؟ ماذا تسمى هذه النظرة تحديدًا؟!

أرغمت ابتسامة على وجهها وهي تقول بصوت حاولت أنْ يكون بشوشًا: «أهلًا بالأمير ميست!»

ابتسم بدوره ابتسامة بدت لزجة مرغمة: «شكرًا أيتها الأميرة».

- ترى ما سر هذه الزيارة المفاجئة؟ أنت تعلم بأنّ والدي في طريقه إلى مملكتكم.

- صحيح.

أطلقت ضحكة: «ينبغي أنْ تنتظر عودته، فأنا لا أملك شيئًا من أمر هذه القلعة! أنا لا أختلف عن أي لوحة معلقة للزينة وحسب».

شهقت وصيفتها وهي تحاول التدخل لإيقافها عن أسلوبها الاستهزائي، ولكن بريشيليا تابعت: «لا بُدَّ أنك أتيت في هذا الوقت تحديدًا لأمر طارئ.. ولكن لا يمكنني مساعدتك حقًا».

سألها بنبرته الهادئة: «لماذا تبدين منزعجة مني بشدة؟ لم تكوني هكذا في لقائنا الأول».

أطلقت زفرة قبل أنْ تجيبه: «لست منزعجة منك! ولكني أشعر بالضيق».

- آسف لسماع هذا.. ولكن سيكون عليك الاعتياد على هذا.

كشرت حاجبيها في استغراب وهي تحاول استدراك ما يقول: «ماذا؟»

ولكنه لم يرد جوابًا.. ولم تكد تلمح إشارته قبل أنْ تجد ثلاثة رجالٍ من حراس قلعتها يقبضون على ذراعيها ويجرونها إلى الخارج.. كانت شبه محمولة في الهواء فلم تشعر بالأرض تحت قدميها.. وعلى وجهها ارتسم أعظم خوف شعرت به في حياتها.

- ما الذي تفعلونه؟! أنا أميرة هذه القلعة وآمركم بإنزالي! إلى أين تأخذونني؟!

ولم يبدُ أنّ هناك مَن يستجيب لصياحها سوى وصيفتها العجوز التي حاولت اللحاق بها قبل أنْ تتلقى ضربة أسقطتها أرضًا وهي تئن.

ومن بعيد، لمحت الحراس وهم يحيطون بشقيقها آرون.. ثم أدركت ما يجري؛ الأمير ميست استغل غياب الملك من أجل فرض السيطرة على القلعة.. ولكن كيف يستجيب له حراس القلعة؟! كيف لا يوقفه أحد؟ هل يمكن أنْ يكون متعاونًا مع خائن من بينهم؟ ثم اتسعت عيناها رعبًا حين خطر لها اسم أول مشتبه به: «أوفيليا!»

وكانت تلك أسود ليلة في حياتها.. أول ليلة تبيت فيها على أرضية صخرية يابسة.. أول ليلة ترقد فيها في مكان تلهو فيه جرذان لم تتخيلها في أسوأ كوابيسها.. أول ليلة تتخلى فيها عن ما ترتديه من مجوهرات لتقدمها رشوة لحارسها الذي لم يبد أي اهتمام بها! كانت أول ليلة لأشياء كثيرة لم تتخيل أنها ستعيشها يومًا ما.. الليلة التي أصبحت فيها سجينة بمعنى الكلمة.. سجينة لزنزانة خانقة كريهة المظهر والرائحة.. جعلتها تستفرغ ما في معدتها مرات عدة.

بدأ الجواد يبطئ من حركته من بعد حلول الصباح، وشعرت أوفيليا بالتوتر حين بدت معالم قلعة القمم الدخانية من بعيد، خاطبت الملثم الذي يجلس خلفها ويسندها من الجانبين حتى لا تسقط: «هل هناك أي نبأ جديد من الأمير ميست؟»

- لا أعلم.

جاءها رده، وكشرت غاضبة وهي تنوي محاسبة رجالها.. كيف لهم أنْ لا يرسلوا مرسالاً لها؟ لا بُدَّ لها أنْ تتهيأ في حال فشله في السيطرة على القلعة.

وتباطأ الجواد أكثر وأكثر حين صار على سفح الجبل.

ابتسمت أوفيليا وهي تدرك مدى اقترابها من أول انتصار لها.. ستجلس على هذا العرش وحدها.. لا بُدَّ أنّ الأعور قد هيأ الجنود من أجل رحلتهم القادمة.. الجنود الذين صاروا جنودها الآن والذين ينتظرون إشارتها من أجل بدء الحرب على مملكة الصحاري.. خطر لها كيف أنّ انتقال السلطة أمر مثير للسخرية.. وكيف أنّ إخلاص الجنود أمر لا حقيقة له بل هو مجرد طاعة مجبرة لمن يجلس على ذلك الكرسي! والآن، ستجلس هي على هذا الكرسي.. سيتساءل الكثيرون عن سبب تعجلها، فهي ستجلس عليه في كل الأحوال.. ولكنها لا تستطيع الانتظار.. هي لن تعيش للأبد.. يجب أنْ تحتل مملكة الصحاري الآن لا بعد ثلاثين سنة.

وأمام بوابة القلعة توقف الجواد.. ثم ساعدها الملثّم لتنزل.. التفتت إليه متسائلة: «هل القلعة تحت سيطرة الأمير ميست؟ هل نجح في مهمته؟»

ولكنه لم يجبها.. بل أخرج حزامًا جلديًا من جيبه قيّد به معصميها وراء ظهرها.. ثم دفعها إلى الداخل!

توقف لتلتفت غاضبة، ثم خاطبته بحدة: «كيف تجرؤ على هذا؟!» ثم ابتلعت ريقها حين لمحت القلادة التي تتدلى من رقبته.. القلادة المنتهية بالريش المنتوف.. القلادة التي تدرك معناها جيدًا.. واتسعت عيناها صدمة.

- مـ.. مَن أنت؟

ولكنه تابع دفعها.. هذه المرة.. ألجمها الخوف ولم تتوقف لتعترض، بل تابعت سيرها بأقدام حاولت جاهدة أنْ تبدو ثابتة.. وحين دخلت البهو الملكي، لم تملك سوى أنْ تخر على ركبتيها.

كان البهو مصطبغًا بالدماء.. وكانت جثث الحُرّاس متكومة على بعضها.. ولكن ما أرعبها كان جثث طيور البوم التي زاحمتهم.. الريش المنتوف في كل مكان.. «كـ.. كيف وصل البوم الهالك إلى هنا؟! كـ.. كيف تمكنوا من اقتحام القلعة؟!» ولكن تساؤلاتها سرعان ما خبت فقد جاءها الجواب سريعًا.. جاءها مع نظرتها إلى عرش والدها الذي يجلس عليه الآن شقيقها آرون.. بينما يقف إلى جواره صاحب وجه تعرفه جيدًا.. نايت.. المسؤول المالي السابق.

كان آرون يرمقها بابتسامة تعلوها نظرة لم ترَها في حياتها.. في الحقيقة، رأتها كثيرًا في كل شوط شطرنج تلعبه ضده، ولكنها لم تدرك قط أنّ هناك ما يختبئ وراء هذه النظرات.

آرون.. لطالما كان ذكيًا مليئًا بالتحدي.. لطالما نافسها وتعلم منها أشياء كثيرة.. آرون نشأ على يديها فكيف يمكن أنْ تستبعد منه نية كهذه؟! الآن تدرك أنها حمقاء جدًّا.. وتدرك أيضًا أنها ليست بالقوة التي تظنها فقد شعرت بدموعها تبلل وجهها إثر الألم الذي شعرت به يعصف بقلبها.

نطق ليجعلها تختنق بكلماته: «شكرًا جزيلًا على كل ما فعلته يا أوفيليا.. لقد فعلتِ كل شيء كنتُ عاجزًا على فعله من أجل أنْ أَصبح الملك.. أنا ممتن لكِ ولكني لا أستطيع إبقاءك بجانبي.. سيأخذونك إلى الزنزانة.. ولكن لا تقلقي، فقد أمرتهم باختيار زنزانة نظيفة».. وأشار للملثم ليأخذها إلى برج السلاسل.



الفصل الحادي عشر
المفتاح

لقد مرت تسعة أعوام كاملة على سيسيل في البُعد الآخر.. تسعة أعوام قضاها في تعلم شيءٍ جديد كل يوم.. تسعة أعوام قضاها في التعلمٍ ولا شيء سوى التعلم حتى صار يُلقّب برفيق الساحًرة.

اليوم، قررت إينور -التي احدودب ظهرها كثيرًا- بأنّ موعد عودته قد حان.. ورغم رغبته بمعرفة مصير الجماعة التي أسستها إينور.. الجماعة التي يوقن -وتوقن هي- أنها لن تبقى مجرد فرقة من جيش الملك.. فالحواس الحادة التي صاروا يملكونها طوّرت لديهم حسًا عاليًا بالتفرّد والاختلاف.. هذه الفرقة لن تبقى مجرد فرقة ضمن جيش من متبلدي الإحساس.. سينشقون يومًا ما وسيعلنون أنهم أعرق دمًا من البقية.. سيحاربون ليكونوا سادة القوم.. ولكن سيسيل لا يملك الوقت لينتظر حدوث ذلك.. لقد حان موعد عودته.. حان موعد الانتقام الذي ظل يشحذه طيلة هذه السنوات.

وفي داخل قبو حجري ضمن القلعة التي صارت إينور تسكنها، وقف سيسيل صامتًا، يفكر فيما ينتظره بعد عودته.

وضعت إينور الإبرة الرفيعة وقنينة السائل القاني على المنضدة الخشبية قبالتها ثم خاطبته بلهجة آمرة: «سأرسم لك وشم العودة.. اجلس».

- سأرسمه أنا.

- أعلم أنك تتقن هذا الوشم كاسمك.. ولكن ذراعك اليسرى ممتلئة بالوشوم السابقة.. لا يمكن رسم هذا الوشم إلا على الذراع.. ولهذا، سأرسمه أعلى ذراعك اليمنى.

- ما زال هناك حيز له على الذراع اليسرى.

- ربما ترغب بالعودة إلى هنا لاحقًا، ربما ترغب بالهرب مجددًا.. ولذلك سأترك هذا الحيز لك.

أومأ هامسًا: «تفكرين بكل الاحتمالات دائمًا.. لا بأس، فلترسمي لي هذا الوشم».

تلمس الحقيبة المعلقة بحزامه ليتأكد من وجود إبرته الخاصة وزجاجة السائل القاني، ثم كشف عن ذراعه اليمنى وأخذ نفسًا عميقًا في انتظار ذلك الألم الحارق.

أما هي، فاستلت إبرتها في احترافية ثم شرعت بنقش الوشم بيد تحركها أعصاب شديدة الثبات.

لحسن حظ بريشيليا، كان حارسها جبانًا.. ولم يحاول الاعتراض حين اقتحم رجال البوم الهالك برج السلاسل.. ولهذا لم ينضم

لجثث الحراس التي فرشت كثيرًا من الممرات.. ولكنه صار يدرك بأنّ السلطة في اليد الخاطئة الآن.. لقد كان سابقًا من أشد المتعصبين للأميرة أوفيليا.. وكان يؤمن بأنها الأقوى والأجدر لتولي العرش.. وكان يسمع دائمًا عن حماقة وغباء الأميرة بريشيليا، ولطالما كرهها بسبب هذه الأقاويل.. ولكنه رغم ذلك، يدرك أنه لا يملك خيارًا الآن.. إنه يحرس الأميرة الحمقاء.. وهو يفضل أنْ يدعمها بما يستطيع.. عليه أنْ ينسى الأميرة أوفيليا فقد ولى عهدها.. لا يمكن أنْ تخرج من تلك الزنزانة التي وضعوها فيها.. فقد كانت زنزانتها من الزنزانات القليلة لا يمكن أنْ تُفتح إلا بمفتاح فريد من نوعه، تم تصميمه بتعقيد بالغ.. ولا يحتفظ به إلا مستشار الملك.

اقتربت بريشيليا من باب الزنزانة إثر إشارته، وأدركت أنه قرر الإجابة عن بعض تساؤلاتها التي لم يلقِ لها بالًا في الأيام التسعة المنصرمة.

قال بصوت هامس: «الأميرة أوفيليا مُحتجزة في إحدى زنزانات الطابق السفلي.. لقد وضعوها في زنزانة يستحيل الهروب منها».

- مـ.. ما الذي تقوله؟ أتعني أنها ليست السبب وراء ما حدث؟

- مِن المُحال أنْ تفعل الأميرة أوفيليا شيئًا كهذا.. ثم إنّ هؤلاء الرجال هم رجال البوم الهالك.. لا أدري أين كان يختبئ كل هؤلاء.. ولكنهم هاجموا القلعة في غياب الملك ونصّبوا آرون ملكًا.

بدا لها أنّ صدماتها لن تنتهي، تساءلت: «آرون؟! ظننت بأنّ ميست مَن نُصب ملكًا!»

- يبدو أنّ الأمير ميست كان ينوي ذلك فعلًا.. ولكن البوم الهالك تدخل في اللحظة الأخيرة محاولًا قتله.. لقد هرب الأمير ميست.. وقام البوم الهالك بتنصيب آرون كملك.. لا أدري إنْ كان مَن أتى بهم إلى هنا أم أنهم مَن قرر فرض هذا عليه! مِن الصعب فهم ما يحدث.

- ماذا عن والدي الملك؟ ألم يعلم بما يحدث هنا؟

ولكنها قطعت عبارتها وعادت بخطواتها إلى الوراء إثر اقتراب الخطوات الثقيلة لأحد المتشحين بالسواد. أطلقت نفسًا عميقًا وهي تحاول تهدئة ضربات قلبها المتسارعة.. «يجب أنْ أفعل شيئًا.. يجب أنْ أفعل شيئًا»، هذا ما أخذت تردده وهي تفكر في حل لمشكلتها العويصة.. لقد أدركت بأنّ الجرذان والغبار الذي التصق بجبينها وتخلل شعرها ليس أعظم مصيبة تواجهها.. هناك جماعة من القتلة يتجولون في قلعتها ويجب أنْ تتصرف كأميرة عاقلة.. يجب.

انقضت بعض الدقائق الحالكة حتى صار سيسيل يميز المكان الذي نقلته إليه إينور؛ حجرة حالكة رطبة.. مشبعة بالغبار ورائحة الورق والحبر.. لا بُدَّ أنه في إحدى حجرات صومعة القضاة..

ابتلع ريقه وهو يطمئن نفسه أنّ ما كان يخشاه لم يحدث، فالساحرة لم تخدعه.. حتى هذه اللحظة، التزمت بكل ما اتفقا عليه

بنزاهة تامة.. لقد نقلته إلى هذه المكتبة تحديدًا لأنها تحت إشراف سيروس.. أخبرته بأنّ سيروس قد يتمكن من مساعدته.. فصحيح أنه تعلم وشوم الاستدعاء التي يحتاجها، لكن هذه الوشوم لا تعمل بعيدًا عن فجوة مكانية تعتبر شرطًا أساسيًا لمثل هذه الوشوم.. عليه أنْ يبحث عن مكان هذه الفجوة.. وربما يتمكن من الوصول إلى بعض الأدلة بالعمل مع سيروس.. كيف سيفاتح سيروس بأمر كهذا؟ لا يعلم.. ولكنه سينتظر.. ولم يطل انتظاره.

فقد تداعت إلى مسامعه أصوات جلبة قادمة من الأعلى.. أصوات حُطام وصراخ ونزاع.. ارتطام أجسام بالأرضية الخشبية التي تمثّل سقفه.. ثم.. رائحة حريق.. هناك نار مشتعلة في مكان ما، نار في طور الانتشار وتتجه إلى حيث يختبئ.. نار يسبقها دخان شعر به يملأ رئتيه بالفعل.. وأدرك سريعًا أنّ عليه أنْ يغادر هذا المكان فورًا.

- مِن الجيد أنّ إينور تركت لي هذه الفسحة على ذراعي اليسرى.. سأغادر هذا المكان ثم أعاود الانتقال إلى مكان أكثر أمانًا.

فكر في امتنان وهو يهم باستخراج إبرته وقنينة السائل القاني.. ورغم شح الضوء، فإنه كان قادرًا على رسم ذلك الوشم.. صارت أصابعه تتحرك بتلقائية تكاد لا تتطلب منه النظر.

الخطوات تقترب أكثر.. ثم تتوقف ليتبعها ضرب عنيف على الباب الخشبي الذي يفصله عن هؤلاء.. هؤلاء الذين أدرك أنّ صومعة القضاة لم تَعُد أكثر الأماكن أمانًا وهدوءًا من بعدهم.

لقد انتهى من رسم وشمه.. وصار ينتظر ابتداء تقلصات عضلاته.. ولكن هذه اللحظات لا تنقضي.

لقد تم اقتحام القبو.. رجال متشحون بالسواد يزينون رقابهم بقلائد الريش المنتوف.. يتجهون إليه بينما يقف ممسكًا بذراعه النازفة ونظرات عدم التصديق تعتلي وجهه..

- لماذا لا يعمل الوشم؟! لماذا؟!

هذا ما أخذ يعصف في ذهنه وهو يدرك أنّ هناك شيئًا خاطئًا، «أنا متأكد من صحة الوشم.. لماذا لم يحدث الانتقال؟!»

وأدرك أنه صار في قبضتهم.. زجاجة السائل القاني تتهشم تحت الأحذية الثقيلة.. ثم يُساق إلى الخارج كما سِيقَ الكثير من البوم الغافي من قبله.

- لقد مرت تسعة أيام فقط في هذا العالم منذ غيابي.. ما الذي حدث ليظهر رجالُ البوم الهالك؟!

كان يتساءل في داخله وهو يتلفت ليرى مَن كانوا رفاقه في الدراسة يفترشون الأرض.. وأدرك أنه سيزور برج السلاسل مجددًا.. فلا بُدَّ أنّ البوم الهالك ينوي التحقيق معه.. لهذا السبب لم ينتفوا ريشه بعد.

❧

وفي الحجرات السكنية لطلاب الصومعة، انتشرت ذات الفوضى، وإنْ لم يسفكوا دماء أفراد الأسر.. فهم -بعد كل شيء- لا يقتلون بشكل عشوائي، بل وفق مبادئهم.

وتجمع جمع غفير منهم في حجرة دُون سواها.. لعلمهم أنها كانت حجرة ميست.. هدفهم الهارب.. توقف أحدهم يمعن النظر في إحدى الرسائل التي كانت مدسوسة تحت الوسادة، ثم ما لبث أنْ رفع صوته بالصياح آمرًا، «لقد فرّ الأمير ميست وهو في طريقه إلى مملكته! يجب أنْ نوقفه!»

كانت الرسالة شبه محترقة، ولكنه استطاع تبين مغزاها.

أتمنى ### **التوفيق** #### #### **الليلة..**

########## **الفشل** ####### **انتظارك** ##### **الغربي** ############# ..

سينتشلك ########## ####### **مخرج القلعة السري** ##### ####### ####**، وسننطلق عائدين إلى** ######

سننتظرك حتى نطمئن إلى نجاح المهمة.

- الأمير ميست هرب عبر الوادي الغربي!

وفي لحظات انتشر هذا النبأ لينسحبوا جميعًا من الصومعة تاركين وراءهم أكوامًا من الفوضى.. وإلى وجهة محددة انطلقوا.

الطريق الغربي الممتد وسط الجبال التي تصل المملكتين.. هذا هو الطريق الأسرع بين المملكتين الذي تم التلميح إليه في تلك الرسالة التي تلاشت معظم كلماتها.. الطريق الذي خمّن البوم الهالك أنه المكان الذي تهيأ رجال ميست لاستقباله فيه من أجل الهروب.

لم يقاومهم سيسيل في الطريق عبر برج السلاسل.. بل سار معهم الدرجات متجهًا إلى زنزانته.. كان يدرك أنّ لا جدوى من المقاومة أو توجيه الأسئلة.. سيصمت محاولاً اقتناص أكبر قدر من الأدلة حول ما يجري حوله.. وسيقضي ليلته -أو لياليه- في هذه الزنزانة الباردة.. ثم سيفكر في طريق خروجه من هذه الزنزانة ليرسم وشمه في الفجوة المكانية التي ستدمرّهم جميعًا.

بالتأكيد سيخرج.. هي مسألة وقت فقط.. يحتاج بعض الوقت ليستعيد هدوءه ويفكر، كانت الزنزانات ممتلئة.. ولكن الجناح الذي أُخذَ إليه كان هادئًا نوعًا ما.. لقد وضعوه في زنزانة منفردة ومنها أدرك أنهم صنفوه ضمن السجناء ذوي الأهمية.

- سيسيل!

كان ذلك الهمس الذي ترامى إلى مسامعه مع حلول الظلام واتّقاد المشاعل.. لم يحرك ساكنًا.. ولكن مع تكرار ذلك الهمس صار يدرك أنه صوت مألوف.. ولم يرد جوابًا.

- لماذا تتجاهلني دائمًا؟! لماذا؟!

يحاول تذكر هذه النبرة.. ولكنه يفشل..

- لقد هرب سيروس من الصومعة قبل المذبحة.. وهو الوحيد القادر على إنقاذنا.

انتشله اسم سيروس من صمته.. نهض ليقترب من بوابة زنزانته ثم همس متسائلًا: «مَن أنتِ؟»

- أنا الأميرة بريشيليا! لا أصدق أنك نسيتني بهذه السرعة!

أضمر خواطره الساخرة من تفاوت الأزمان، ثم قال بالهمس ذاته: «ماذا تعرفين عن سيروس؟ وما الذي جاء بكِ إلى هذه الزنزانة؟»

- أنا لا أعرف شيئًا! ولكن ما أعرفه هو أنّ هؤلاء ينتمون إلى جماعة البوم الهالك.. وأما سيروس، فلا أعرف شيئًا عنه سوى أنه استطاع الهرب.. أنا لا أعرف مكانه، ولكن حارس زنزانتي سيساعدني في الوصول إليه.

- حارس زنزانتك؟

- نعم.. إنه يقف إلى صفنا.

- تقصدين صفّكِ أنتِ.

أطلقت تنهيدة عميقة قبل أنْ تقول: «سنخرج من هنا معًا.. عليك أنْ تثق بي».

ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة لم تلمحها.. فهي تطلب منه شيئًا عسيرًا جدًّا.. ورغم إدراكه أنه غير قادر على وضع ثقته فيها أو في غيرها، لكنه يدرك أنه مجبر على ذلك.. لا بُدَّ من الوثوق بأحدهم.. لا بُدَّ من هذه المخاطرة إنْ كان يريد الخروج من هنا.

- وما الذي تريدينه بالمقابل؟

أزعجها رده بشدة، ولكنها أجابت: «لا أعلم.. سنرى لاحقًا».

وصمتا إثر اقتراب الخطوات.

لقد عاد حراس الزنزانات بعد غيبة قصيرة.. ولكنهم لم يكونوا وحدهم.. كانت هناك زائرة تسير إلى جانب الملثم بالسواد، وتَحَفّز سيسيل حين سمع الملثم يأمرها: «هذه هي زنزانة المدعو سيسيل.. لا تطيلي زيارتك!»

شعر سيسيل بالدماء تثور في عروقه وهو يرى فيولا ترمقه بنظراتها المتسعة التي تشع ببراءة صار يمقتها.

كادت تلتصق بالقضبان الحديدية التي تفصلها عنه وهي تردد في انفعال: «أين اختفيت يا سيسيل؟! لقد قلقتُ جدًا على غيابك!»

تابع رمقها بالنظرة الكارهة ذاتها.. ولم تعطِه الفرصة للرد إذ تابعت: «ما الذي حدث لك؟! لقد تغير مظهرك كثيرًا وكأنك كبرتَ سنوات عدة!»

ولم يكُن سيسيل قد رأى تجاعيد الثلاثينيات الطفيفة التي بدت تغزو وجهه إثر الأعوام التي انصرمت من عمره في عالم إينور.

- هل أنتَ بخير؟ لقد اشتقت لك كثيرًا!

جاءها رده أخيرًا ليلجمها: «اهربي».

ارتسمت على وجهها أمارات الدهشة والاستفهام.

تابع: «اهربي إلى أبعد مكان يمكنك الوصول إليه واختبئي.. اختبئي جيدًا لأني سأقتلك بعد خروجي من هنا.. سأقتلك.. هل تفهمين؟»

نظرات عينيه الغاضبة جعلتها تنتفض رعبًا.. أرادت أنْ تسأل عن السبب -رغم أنها تدركه في داخلها- ولكن الكلمات كانت تأبى الخروج.

- لن أستطيع منع نفسي من قتلك.. ولهذا أرى أنْ تقتلي نفسكِ قبل أنْ أجدك.

تراجعت عدة خطوات إلى الوراء وهي ما تزال تحت صدمتها.. وللحظة.. شعرت بغمرة من الذكريات القديمة التي كادت تنساها، تجوب عقلها مجددًا.

«سأقتلك!» تتردد تلك الكلمة في ذهنها بأصوات عدة.. وتتراءى لها أطياف لأناس ظنت أنها محتهم من ذهنها فعلاً.. يرتسم الرعب في عينيها وهي تشعر بأنها عادت مجددًا إلى ذلك الملجأ الذي نشأت فيه.. مشاعر الرعب ذاتها تعود لتطغى عليها.. لقد ظنت بأنها تخلصت من كل ذلك أخيرًا حين التقت بسيسيل.. وظنت بأنه سيكون منقذها.. وسيجعلها تنسى كل ما مضى.. ولكن هذا الغضب الذي تراه في عينيه أعاد إليها هذه المشاعر.. سيقتلها ما إنْ يخرج من هذه الزنزانة.. سيقتلها ولن يحميها منه أحد؛ ولهذا اندفعت إلى الخارج متلاحقة الأنفاس تكاد لا ترى شيئًا من الدموع التي أغشت بصرها.

أما سيسيل فتراجع بدوره ليستند على جدار زنزانته دُون أي كلمة أخرى.

- مَن تلك الفتاة؟ ولماذا تهدد بقتلها؟

جاءت تساؤلات بريشيليا بعد وهلة من الصمت المهيب.. ولم يرد جوابًا.

- لا أصدق أنك تنوي ما قلته.. لقد قلت ذلك لتخويفها.. صحيح؟

كان غارقًا في خواطره إلى درجة عدم سماعها.

- لماذا تتجاهلني بهذه الوقاحة؟! صحيح أني سجينة ولكني أميرة ويجب عليك أنْ تحترمني!

انتبه إثر ارتفاع نبرة صوتها.

- أنا آسف أيتها الأميرة.. لم أنتبه إلى حديثك.

- والآن تحدثني برسمية ساخرة! اخرس وصلِّ كي لا أتجاهلك بالمثل حين يحين خلاصي!» تراجعت لتجلس على سريرها الحديدي وهي تنتفض غضبًا.. تقاوم الاسترسال في لومه على جميع المرات التي تجاهلها فيها حتى لا تسيل دموعها، «إلى متى سيتجاهلني هذا الأحمق؟! ألا يرى أني أولِّيه اهتمامًا غير اعتيادي؟! لماذا لا يقدّر هذا الأمر على الأقل؟! لماذا لا يحاول تملقي على الأقل؟!

كبتت خواطرها وهي تتصنع الهدوء الذي لا تشي به أنفاسها المتلاحقة.. أما هو، فكان يدرك اهتمامها به منذ زمن.. ولكنه لم يعرها اهتمامًا لأنه لم يملك المزاج الرائق أو الفراغ لأشياء كهذه.. ولو كانت تسمع الأفكار التي تدور في خلده لتفهمت أسباب تجاهله إياها.. ولأدركت بأنه لن يبادلها إعجابها لأنه -يراها بلهاء أولًا-

ولأنه على يقين بعدم وجود أي مستقبل لأي علاقة تربطه بأي كان.. يعلم هذا يقينًا لأنه مَن سيدمر هذا المستقبل.

مع بزوغ شمس الصباح الباكر، كان برج السلاسل هادئًا على غير العادة.. عدد قليل من الحراس تبقى، أغلبهم من الحراس القدامى، فقد انطلق أغلب رجال البوم الهالك في مُهمة القبض على ميست.. آخر مَن تبقى من أهدافهم.

ولم تكُن أوفيليا قد لاحظت شيئًا من هذا.. فمنذ احتجازها وهي منزوية في زاوية زنزانتها.. تمتنع عن الطعام والكلام.. ولا تطل من عينيها سوى نظرة تشي بكآبة مَن يتمنى الموت.. واليوم، حان أوان خروجها عن صمتها.

- لديكِ زائر أيتها الأميرة.. يقول إنه صبي الإسطبل الخاص بك.. هل أطرده؟

انتظر منها التجاهل.. ربما الرفض.. ولكنها رفعت ناظرها -لأول مرة- ونهضت من مكانها! أعاد الحارس النظر إلى صبي الإسطبل هذا الذي انتزع منها سكونها.. بشرة نحاسية وشعر أسود قصير دسه في قبعة مهترئة.. ورغم ثيابه الرثة، فإنّ أظافره كانت أنظف من اللازم.. نظرته أقوى من اللازم.. ووجهه أنعم من اللازم.. ولكنه تجاهل كل هذا وابتعد بالخطوات..

- هل أنتِ بخير؟

كان ذلك سؤاله، ولم يكُن يحتاج جوابًا حقًا مع هيئتها المبعثرة وعينيها الغائرتين في السواد.

- أنت.. ما تزال هنا؟

- شقيقكِ المجنون أمر بتنظيم الجيش واستدعاء عدد كبير من شبان المملكة للتدريب.. إنه إعلان غير مباشر للحرب على مملكتي.. سينطلق ليدمر مملكتي عاجلًا أم آجلًا!

- آرون.. يريد الحرب؟

ظنت بأنها لن تندهش مجددًا.. ولكن عيناها اتسعتا إثر هذا النبأ..

ابتلع ريقه وهو يهمس: «ولا سبيل للخلاص من كل هذا إلا بتعاوننا.. سأساعدكِ على استعادة عرشكِ وستساعدينني في حماية مملكتي.. تمامًا كما اتفقنا منذ البداية».

وانقضت لحظات صمت أزعجته.

- أوفيليا.

كانت شاردة.. تحملق في ثقب المفتاح بتمعن وكأنها ترى شيئًا غريبًا!

- أوفيليا!

وتستمر في الحملقة بعينين لا تطرفان.

- وجودي هنا يشكل مخاطرة كبيرة.. سيكتشفون أمر رسالتي المضلِّلة قريبًا وسيعلمون أني لم أهرب! أنا لا أملك اليوم بأكمله!

رفعت ناظرها إليه.. وتساءل عن كنه هذا البريق الذي لمعت به عينيها..

- أريد أنْ تحضر لي ورقة وريشة كتابة.

- لـ.. لماذا؟

- سأرسم لك طريق خروجي من هنا.. ثق بي وحسب.

- كما تريدين.

وانصرف باحثًا عما تريد..

أما هي، فتراجعت خطوة وقد بدأت تشعر بأنّ كل شيء سيتبدل قريبًا.. وعلى وجهها ارتسمت ابتسامة انتصار.. ثم تداعت إلى عقلها بعض الذكريات.

ذكريات تلك الليلة العاصفة التي طلبت فيها من خادمتها الصغيرة آيريس اللحاق بها إلى حجرة الرسم.. كانت آيريس سعيدة.. وتساءلت كثيرًا عن كنه ما سترسمه هذه الليلة.. وقضيا عددًا من الساعات يتدربان على النقش الرباعي المعقد.. كثير من الأوراق أهدرت في التدريب.. وقرب الفجر حان وقت التطبيق العملي.

- أين أرسم النقش؟

كان ذلك سؤال آيريس.

- هذه المرة.. سأرسم أنا لكِ هذا النقش.

تبدت نظرة تعجب مشوبة بالخوف على وجه آيريس وهي تقول معترضة: «ستعاقبني.. أمي».

- لا تقلقي.. يمكنني إزالته فيما بعد.

- حقًا؟

- نعم.. والآن اشربي هذا الشراب.

لم تسأل آيريس مجددًا.. وتناولت الكأس الزجاجي من يد سيدتها.. ثم جرعت ما فيه.. ولم تدرك أنّ الخفة التي بدأت تشعر بها في رأسها تشي بتخدر أعصابها.. وفي غضون دقائق، كانت آيريس قد سقطت فاقدة الوعي.

- لن تشعري بشيء يا صغيرة.. سيتم كل شيء وأنتِ تغطين في غفوتك.

واستلت إبرتها وزجاجة السائل القاني.. لقد سبق وأنْ رسمت عددًا من الوشوم على أجزاء جسدها نفسها من قبل، ولكن هذه هي المرة الأولى التي سترسم فيها وشمًا على جسد بشري آخر.. وأخذت نفسًا عميقًا.. فهذا الوشم سيكون مختلفًا.. وشم صعب لا تدري إنْ كانت ستنجح في إتمام طقوسه.. ولكنها رسمته رغم كل شيء.. تتذكر النقاط المصطفة والخطوط الرباعية على ظهر آيريس والدماء التي جاءت أغزر مما ينبغي.. تتذكر ثبات أعصابها وهي تستكمل مهمتها

بالوشم الآخر الذي رسمته على ذراعها اليسرى.. تتذكر كيف أنها لم تسمح لضربات قلبها المتخبطة بالتأثير على آخر مرحلة من طقوس هذا الوشم.. وكيف أنّ يدها لم ترتجف حين استلت ذلك المشرط وأخذت تشق به جمجمة آيريس.. كانت هناك دماء كثيرة.. وتطلب الأمر منها الكثير من الجهد.. الكثير من الصبر.. ولكنها في النهاية حصلت على ذلك الجزء من دماغ آيريس.. ورغم رغبتها بالارتجاع، لكنها مضغت كتلة الألياف المخية تلك وابتلعتها.. مؤمنة كل الإيمان بأنّ ما ستحصده يستحق التضحية بمشاعرها الإنسانية مؤقتًا.. ستحصل على قدرة آيريس على التصوير والتذكر.. القدرة التي أبهرتها دائمًا والتي جعلتها غير قادرة على التخلي عنها من قبل.

انقطع حبل ذكريات أوفيليا مع عودة ميست.. هذه المرة، مع الورقة وريشة الكتابة التي طلبتها منه.

استوقفه الحارس، ولكنها نهرته مخاطبة: «إنها مجرد ورقة وريشة للكتابة! أريد كتابة رسالة لشقيقي!»

وتراجع عدة خطوات إلى الوراء.

تناولت أوفيليا عدة الكتابة تلك من بين القضبان الحديدية، ثم أخذت تحملق في ذلك القفل مجددًا.. وشرعت ترسم.

واتسعت عينا ميست وهو يرى ما أخذت تخطه بدقة لم يعهدها في بشر.. إنها ترسم فتحة القفل! ترسمها بنتوءاتها المحسوبة وكأنها صورة مكبرة لتلك الفتحة.. ثم ترسم المفتاح الذي سيفتح هذا القفل.. ترسمه وكأنها تراه قبالتها.

ولم يستطِع ميست كبح دهشته، «كـ.. كيف؟»

ولم ترد جوابًا.. بل تابعت رسمها ثم همست وهي تلف لوحتها الورقية وتدسها في يده: «خذ هذه إلى رئيس الحدادين.. وأخبره بأني أنتظر نسختي من المفتاح».

أومأ وهو غير قادر على التشكيك أو التساؤل.. لقد رأى لتوه قدرة غير بشرية على التصوير.. وأيقن في داخله أنه اختار الجانب الأقوى.

هذه الأميرة هي من سينتصر وستجلب نصره معها.. لقد كان محقًا حين قرر الوقوف إلى جانبها.. أو هكذا ظن.



الفصل الثاني عشر
طارق النُحاس

مرت أيام قليلة قبل أنْ يعود البهو الملكي لقلعة القمم الدخانية للازدحام برجال البوم الهالك.. هذه المرة، كانوا أكثر غضبًا وتوترًا.

وأمام آرون ونايت، وقف أحدهم وهو يحني رأسه لملكه الجديد قبل أنْ يردف: «لم نجد أي أثر لميست في الطريق الغربي.. أظن بأنّ تلك الرسالة كانت خدعة لتضليلنا وحسب».

رد آرون بصوته الذي لم يكتسب بحة المراهقة بعد: «لقد أراد جركم إلى الطريق الغربي ليتيح لنفسه الهرب من طريق آخر».

أومأ نايت الذي كان يقف إلى جانبه: «ولقد انطلت خدعته عليكم وربح ثمانية أيام ليتدبر أمره خلالها».

حل صمت قصير قبل أنْ يعود آرون ليقول بلهجة متسائلة: «أنا لا أعرف أي نوع من الأشخاص هو ميست.. ولكنه كان يتآمر مع أوفيليا للإطاحة بالقلعة.. هل تظنون أنّ شخصًا كهذا اختار الهرب حقًا؟»

تدخل نايت: «هل تعتقد أنه ما زال يختبئ في المملكة؟»

- أظن بأنّ هذا احتمال وارد جدًا.. ربما كان متنكرًا.

رد رجل البوم الهالك: «هذا يجعل إيجاده أمرًا صعبًا جدًّا.. لا سيما أنّ ثمانية أيام كاملة قد مرت.. لا ندري في أي مدينة قد يكون مختبئًا».

- وهذا يعني أنّ عليكم بذل جهدكم من أجل إيجاده.. ومن أجل حراسة برج السلاسل جيدًا.. لا سيما زنزانة الأميرة أوفيليا فهو قد يحاول الوصول إليها.

- سنكثف الحراسة على زنزانتها وسننشر أفرادنا في جميع المدن.

- جيد.

قالها وهو ينزل من عرشه مشيرًا إلى نايت ليتبعه.. وفي نهاية البهو توقف مخاطبًا إياه: «أريد منك أنْ ترافقني إلى برج السلاسل».

أجاب نايت: «ولكن.. لِمَ تريد الذهاب بنفسك إلى هناك؟»

- أريد أنْ أرى شقيقتيّ.

لم يعترض نايت، أردف: «حسنًا.. سنذهب إلى هناك».

وأشار نايت إلى بعض الحراس ليتبعاهما إلى برج السلاسل.

- أنت تكره أوفيليا بشدة، أليس كذلك؟

فوجئ نايت بهذا السؤال، ولكنه أردف: «لا أكرهها.. ولكني أظن بأنها تشكل خطرًا كبيرًا إنْ لم تكُن في صفك».

- وهل ترى أنّ هذا سبب للتخلص منها؟

لم يعرف نايت ما الجواب الأنسب لهذه الأسئلة.. إنّ آرون نسخة أخرى من أوفيليا حقًا..

أجاب: «أنا لستُ المخوّل لاتخاذ هذه القرارات أيها الملك.. ولكني أظن أنّ حبسها في الزنزانة كافٍ لردع خطرها».

- لكنك بالتأكيد تتمنى أنْ تذيقها من الكأس التي أسقتك منها في قمة برج السلاسل.. أليس كذلك؟

- أظنها ذاقت من الكأس بالفعل برؤيتك على العرش.

أطلق آرون ضحكة قصيرة: «أنت مراوغ جدًّا! ولكن مراوغتك هي ما سمح لي بالوصول إلى هذا العرش».

ولم يرد نايت جوابًا.. بل تابع سيره على الدرجات المؤدية لزنزانات برج السلاسل بينما يتقدمه آرون.

رفع سيسيل بصره قليلًا مع اقتراب الخطوات.. وشعر بنبضاته تتسارع حين لمح وجه نايت. كان لقاؤه السابق بنايت مقتضبًا غريبًا مليئًا بالاستغلال.. وكان هو الطرف الذي كان عليه أنْ يصمت ويتحمل الجلدات لأن نايت يقف إلى جانب جماعة يخشاها الجميع.. ولكن لماذا جاء نايت وآرون الآن؟

وجاءه الجواب حين تجاوزا زنزانته إلى زنزانة بريشيليا.

- بريشيليا!

كان ذلك صوت آرون الطفولي الذي تردد صداه في المكان.

نهضت بريشيليا لتقترب من بوابة الزنزانة بنظرات تختزل غضبًا وقهرًا شديدين.. ولكنها لم تنطق بعد.. فهي لا تعلم كيف تعامل هذا الصبي الذي لم تعره اهتمامًا في حياتها قط.. لم تحاول الاقتراب منه أو معرفة ما يفكر فيه.. بل تجاهلته بكفاءة تامة كأنه قطعة من أثاث هذه القلعة.. أو على أحسن تقدير، اعتبرته هرة لاهية أو طيرًا يغني في قفص.

عاد الصدى الطفولي ليصدح بالمكان: «أعلم أنك تكرهين هذا المكان.. ولهذا سأنقلك إلى مكان آخر.. ستكونين مسجونة هناك أيضًا.. ولكن في حجرة كبيرة جميلة».

هنا انفجرت وكأنها تناست تحفزها: «مَن الذي يملي لك هذا؟! أخبرني! مَن الذي يجبرك على التصرف بهذه الطريقة؟!»

والتقت عيناها بعيني نايت الذي طالما كرهته ونعتته بأقبح الصفات..

ولكن آرون عاد ليقول بجدية: «لمَ تنظرين إلى نايت؟ أنا مَن صنع كل هذا! لم يجبرني أحد! هل من الصعب جدًّا أنْ تعترفي بأني أفوقكِ ذكاءً وفهمًا للحياة؟!»

ابتلعت بريشيليا ريقها وهي ترى نظراته المسمومة.. هل هذا الكلام يصدر من طفل حقًا؟! هل هذا الشيطان الصغير هو شقيقها حقًا؟! هي لا تعلم مَن كان شقيقها ولم تحاول المعرفة قط!

عاد ليردف بنبرة أعلى: «هل تعلمين أنني قرأت جميع الكتب في مكتبة القلعة؟! هل تعلمين أنني أحفظ الخطط العسكرية وتاريخ الحروب عن ظهر قلب؟! كم كتابًا قرأتِ أنت؟! هل تجيدين شيئًا سوى التطريز وتبذير الأموال؟!»

- أنا.. لا أنتقص منك.. ولكن من الصعب أنْ أصدق أنك وحدك صاحب هذا القرار.. لا بُدَّ أنّ أوفيليا...

قاطعها بحدة: «لقد قمتُ باستغلال أوفيليا نفسها وأنتِ ما زلتِ تظنين أنكِ تكلمين طفلًا أبله؟!»

- آرون.. اسمعني.. أنا أعلم أنك...

- أنتِ لا تعلمين شيئًا ولذلك اخرسي وحسب! لا أريد أنْ أسمع أي كلمة أخرى وإلا سأغير رأيي حيال مكان حبسك!

زفرت بريشيليا بقوة وهي تشعر بأنها غير قادرة على احتمال أنْ يهينها هذا الطفل.. مهما بلغ نضجه وفهمه فهو في النهاية طفل.. هو شقيقها الصغير! ولكن.. هل من الممكن أنه بهذا الذكاء والخبث حقًا؟! بداخلها صوت يؤكد عليها نعم.. ولكن تصديق هذا الصوت يعني أنها في مأزق حقيقي! إنْ كانت أوفيليا نفسها خُدِعت فما فرصة نجاتها هي من كل هذا؟!

ابتلعت ريقها مفضلة الصمت بينما اقترب حارس الزنزانة ليفتح القفل.. وأدركت أنها لن تبيت ليلة أخرى في هذه الزنزانة.. ولم تستطِع أنْ تمنع نفسها من توجيه سؤال آخر لآرون قبل خروجها: «ماذا عنه؟ لماذا تحتجزونه؟» قالتها وهي تشير إلى زنزانة سيسيل..

ورغم أنّ شائعة إعجابها به قد تفشت إلى الجميع، فإنّ آرون أجاب دُون أي اعتبار إلى أسباب هذا السؤال: «إنه من صومعة القضاة ويجب أنْ يموت.. السبب الوحيد لبقائه حيًّا حتى الآن هو أنّ هناك الكثير من الأمور التي عليه إخبارنا بها».

– يجب أنْ يموت؟! هل ستقتلونه بعد التحقيق معه؟!

أجاب متجاهلًا الخوف الذي ارتسم في عينيها: «هذا أمر مؤكد».

وأشار بعينيه إلى الحارسين اللذين أحكما القبض على ذراعيها حين انتفضت.. ولم تجد بدًا من أنْ تخر على ركبتيها لتستجديه: «آرون عزيزي! أرجوك.. لا تقتله الآن.. أبقِه في الزنزانة لكن لا تقتله!»

– خذاها إلى زنزانتها الجديدة.

قالها بهدوء صادم.. وشعرت بريشيليا بنفسها ترتفع كالريشة بين ذراعي الحارسين.

– آرون! أرجوك! لا تكُن قاسي القلب مثل أوفيليا! آرون!

وتلاشى صدى صراخها شيئًا فشيئًا وهي تبتعد.. وحين غابت عن أنظارهما تمامًا.. التفت الاثنان إلى زنزانة سيسيل.. اقترب آرون رويدًا قبل أنْ يخاطبه: «مرحبًا.. سيسيل!»

وجاءت تحيته مع ابتسامة أضفت براءة غريبة على وجهه.

ونهض سيسيل ليخطو خطواته إلى البوابة.. ثم وقف محنيّ الرأس.

قال آرون بلهجة مرحة يشوبها الحماس: «أخبروني بأنك شديد الذكاء والتمرد».

رفع سيسيل عينه للحظة ثم عاود النظر إلى الأرضية دُون رد..

- أنتَ لم تُبدِ أي مقاومة حتى الآن ولهذا أتوقع منك تعاونًا تامًا.. ستخبرنا بكل شيء.. ستخبرنا كيف تسللت إلى حجرة أوفيليا ولماذا.. ستخبرنا بما رأيت.. ستخبرنا بكيفية اختفائك وإلى أين ذهبت وماذا فعلت.. وستشرح كل وشم منقوش على جسدك.

بهدوء أجابه سيسيل: «لا شأن لكم بما فعلته في أثناء اختفائي.. ولا بالوشوم».

انفرجت شفتا آرون عن ابتسامة واسعة وهو يصيح: «رائع! لقد قرر المقاومة!»

تدخل نايت: «عنادك سيكون السبب في موتك.. هل تعلم ذلك؟»

«ستقتلوني في كل الأحوال.. ولذلك أفضل أنْ أموت دُون أنْ أفشي أسراري الخاصة». قالها وهو يرفع عينيه نحو نايت في تحدٍ.

أطلق آرون ضحكة قصيرة وهو يردف: «إنه محق! يعلم أننا سنقتله على كل حال فلماذا يخبرنا بأسراره؟ ولكن يبدو أنه لا يعلم أنّ موتًا عن موتٍ يختلف»».

قال نايت: «كُن متأكدًا بأني سأجعله يدرك الفارق أيها الملك.. سأتولى أمره بنفسي.. وسنرى إلى أي حدٍ سيصمد».

- أثق بقدرتك على ذلك.

قالها وهو يستمر في مسيره.. ولحقه نايت الذي همس لسيسيل قبل أنْ ينصرف: «سأعود إليك لاحقًا».

وكانت وجهتهما الأخيرة زنزانة أوفيليا.. وأمام بوابة زنزانتها توقفا.. ولمحت آرون وهو يقرّب وجهه من قضبان الزنزانة مناديًا إياها: «أوفيليااا!» ولكنها لم تتحرك من مكانها ولم تنبس بكلمة.

- أعلم أنكِ غاضبة مني بشدة.. ولكني مضطر إلى حبسك.. لا يمكن أنْ يجتمع كلانا في مكان واحد كالعرش.

ولم تلتفت حتى..

- أوفيليا! لا فائدة مما تفعلينه.. هل تدركين هذا؟ عليكِ أنْ تتقبلي أنني الملك.

وهنا تدخل نايت هامسًا: «إنها غاضبة منك ولهذا لن تكلمك.. لنعد إلى القلعة أيها الملك».

- أنت محق.. لا أظن بأنها ستنظر إلى وجهي مجددًا ولكني أعلم أنها تسمعني.. ولهذا أنا هنا لأوضح لها أمرًا مُهمًا قبل رحيلي.

ثم عاد ليقول بنبرة أعلى: «أنا لن أؤذيكِ.. وما زلتُ أكِن لكِ الكثير من الحب والامتنان.. ولكن عليكِ أنْ تدركي جيدًا أنني الملك الآن ولن أغفر لك أي محاولة للانقلاب عليَّ.. هل تفهمين؟ لن أسمح لكِ بالتعاون مع أَي كان ضدي.. وسيكون العقاب أليمًا جراء المحاولة

وحسب.. فلا تحاولي أبدًا!» ثم استدار عائدًا لينزل درجات البرج ومن ورائه نايت.

وسط عاصمة القمم الدخانية، وفي حجرة صغيرة في علية إحدى حانات حي فقير، جلس ميست يتأمل صورته في المرآة الصغيرة مكسورة الطرف قبالته.. لقد تغير مظهره قليلًا بفعل إطلاق لحيته.. ولكن شعيرات لحيته لم تكُن غزيرة حتى تبدل من ملامحه بشكل كبير.. كانت مفرقة متفاوتة الأطوال.. كيف يمكن أنْ يبدل من مظهره أكثر؟ بشرته النحاسية تفضحه تمامًا.. ويمكن أنْ يتعرف عليه مَن يبحث عنه بسهولة إنْ كان يملك بعض المعلومات عن مظهره.. يعلم أنهم يبحثون عنه في كل جحر.. وسيمرون من هذه الحانة عاجلًا أم آجلًا.

- ترى مَن يماثلني لون بشرتي في هذه العاصمة؟

أخذ يفكر.. هو لا يرغب في الاختباء حقًا.. ولا فائدة من محاولة تغيير هيئته.. ولهذا، من الأفضل أنْ يندمج في المجتمع بشكله الحالي ولكن بهوية مختلفة.. يريد أنْ يعود يومًا ما إلى القلعة دُون أنْ يشعر أحد بأي ما يريب.. يجب أنْ يجد طريقة يظهر فيها للعيان دُون أنْ يرتابوا في أمره.. يجب أنْ يجد أشخاصًا يماثلونه وبهذا يندمج معهم ليبدو فردًا منهم.. ولكن مَن هم!؟ أين يجد أشخاصًا نحاسيي البشرة في هذه البلاد؟!

صباح اليوم التالي، وفي حجرة فسيحة رحبة، انْسَلَّت أشعة الشمس الخجول عبر النوافذ التي تطل على عاصمة القمم الدخانية من على ارتفاع شاهق. كانت الحجرة مفروشة بأثاث ملكي باهظ قسمها إلى قسم للنوم وقسم للأكل وقسم للحياكة والتطريز! وكأنها جُهِّزت في اعتبار خاص لمزاج صاحبتها التي وقفت ترمق كل شيء بوجه عبوس. لم تستطِع النوم رغم نعومة الفراش المحشو بريش النعام، ولم تستطِع الأكل رغم طاولة العشاء التي انتظرتها ليلة البارحة بشتى الأطباق المحببة إليها.

وقفت بريشيليا وراء النافذة التي تنتصفها قضبان فولاذية لا تسمح بمرور رأسها حتى، ودارت في خلدها أفكار كثيرة لم تلبثها منذ البارحة.. ولم تفق من استغراقها حتى سمعت جلبة عند باب الحجرة وهو يُفتَح.. لا بُد أنهم أتوا لأخذ أطباق العشاء واستبدالها بأطباق الإفطار. لم تلتفت في البداية، ولكنها شهقت حين سمعت صوت وصيفتها العجوز.

- أميرتي! ما الذي فعلوه بك! هل أنتِ بخير؟

وكانت الدموع تجتمع في عيني الوصيفة حين التفتت إليها بريشيليا التي ارتمت في حضنها وهي تستغرق في البكاء.

أميرتي! أرجوكِ اهدأي! أنتِ في أمان!» ثم أشارت لبقية الخادمات حتى يخرجن من الحجرة.

ومن بين شهقاتها، جاءت عبارات بريشيليا متقطعة مبتورة الحروف: «أنا.. أنا غبية جدًّا وبلا جدوى! أنا أكره نفسي! أكره نفسي!»

- أميرتي! أرجوكِ لا تقولي هذا! لا تلقي اللوم على نفسك!

رفعت بريشيليا عينيها لتقول بينما تخنقها الدموع: «أتفهم الآن لماذا تكرهني أوفيليا والجميع.. يكرهونني لأني أستحق الكراهية حقًا! هل رأيتِ مَن هو أغبى مني؟ هل رأيت من يعيش حياة أتفه من حياتي؟! لقد كبرتُ في هذه القلعة دُون أنْ أعي شيئًا! دُون أنْ أحاول حتى!»

ربتت إيفي على ظهرها متمتمة بلهجة مواسية: «لا تحملي نفسك ذنوب غيرك يا أميرتي! يجب أنْ لا تفكري بهذه الطريقة!»

- كان من المفترض أنْ أحمي المملكة من أي خطر كوني وريثة العرش الأولى! ولكني لم أشعر بذرة مسؤولية تجاه هذا الأمر! لم أهتم ولم أحاول! والآن يسيطر هؤلاء القتلة على كل شيء! ما كان هذا ليحدث لو أني...

- أميرتي! أرجوكِ توقفي عن هذا! وما الذي كنتِ ستكونين قادرة على فعله؟ لقد خدع هؤلاء أوفيليا أيضًا رغم أنها أفعى خبيثة.. الذنب ليس ذنبك لأنكِ لم تفعلي شيئًا لتمنعي ما حدث.. ولكن سيكون من واجبكِ أنْ تفعلي شيئًا الآن بدلًا عن البكاء والنحيب.

- لقد ارتكب هذا شقيقي الأصغر الذي لا أتذكر حتى متى دارت بيننا آخر محادثة! أنا لم أحاول بناء أي علاقة بأي كان! لطالما كنت بعيدة عن كل شيء!

- ماذا عن علاقتنا إذًا؟ هل تظنين أنّ لأوفيليا أو آرون خادمًا مخلصًا مثلي؟

حل صمت قصير قطعته إيفي ثانيةً: «نعم أنا مجرد خادمة عجوز.. ولكن هل تعلمين بأنّ الخدم هم مَن يمنح القوة لأمير دُون غيره؟ ألا يحتاج الأمير إلى شبكة جواسيس وإلى أشخاص يخترقون القوانين من أجله؟»

- أتفهم هذا.. ولكن.. أنتِ.. أنتِ أجبن مَن رأيتُ في حياتي.

أخذت إيفي نفسًا عميقًا قبل أنْ تردف: «وأنتِ ألم تكوني أغبى مَن رأيتُ في حياتي؟ مِن شأن الظروف أنْ تغيرنا».

صمتت بريشيليا إثر تلك الإهانة التي لم تعتبرها إهانة حقًا.. بل حقيقة معروفة.. تابعت إيفي: «أنتِ تدركين الآن أنّ واجبك أنْ تفعلي شيئًا، أليس كذلك؟ هذا تصرف يدل على النضج.. وأنا مستعدة للمخاطرة بحياتي من أجل مساعدتك ما دُمتِ قد اتخذتِ هذا القرار».

صمتت بريشيليا قليلًا وقد توقفت دموعها.. لكن سرعان ما عادت عيناها للامتلاء حين تمتمت: «هل ستساعدينني حقًا؟»

ابتسمت إيفي: «بالطبع! سنخرج من هنا.. وسنُنقذ سيسيل أيضًا».

ابتسمت بريشيليا في امتنان وهي تقول: «لقد تغير موقفك من سيسيل أيضًا؟»

- لقد سمعت بأنهم سيأخذونه إلى عليّة برج السلاسل الليلة.. سيعذبونه كثيرًا.. وهذا يدل على أنه يشكل خطرًا ما عليهم.. من الضروري أنْ ننقذه حتى يقف إلى صفنا ضدهم.

تلاشت ابتسامة بريشيليا بينما عاد الوجوم إلى وجهها.

تابعت إيفي: «أنا أعرف كثيرًا من الأشياء وأعرف قواعد اللعبة جيدًا.. لم أرغب بإقحامك في النار من قبل حتى لا تحترقي.. ولكننا احترقنا بالفعل الآن.. ولذلك ستثقين بي».

أومأت بريشيليا وهي تشد على قبضة إيفي التي أردفت: «يجب أنْ نبدأ بتشكيل حزبنا.. لا بُدَّ أنّكِ تبادلتِ الحديث مع عدة حراس في أثناء فترة احتجازك.. هل استطعتِ ملاحظة إنْ كان أحدهم يميل إليك؟ فكري في مَن قد ينضم إلى صفنا منهم.. ستكون هذه نقطة البداية للتغلغل إلى برج السلاسل».

ابتلعت بريشيليا ريقها وهي تستغرق مفكرة، ثم قالت بعد هنيهة: «هناك مَن كنت أبادله الحديث أكثر من غيره.. لكني لا أعرف اسمه.. كان يستغل فترات غياب رجال البوم الهالك ليحدثني عن مستجدات الأمور».

- كيف يبدو ومتى تولى حراستك؟

- كان أول مَن تولى حراستي.. وتم استبداله قبل أربعة أيام.. لم أحفظ ملامحه جيدًا.. ولكنه كان ضئيلًا قصيرًا.. شبه أصلع.. شاحب البشرة بشدة لدرجة أني كنت أتساءل إنْ كان مصابًا بالبهاق.

ارتسمت ابتسامة واسعة على وجه إيفي وهي تقول: «ماريون الصغير.. هكذا ينادونه.. أعرف أين تسكن والدته».

ابتسمت بريشيليا بدورها: «أنتِ رائعة حقًا يا إيفي! يبدو أنكِ تعرفين الجميع في هذه القلعة!»

«لن نصل إلى هدفنا بسهولة.. ولكن إغفال الجميع لي ولك سيمنحنا فرصة عظيمة» قالتها وهي تتجه إلى الطاولة التي اصطفت بأطباق الإفطار.

- عليكِ أنْ تأكلي لتستعيدي قوتك يا أميرتي.

أومأت بريشيليا وهي تجلس قبالة تلك الطاولة: «بالتأكيد!»

في قلب عاصمة القمم الدخانية، وفي أحد أكثر الأحياء حيوية، وقف رجل في منتصف العمر، أقرب إلى الكبَر، يمسح عرق جبينه الذي تجمع فوق عينيه المحمرتين، واللتين تبدوان هكذا دائمًا إثر تعرضه الدائم إلى الحرارة العالية وذرات المعادن.. كان مكشوف الذراعين، وكان باديًا اختلاف لون بشرة ذراعيه عن وجهه، فوجهه كان قد اكتسب لونًا نحاسيًا أقرب إلى الاحتراق.

كان ينظر إلى عامله الجديد وهو يصيح: «أقوى! يجب أنْ تتحول قطعة النحاس هذه إلى صفيحة رقيقة!»

زاد العامل من قوة الطرق وكان واضحًا أنه لا يملك أي خلفية عن مهنة الحدادة.. ولكن سيده لم يوجه له أي إهانات.. وذلك بسبب سبائك الذهب التي أسكته العامل بها هذا الصباح!

لِمَ قد يملك عامل حِدادة مبتدئ سبائك ذهب؟! لا يملك أي فكرة! ولا يَهمه هذا حقًا! عامل يريد أنْ يعمل فقط مقابل إيجاد مأكل وكومة قش ينام عليها.. يملك رغبة حقيقية في التعلم ولا يتذمر من الشرر المتطاير في وجهه الذي أصابه بحروق صغيرة بالفعل منذ اليوم الأول! بل بدا له أنّ عامله يتعمد التخلي عن وسائل الحماية ليكسب أكبر عدد من الحروق الجلدية!

- تُرى مَن يكون هذا الشاب؟

كان يتساءل ثم ينفض السؤال من عقله.. فسبائك الذهب تلك كانت الشرط لكذبة اتفقا عليها.. كذبة حرص على مشاركتها مع كل من زار محل حدادته وسأله عن هوية عامله الجديد.

- إنه ابن أختي ميست.. ولقد جاء من بلدته البعيدة ليعيش معي بعد وفاة والدته.

مع حلول الظلام، وفي عُليّة برج السلاسل، شعر سيسيل بالهواء البارد يلفحه حين مزق جلاده الرداء الذي كان يغطي به جذعه.. كان يشعر بثقل الأصفاد الحديدية التي تم تثبيتها حول معصميه.. وكان عاجزًا عن الرؤية بعد أنْ تم حجب عينيه بعُصابة سوداء..

كان هادئًا.. وإنْ بدأت ضربات قلبه بالتسارع بالفعل.. تُرى ما الذي ينتظره؟ أكان قراره صائبًا حين قرر العناد؟

اقتربت منه خطوات هادئة واثقة سيحفظها جيدًا.. وهمس صاحبها: «سنبدأ من حجرة أوفيليا.. كيف تسللت إليها؟»

- لا أعرف.

ولم يكد يجيب حتى شعر بمن يلوي ذراعه في زاوية لم يستطِع تخيلها.. فعض على شفتيه ليمنع صرخة كادت تنطلق إثر الألم.

أطلق نايت تنهيدة عميقة قبل أنّ يردف: «لا أريد أنّ أسمع هذه الكلمة أبدًا! أريد إجابات.. كيف تسللت؟»

- لا أعـ...

وقطع كلمته صرخة ألم أطلقها رغمًا عنه إثر انفصال عظمة العَضُد عن لوح كتفه الأيمن!

كان الألم فظيعًا.. وتسارعت نبضات قلبه وهو يدرك حجم الأمر الذي أقحم نفسه فيه! لقد قرر أنّ يتحدى نايت وذلك من أجل تأجيل قتله لأطول فترة ممكنة! فهُم لن يقتلوه قبل أنّ يمتصوا منه كل معلومة يحتاجونها -أو لا يحتاجونها- ولكن.. هذا الألم.. هذا الألم حقيقي يعصف به بشكل يجعله ينسى الإجابة الحقيقية فعلًا! كيف سيتحمل كل هذا؟ ما زال في البداية! ما زال هناك الكثير! إنها الليلة الأولى وحسب!

- لم أفعل شيئًا سوى خلع كتفك! أستطيع إرجاع العظمتين إلى وضعهما الطبيعي.. لكني أحتاج إلى إجابة.. كيف تسللت؟

هل يستحق الأمر أنْ يعاند؟ هل سيخرج من هنا على أي حال إنْ قرر المماطلة وكسب الوقت؟ لا يدري!

- كيف تسللت إلى حجرة أوفيليا؟

مَن الذي سيساعده للخروج من هنا؟ ليس هناك سوى بريشيليا البلهاء التي قرر العناد والمماطلة متأملًا عودتها من أجله! لكن هل ستكون قادرة على إنقاذه حقًا؟ ربما يأتي سيروس من أجله.. لكن أي قوة يملك سيروس بعد المذبحة التي حدثت في الصومعة؟ لا بُدَّ أنه يحاول النجاة بالتخفي والهرب.

- كيف تسللت؟

مِن المضحك حقًا أنه بات يضع نجاته رهن تلك الفتاة البلهاء التي طالما أراد التخلص منها وحسب.. الفتاة التي تجاهل كل رسائلها وعاملها بجفاء وتجاهلها متعمدًا حتى اللحظة الأخيرة.

ثم يقطع حبل أفكاره الألم الشنيع الذي جاء من انفصال عَضُد كتفه الأيسر هذه المرة!

- يمكنك المماطلة أكثر ولكن حينها سيبقى خلع كتفيك دُون علاج وسيتسبب هذا بضمور العصب وشريان الذراع.. وهذا يعني موت خلايا الذراع والحاجة إلى بترها.. أنا مدرّب على هذه الأمور وأستطيع علاج الخلع بحركة واحدة! لكن أريد إجابتك أولًا!

سيجيب.. لا بُدَّ أنْ يجيب حتى لا يخسر ذراعيه!

- كيف تسللت؟

- قاطعة.. المعادن.

كم سيصمد؟ وكم سؤالًا سيجيب قبل أنْ تنفد الأسئلة والإجابات؟ لا يعلم.. الآن.. يعلم فقط أنه يصلي في قرارة نفسه لتتذكره بريشيليا.



الفصل الثالث عشر

حدوة الحصان

فتح سيروس عينيه بصعوبة إثر النور المشع الذي أغشى رؤيته.. أكان نورًا مشعًا حقًا؟ لم يكُن كذلك.. بل كان ضوءًا خافتًا.. ولكن كيف يمكن أنْ يمتاز الضوء الخافت بهذا السطوع؟ كان ذلك ما أخذ يدور في رأسه وهو يتلفت محاولًا تبين ما حوله.. وشيئًا فشيئًا بدأ يتعرف إلى ماهية هذا المكان.. لم يتعرفه حقًا.. ولكنه لاحظ أنّ المكان أشبه بغابة.. غابة غريبة.. فحوله انتشر عدد هائل من الجذوع العالية التي لا يستطيع تبين قممها.. ورغم ذلك لم يكُن هناك أي أثر آخر للحياة.. فالسكينة التي ملأت المكان أثارت ريبته بشدة.

أهذا صوت تنفسه؟ إنه يسمع صوت تنفسه من شدة الصمت المطبق على هذا المكان! ابتلع ريقه وهو يستدير عله يلمح شيئًا غير هذه الجذوع المحيطة به.. ثم لمح تلك الظلال.. سبقتها أصوات خطوات خرقت الصمت مرعبة إياه.

- سيروس!

قلبه يكاد يتوقف من شدة الخفقان.. التفت مجددًا في اتجاه مصدر الصوت.. كان شخصًا ملتفحًا بثوب طويل.. يغطي رأسه

بشيءٍ أشبه بالخمار.. أسدله على نصف وجهه حتى لا يتبين منه شيئًا.

- سيروس!

مَن يكون هذا؟ بل مَن يكون هؤلاء؟ فقد رأى أشخاصًا آخرين يخرجون من الظلال.. يرتدون ذات الثياب.. وكانوا يحاصرونه من جميع الجهات.

- مـ.. من أنتم؟! وأين.. أنا؟

خرجت الكلمات من حلقه بصعوبة.

- أنت في حضرة حُراس الأثير.. وأنت هنا من أجل محاكمتك على جريمتك.

هل ما يحدث هنا حقيقي؟ ما الذي يقوله هذا الرجل وما معنى ما يقول؟!

كان قد غص بكلماته مجددًا.. وازدادت عيناه دهشة وخوفًا.

- بسببك.. تسربت أسرار قد تخل بتوازن عالم الهاكساس.

- لقد سمحتَ لسيسيل بالانتقال إلى عالم الهاكساس حيث التقى بإينور.. وحيث أقنَعَتْه بتسريب أحد الأسرار التي لا ينبغي أنْ تغادر عالمك.

- سكان الهاكساس سيكونون قادرين على التخاطر واستقراء المستقبل.

- وبعضهم سيكون قادرًا على رؤية كيانات لا تنتمي لعالمه.

- بسببك.. ستدمر إينور الحواجز بين العوالم.

كانوا يتحدثون تِباعًا وكأنهم شخص واحد! ولم يعرف سيروس أين ينظر! فكان يتلفت كالأبله متنقلًا بينهم وهم يشرحون له جريمته بتلك الطريقة المتلفة للأعصاب.. ولم يدرك جريمته بعد! أي إينور تلك التي يتحدثون عنها؟! إينور التي يتذكرها شابة تم تطبيق وشم العقاب عليها منذ أسابيع قليلة.. وكانت متهمة بمحاولات لسرقة الكتب المحظورة..

- أنا.. لا.. أفهم.. مَن.. هي.. إينور؟

- الشابة التي خطرت ببالك للتو.. شقيقة الملك ميرلين التي تم نفيها خارج عالمك.

- غير أنها لم تَعُد شابة حقًا.. فقد صارت عجوزًا بالفعل.. ولكن ما خلّفته وراءها كفيل بتدمير العالم الذي نُفِيَت إليه.

كان كم المعلومات التي يتناوبون على صفعه بها أكبر مما يمكن له أنْ يفهمها ويدركها.

- أرجوكم.. ما زلت لا أفهم ما الذي تتحدثون عنه.

- ستفهم كل شيء.. لا تقلق.. ستفهم أكثر مما ينبغي لك أنْ تفهمه.

لم تطمئنه تلك الإجابة بقدر ما زادت من توتر نبضاته.. ولكنه لم يملك خيارًا.. عليه أنْ يهدأ ويستمع إليهم! عليه أنْ يفهم!

في سجنها، بداخل قبو الحصن القديم.. جلست ليلاك وهي تهم بقراءة رسالة أوصلها حارسها لها خلسة.. أخذت نفسًا عميقًا وهي تحاول التغلب على رجفة أصابعها.. فهذه الرسالة قادمة من ميست.. أول رسالة منه بعد شهور كاملة فقدت خلالها الأمل في كونه ما يزال على قيد الحياة!

ليلاك..

أريدك أنْ تعلمي أني نجحتُ في الاختباء من البوم الهالك.. أنا في أمان مؤقتًا.. ولكني محصور كفأر سجين.. لا أعلم إنْ كانت رسالتي هذه ستجدي أي نفع أو إنْ كنتِ تملكين أي قوة! ولكن هذا كل ما أستطيع فعله من أجل مملكتنا الآن! أرجوكِ يا ليلاك.. اتركي كبريائك جانبًا وتوسلي لإيدن من أجل الاستماع إليكِ! يجب أنْ يباشر إيدن بحفر القناة المائية التي كان ينوي البدء بها.. أعلم أنّ هذا مشروع فاشل! ولكن يجب أنْ تبدأ الحفريات بأسرع ما يمكن! لا أستطيع البوح بالأسباب.

ميست

أعادت ليلاك قراءة الرسالة مرات عدة.. لم تدرِ لِمَ لمْ تستطِع الابتهاج لنجاته.. رغم أنها قضت الشهور المنصرمة تتحرق لدليل على نجاته! لقد نجا.. ولكنه ما زال يعلق مستقبل المملكة على كاهلها لأنه فأر سجين كما يصف نفسه! لماذا لا يهرب ويأتي ليدافع عن مملكته بنفسه؟! ما قيمة بقائه مختبئًا هناك؟!

كانت تشعر بالغيظ إزاء هذا.. وتتمنى لو أنها تجد إجابة شافية.. ولكنها تثق بميست ثقة عمياء.. تعلم أنه لا يتخذ قرارات دُون دوافع قوية.

- أيها الحارس!

نادت وهي تخبط بوابة القبو بقوة.. ولم تمضِ دقائق حتى سمعت خشخشة المفتاح في القفل الحديدي.

- ماذا هناك يا مولاتي؟

ابتلعت ريقها وهي ترمقه بنظرة استشعر فيها خطورة الموقف: «أريد أنّ أتحدث إلى إيدن.. أرجوك أبلغه بأنّ الأمر يتعلق بالحرب القادمة.. يجب أنّ أراه».

قطب حاجبيه في رد فعل مباشر: «أي حرب يا مولاتي؟»

- الحرب التي ستدمر مملكتنا! والتي لا يمكن التصدي لها إلا بتعاوننا جميعا!

أومأ الحارس وهو يمنع نفسه من الاسترسال بسؤال آخر.. كان يعلم أنها لن تخبره بمصدرها أو دليلها.. ولكنها بدت صادقة جدًّا.. ولهذا نادى من ينوب عنه في الحراسة ثم هُرِع ناحية القصر.

مع حلول الظلام.. وعلى فراش القش، استلقى ميست بعد يوم مرهِق. لقد تبدلت هيئته تمامًا.. بلونه المحترق وشعره الذي استطال

دُون تهذيب.. وعينيه المحمرتين.. لقد صار يبدو كحداد حقيقي وُلد وترعرع بين شرارات السندان وموقد اللحام.. ولكنه سرعان ما عاود النهوض من فراشه.. فقد سمع معلمه ينادي عليه.. ولم يكُن معلمه يستدعيه من فترات راحته إلا لسبب.

هُرع إلى الخارج ملبيًا النداء.. واقشعر حين رأى الواقفَين على عتبة الدكان.. كان القادمَان من القلعة.. وكان نايت أحدهما..

حاول ميست كبح توتره.. لقد انتظر هذه اللحظة منذ زمن.. هذه هي فرصته للوصول إلى القلعة مجددًا! وعليه أنْ يستغل هذه الفرصة! ولكن كيف؟ لا يعلم بعد!

عاد معلمه للصياح: «تعال إلى هنا يا ميست.. مستشار الملك يطلبك!»

اقترب وهو يحني رأسه إلى الأرض علامة للاحترام.

واقتربت خطوات نايت تجاهه.

- ارفع رأسك أيها الشاب.. لقد قيل لي أنك مبتكر عبقري رغم أنك ما تزال جديدًا على هذه المهنة.

- أقدر هذا الإطراء يا سيدي.

- أريدك أنْ تشرح لي تصميمك الفريد لحدوات الأحصنة.. أخبرني معلمك بأنك صممتَ هذه الحدوات خصيصًا لتلائم البيئة الصحراوية.

رد ميست دُون أنْ يرفع عينيه: «هذا صحيح يا سيدي.. في الحقيقة، لقد صنعت هذه الحدوة بهدف التنقل بين البيئات المختلفة بسلاسة.. وليس من أجل البيئة الصحراوية تحديدًا».. صمت لهنيهة بينما يستل الحدوة التي صنعها من يد معلمه، ثم تابع: «لقد صنعتها من قطعتين قابلتين للانفصال.. والهدف منها أنْ يتم استبدال القطعة الملامسة للأرض عند دخول الأراضي ذات الطبيعة المغايرة.. فعلى سبيل المثال، عند انتقال الحصان من أرضية ثلجية إلى أرضية رملية، لا بُدَّ من تبديل الحدوات حتى يتمكن الحصان من استكمال المسيرة الطويلة.. أنت تعلم يا سيدي أنّ الأراضي الصحراوية تلزمها حدوة خفيفة مقوسة.. بينما البيئة الثلجية تلزمها حدوة سميكة دائرية».

كان نايت يومئ برأسه في فهم.. وكان مبهورًا حين أراه ميست كيفية تبديل القطعة السفلية.. فقد كان التصميم ذكيًا وبسيطًا في آنٍ واحد.

تمتم بعد هنيهة: «هذا رائع! هذا ما نحتاجه تمامًا».

- لكني مبتدئ يا سيدي.. ولا أدري إنْ كان تصميمي هذا عمليًا.

التفت نايت إلى معلم ميست منتظرًا رده، أجاب الأخير: «أنا أرى بأنّ هذا التصميم ذكي يا سيدي.. ولكني لم أختبر أي حدوة من أجل بيئة صحراوية من قبل.. ولذلك أرجو أنْ تمنحنا وقتًا أطول لاختبار...».

قاطعه نايت: «لا وقت لدينا.. يجب أنْ نبدأ بصناعة الحدوات.. إنْ كانت لديك شكوك في هذا التصميم فيؤسفني أنْ أرفض ابتكار تلميذك.. رغم أني أتوق إلى تجربته».

تدخل ميست: «سيدي.. لقد سمعتُ بأنّ رئيس الحدادين في القلعة يملك خبرة عريضة في هذا المجال.. ربما كان بإمكاننا تجاهل مرحلة الاختبار إنْ استمعنا إلى رأيه».

أومأ نايت: «نعم.. بإمكاننا ذلك.. أعطِني الحدوة وسأعرضها عليه».

قال ميست: «أنا أعتذر يا سيدي إنْ كنتُ أتجاوز حدودي.. ولكني أتمنى أنْ أعرض عليه الحدوة بنفسي.. أريد أنْ أشرح له التصميم وأطرح عليه بعض الأسئلة».

ابتسم نايت: «لا مشكلة في ذلك.. ستأتي صباح الغد للقاء رئيس الحدادين».

- شكرًا جزيلًا يا سيدي! أقدر لك منحي هذه الفرصة الثمينة!

استدار نايت ورفيقه إلى الخارج، بينما ودعهما معلم ميست شاكرًا.. وحين عاد إلى الداخل، وجد ميست يقف بينما ترتسم على وجهه ابتسامة واسعة لا يتذكر متى رأى مثلها من قبل.

تمتم: «عملٌ جيد يا ميست.. ولكن الأفكار لا قيمة لها إنْ لم تُستخدَم لهدف حقيقي.. اذهب للنوم فغدًا يوم طويل».. ثم ربت على كتفه متجاوزًا إياه.

في الشهور المنصرمة القليلة، كان معلمه يقترب من الانفجار.. فبعد أنْ نفد مخزون ميست من السبائك.. لم يكُن هناك ما يشتري به صمت معلمه.. وكان الأخير قد بدأ بطرح الأسئلة مجددًا.. ولكن ذلك لم يدُم.. فسرعان ما بدأ يتقبل ميست كمساعد حقيقي.. لا سيما حين بدأ الأخير بعرض أفكاره.. وكانت لديه أفكار مختلفة على الدوام.. وهذا ما جعل معلمه يراه فرصة لازدهار ما يصنعه في محل حدادته المتواضع.

الآن.. يدرك ميست أنّ علاقته بمعلمه قد تتوتر مجددًا.. فنظرات المعلم لم تكُن نظرات فخر أو إعجاب.. بل كانت نظرات غيرة وحسد فشل في مداراتها.

في زنزانتها المبهرجة، كانت بريشيليا تجلس ساهمة على طرف سريرها حين جاءتها إيفي مسرعة..

رفعت بريشيليا رأسها في تساؤل، «إيفي؟ ما الذي جاء بك في مثل هذا الوقت؟»

اقتربت إيفي هامسة، بينما ارتسم على وجهها تعبير جاد: «لقد تُوفي أحد السجناء هذا المساء في برج السلاسل».

كانت بريشيليا وإيفي قد وضعتا خطة الهروب منذ زمن.. وكانت الفكرة فكرة طبّاخ المناوبة الأولى من الحرّاس، الذي كسبتا دعمه ضمن حلفهما الجديد.. فقد أكّد قدرته على دس مخدّر في طعام الحراس كونه المسؤول الأول عن إعداد الوجبات التي تسبق بدء مناوبتهم.. وكان يعرف الجرعة الكافية لجعلهم يسقطون نائمين بعد أخذ مواقعهم.

كانت تلك خطة هروب بريشيليا من برجها، فالحراس في برجها معدودون على الأصابع.. وكانوا ينوون تطبيق الخطة ذاتها في برج السلاسل.. ولكن برج السلاسل يمتلئ برجال من البوم الهالك أيضًا.. وهؤلاء لا يتناولون وجبة الحرّاس.. ولذلك، قرروا أنْ ينتظروا وفاة أحد السجناء ثم استبداله بسيسيل للهرب بعيدًا عن الأعين.. لا يمكن أنْ يفلت سيسيل من أعين البوم الهالك.. ولكن يمكنه أنْ يفلت إنْ تظاهر بأنه جثة.

امتقع وجه بريشيليا وهي تقول: «الآن؟! لا يمكننا تنفيذ الخطة في مثل هذا الوقت! لقد فات أوان وجبة العشاء!»

فقالت إيفي: «لن يخرجوا الجثة من البرج في هذا الوقت يا أميرتي.. سيخرجونه صباح الغد».

- سيتركون الجثة ليلة كاملة في الزنزانة؟!

- صحيح.

- إذًا علينا أنْ نخبر الطبّاخ بالأمر! ويجب أنْ يجهز ماريون عربة لي.

قالت إيفي بعد هنيهة صمت: «لا أعرف ماذا أقول يا أميرتي.. ولكن...».

كشرت بريشيليا وهي تدرك أنّ إيفي آتية بمصيبة: «لكن ماذا؟! ماذا هناك؟»

- لقد أخبرني ماريون بأنّ المجموعة التي تحرس الزنزانات في بقعة سيسيل قد تم نقلها.. بدءًا من الغد، ستأتي مجموعة جديدة من الحرّاس.. لن نستطيع الوصول لزنزانة سيسيل وتبديله بالجثة في وجودهم.

- وماذا في ذلك؟ ألا يمكن أنْ يدبر الطبّاخ أمر تخديرهم؟ صحيح أننا لا نستطيع تخدير جميع الحراس في البرج.. ولكن يمكننا أنْ نفعل ذلك لتلك المجموعة وحسب!

أطلقت إيفي نفسًا عميقًا قبل أنْ تردف: «المشكلة أنهم يتبعون المناوبة الثانية.. طبّاخنا لا يشرف على وجباتهم».

- المناوبة الثانية؟! ما الذي جاء بهم إلى برج السلاسل؟! ألم تخبريني من قبل أنّ حراس المناوبة الثانية مختصون ببلاط الملك فقط؟!

- صحيح.. ولكن هذا تبدل الآن! لا نستطيع إخراج سيسيل!

- لقد توفي سجين آخر قبل شهرين وفشلنا في تنفيذ الخطة لأن نايت بقيَ في زنزانة سيسيل حتى ظهيرة اليوم التالي.. وكدنا نُكشف حين سقط الحراس نيامًا.. ولم نتمكن من دفع الشبهة بعيدًا عن طبّاخنا إلا بصعوبة بالغة! فقد كان من العسير على نايت تصديق أنّ حرّاس البرج اختاروا وقت مناوبتهم لاستهلاك كل زجاجات الخمر الفارغة التي وجدها في أمتعتهم! والآن نفشل لأن المناوبة نفسها تبدلت.. إلى متى سننتظر يا إيفي؟! أخشى أنّ هذه خطة فاشلة لن نقدر على تنفيذها أبدًا!

- ولذلك يجب أنّ لا ننتظر أكثر يا أميرتي!

- ما الذي تعنينه؟!

- يجب أنّ نخرجك من هنا! إنّ كنا غير قادرين على إنقاذ سيسيل، فعلينا أنّ ننقذكِ أنتِ ما دمنا نستطيع!

قطبت بريشيليا جبينها وهي تزمجر: «لن أخرج من هنا وأترك سيسيل ورائي!»

- يمكننا أنّ ندبر خطة أخرى لإخراجه بعد هروبك!

- سيكون هذا مستحيلًا! السبب الوحيد وراء نجاحنا في وضع هذه الخطة هي أنّ لا أحد يشك بنا! إنّ هربتُ ستلتفتُ أنظارهم إليَّ! لن أستطيع العودة مجددًا!

كانت إيفي تدرك أنّ هذا صحيح تمامًا.. ولكنها لم تملك خيارًا آخر.

- ماذا لو تم نقل حراسكِ أيضًا؟ سنفقد فرصتنا إلى الأبد! أرجوكِ يا أميرتي.. يجب أنّ تخرجي من هنا بأسرع فرصة!

- أخبرتكِ بأني لن أتخلى عن سيسيل! يجب أنّ نفكر بطريقة أخرى لإخراجه!

أطلقت إيفي نفسًا عميقًا وهي تشعر برغبة في صفع بريشيليا.. أمسكت بيد بريشيليا ضاغطة عليها: «أرجوكِ كفي عن هذا يا أميرتي! ما تفعلينه سيؤدي إلى هلاكنا جميعًا! ليس لدينا خيارات أخرى!»

لم ترد بريشيليا جوابًا.. كانت تحدق في الفراغ وكأنها تزِن فكرة في عقلها.

- ما الذي تفكرين فيه يا أميرتي؟

قاطعتها إيفي عالمة أنّ بريشيليا لن تأتي سوى بفكرة خرقاء لا يمكن تنفيذها.

أجابتها بريشيليا بعد وهلة من الصمت: «هناك طريقة يا إيفي.. لقد وجدتها».

- أنا أستمع.

نظرت بريشيليا إلى عينيها وهي تردف: «قلتِ بأنّ سيسيل لا يمكن أنْ يعبر من برج السلاسل إلا كجثة، صحيح؟ لماذا لا نُزَيِّف موته إذًا؟ لا حاجة إلى أنْ نستبدله بجثة ثانية.. يجب أنْ ندعهم يظنون أنه مات وبهذا يسمحون بإخراج جثته!»

- فكرة جيدة عدا أنّ تزييف موته مستحيل.. كيف سنزيِّف موته؟ الجثث لا تخرج إلا بعد أنْ يفحصونها ويتأكدون من غياب علامات الحياة فيها.

شعرت بريشيليا بالغيظ لرد إيفي: «أنا لستُ بهذا الغباء يا إيفي! أعلم أنهم يفحصون الجثث.. ولذلك علينا أنْ نعطي سيسيل سمًّا يقتله حقًا.. وحين نخرجه نعطيه المصل المضاد لهذا السم!»

- وأين يمكن أنْ نجد سمًّا كهذا؟! نحن نعمل مع طباخ لا مع خبير سموم محترف! ثم إني لم أسمع في حياتي عن سم كهذا.. لا أظن أنّ له وجودًا إلا في القصص.

كان صوت إيفي قد علا قليلًا.. ولكنها سرعان ما أخفضته حين شعرت بأنها تقلل من احترام أميرتها.

ولكن تلك النبرة أزعجت بريشيليا التي سرعان ما علا صوتها أكثر: «وما أدراني! لكن لا بُدَّ من وجود حل ما! ليس من الضروري أنْ يكون سمًا! ألا يوجد دواء مشابه؟! ابحثي عن طبيب واسأليه!»

أخفضت إيفي رأسها احترامًا وهي تهمس: «أمرك يا أميرتي.. سأبحث عن دواء يمكن أنْ يستخدم لتزييف الموت.. وسآتيك بالأنباء غدًا».

استدارت إيفي لتخرج من الحجرة.. بينما استلقت بريشيليا على سريرها لتتأمل السقف المظلم.

كان قلبها ينبض بقوة.. تعلم أنها ستخرج من هنا قريبًا.. وكانت تشعر بالرعب إزاء هذا.. فقد كان جليًا أنّ حياتها كهاربة ستكون أصعب بمراحل من حياتها كسجينة مترفة.



الفصل الرابع عشر
العُشبة

صباح اليوم التالي، وقبالة ورشة الحدادة العسكرية الكبيرة، توقف ميست مسدلًا شعره الذي استطال على وجهه، خافضًا نظره إلى الأرض.. كان ينتظر وصول أحدهم ليصحبه إلى داخل الورشة، ولم يتوقع أنْ يأتيه رئيس الحدادين بنفسه مرحبًا به..

- اتبعني! أنا متشوق لمعرفة آلية تصميمك!

تبعه ميست إلى الداخل، ثم اتجها إلى حجرة هادئة حيث ثُبت لوح أسود على الجدار، تناثرت عليه آثار طبشور أبيض..

جلس رئيس الحدادين على مقعد وثير قبالة اللوح ثم أشار لميست: «تفضل! اشرح لي تصميمك!»

وضع ميست الصندوق الذي كان يحمله أرضًا، والذي كان يحوي الحدوات التي صممها، ثم أعاد شعره إلى الوراء كاشفًا عن وجهه.. استل ورقة مطوية كان يخفيها في ثيابه، ثم اقترب من رئيس الحدادين هامسًا: «الأميرة أوفيليا تنتظر مفتاح زنزانتها».

نهض رئيس الحدادين مبهوتًا، وألقى نظرة سريعة إلى النافذة كأنه يتأكد أنه في أمان.. اقترب من ميست ليرد بالهمس ذاته: «ما الذي.. تقوله؟!»

أجاب ميست بينما تلتمع في عينيه نظرة قوية: «لقد قامت الأميرة أوفيليا برسم مفتاح زنزانتها.. وعليك أنْ تنجزه بأقصى سرعة حتى نتمكن من إخراجها».

ابتلع رئيس الحدادين ريقه، ومرت لحظات وهو يفتح الورقة المطوية، يتأمل الرسم الدقيق.

انحنى ميست ليفتح صندوق الحدوات الذي جاء به، ثم اقترب من رئيس الحدادين مردفًا: «أظن بأنّ رسمها دقيق بما فيه الكفاية أليس كذلك؟ هل يمكنني البدء بشرح تصميم الحدوة؟»

رفع رئيس الحدادين رأسه هنيهة يتأمل فيها ميست.. ثم اتسعت عيناه وهو يدرك هويته.. «هل أنت.. الأمير ميست؟!»

ابتسم ميست بزاوية فمه قبل أنْ يجيب: «يسرني أنك تعرفت عليَّ! ويشرفني العمل معك من أجل الوصول إلى أهدافنا المشتركة».

ابتسم رئيس الحدادين بدوره وهو يشعر بموجة من السعادة تغمره، فقد كان على وشك فقدان الأمل بخروج أوفيليا.. مد يده مصافحًا: «الشرف لي أيها الأمير.. ولكن.. لا تقنعني بأنك متحمس لتصنيع حدوة تسهل احتلال مملكتك!»

اتسعت ابتسامة ميست: «بل ستكون الحدوة التي ستعيد جيش آرون من منتصف الطريق».

في البهو الملكي لقصر الرمال، جلس إيدن على عرشه متوترًا وهو يرى ليلاك تقترب بخطواتها البطيئة المترددة.

كانت تتلفت وكأنها لا تصدق أنها عادت إلى قصرها مجددًا.. فالشهور المنصرمة بدت لها كسنوات.. لقد خُيل لها أنّ حياتها كملكة هذا القصر شيء من الماضي السحيق الذي كادت تنساه.

أخفضت بصرها حين اقتربت من عرش إيدن، ثم قالت بصوت خفيض: «أشكرك على منحي هذه الفرصة.. أعترف بأني كنت مخطئة وأنا نادمة بشدة على ما فعلت».

- اقتربي.. أخبرني حارسك بأنك تريدين إخباري عن أمر يخص الحرب القادمة.

اقتربت وهي تمد يدها برسالة ميست الأخيرة.

استل ريجان الرسالة ليقرأها بعينيه.. ثم مررها لإيدن الذي أخذ يتأملها بدوره.. ومرت لحظات من الصمت قبل أنّ يبادر ريجان بالسؤال: «يريد منا الأمير ميست الامتناع عن بدء الحفريات؟! ما صلة هذا الأمر بالحرب؟»

بدت الدهشة على ليلاك للحظات.. فهي تعلم أنّ محتوى الرسالة يناقض ما قاله ريجان للتو.. كادت تطلب منه قراءة الرسالة ثانية.. ولكنها تنبهت إلى حركة حاجبيه وكأنه ينهاها عن الاعتراض.

أردفت: «أنا لا أعرف ما هي الصلة.. ولكني واثقة بأنه يخطط لشيء.. ميست مختبئ في مملكة القمم الدخانية حيث يلاحقه البوم

الهالك من أجل قتله! لن يطلب منا أمرًا كهذا إلا إنْ كان واثقًا مما يفعل.. علينا أنْ نثق به ولو لمرة واحدة!»

قال ريجان بصوته الجهور: «وما أدرانا أنّ ميست يقف إلى جانبنا؟ ربما كان يخدعنا.. لا نملك أي دليل على الحرب التي أزعجنا بها! ولهذا لن نستمع إليه.. سنحافظ على اتفاقنا مع مملكة القمم الدخانية وسنبدأ بالحفريات في أقصى سرعة».

لم ترد ليلاك جوابًا.. فقد أدركت أنّ ريجان افتعل ذلك الرد لسبب ما.. وكان ظنها في محله حين استدعاها إيدن لاحقًا للاجتماع في إحدى الحجرات الخاصة.. حيث لا يسمح للحُراس بالاقتراب.

وهناك، جلس الثلاثة حول منضدة توسطتها رسالة ميست الأخيرة..

بادر إيدن بالحديث: «أظن بأنّ علينا الاستماع لميست حقًا.. ولكن علينا أنْ نتظاهر بعكس ذلك».

رفعت ليلاك حاجبًا متسائلةً؛ ثم جاءها ريجان بالجواب: «لا أستطيع الاطمئنان إلى رجال البوم الهالك.. أنا واثق بأنهم يراقبوننا.. وسينقلبون ضدنا إنْ علموا بتعاوننا مع ميست.. يجب أنْ نتظاهر بالغباء واللامبالاة.. بينما نستعد للمواجهة في سرية».

همست ليلاك بنبرة فيها كثير من الندم: «أنا السبب في هذا.. أنا من أخرجهم من جحرهم».

قال ريجان بحيادية: «نحن أيضًا ارتكبنا خطأ حين لم نستمع لميست.. وهذا لا يقلل من فظاعة الذنب الذي ارتكبتِه باللجوء إلى البوم الهالك.. ولكني واثق بأنّ البوم الهالك بدأ تحركاته منذ زمن.. لا شأن بما فعلتِه مع ظهورهم مجددًا».

تابع: «لقد نصّبوا آرون ملكًا في مملكة القمم الدخانية.. وهم على علم تام باستعداداته لشن الحرب على مملكتنا، فلماذا يسمحون له؟! إنهم ينوون تدميرنا أيضًا.. ولكنهم يريدون لآرون أنْ يقوم بالأمر».

قالت ليلاك بعد هنيهة من الصمت: «إنهم ينصبون مَن يرونه جديرًا.. ويبدو أنّ ذلك الطفل هو الأجدر برأيهم».

رفعت ناظرها إليهما وهي تردف: «لا أعرف ما يميز هذا الطفل.. ولكنه معروف بكراهيته الشديدة لصومعة القضاة.. إنه يؤمن بأنّ الوشوم شر لا بُدَّ من التخلص منه.. ربما لهذا اعتبروه الأجدر بالثقة.. يريدون أنْ يتفردوا بهذا العلم وحدهم.. يريدون أنْ يكونوا الأقوى دُون منافس».

تدخل إيدن الذي بدا غارقًا في أفكاره: «بالطبع لم يعيدوني إلى عرشي لأنهم يرونني الأجدر.. بل ربما لأني أسهل من يمكن خداعه.. اختاروني لأنهم يظنون بأنهم قادرون على سلبي عرشي بأقل الخسائر.. لا أدري كيف لم أفكر بهذا من قبل».

نهض ريجان منهيًا الاجتماع: «لقد مضى ما مضى.. وما يهم هو أننا صرنا على علم بهوية عدونا الحقيقي.. يجب علينا أنْ نعمل معًا

الآن.. وأنا واثق بأننا سنكون قادرين على ردعهم بتعاوننا مع الأمير ميست».

وسط ساحة عسكرية كبيرة.. سار آرون بقامته القصيرة وابتسامته الواسعة.. وكان يشبك ذراعيه خلف ظهره المستقيم.. كأنه قائد عسكري محنك.

لقد مضت قرابة تسعة شهور منذ أنْ استدعى شبان المملكة أجمعين من أجل التدريب القسري.. والآن، يتجول برفقة نايت وعدد من رجاله ليرى صفوف الجنود المتأهبين.. كان مزهوًا بما حقق حتى الآن، فعدد الجنود الذين يشكلون جيشه صار ضعفي عددهم أيام حكم والده. كان الجميع يعلم بأنّ الحرب تقترب؛ بل بدأت.. ولا مجال للتراجع.

كان يوشك على الدخول إلى خيمة الأسلحة حيث يتم عرض ما سيأخذونه معهم حين أوقفه نايت هامسًا في أذنه: «عليَّ أنْ أذهب إلى برج السلاسل.. هل تريد العودة إلى القلعة؟»

أجابه آرون بالهمس ذاته: «بل سأكمل جولتي.. أريد أنْ أتأكد أنّ كل شيء على ما يرام.. ولكن.. ما الذي طرأ في برج السلاسل؟»

- سيسيل.. سجين صومعة القضاة صاحب الوشوم الغريبة.. يقول الحراس أنه فارق الحياة.. أريد أنْ أتأكد بنفسي.

- سيكون العجب بقاؤه حيًّا كل هذه الشهور.. بالتأكيد سيموت تحت التعذيب الذي أخضَعتَه له.

- لا يمكن أنْ يموت بسبب التعذيب.. فقد كنتُ شديد الحرص على أنْ لا يتعرض لما يتسبب بموته أو اختلال قواه العقلية.

- لكنه مات.

- هذا ما يقولونه.. ولهذا عليَّ أنْ أتأكد مِن السبب.

أومأ آرون وهو يتابع سيره، بينما انْسَل نايت بعيدًا عن الموكب الملكي الصغير.. يتجه إلى الإسطبل حيث ينتظره جواده.

كانت بريشيليا تجوب حجرتها ذهابًا وإيابًا، غير قادرة على التوقف عن قضم أظافرها من التوتر.. لقد تخلصت من مجوهراتها وارتدت ثوبًا أسود ساترًا، وعلى شعرها المنعقد في صرة صغيرة، لفت وشاحًا باللون ذاته.. تنتظر الإشارة التي جاءتها أخيرًا من إيفي.

- أميرتي.. لقد نام الحراس!

سارعت بريشيليا بنزول الدرجات بينما ارتمى عند أقدامها حراس برجها نيامًا.. كان الوقت ظهرًا.. وكان الحراس قد عادوا للتو من استراحة الغداء إذ دس الطباخ المخدر.

سارعت بريشيليا وإيفي بالصعود إلى العربة الصغيرة التي كانت تنتظرها عند بوابة البرج.. ثم انطلقت العربة بعيدًا.

قالت إيفي بعد هنيهة من الصمت المشوب بالتوتر: «سيكتشفون أمر هذه العربة قريبًا.. ولهذا سننتقل إلى عربة الخضار التي جهزها ماريون قرب السوق».

أومأت بريشيليا وهي غير قادرة على الشعور بالراحة بعد.. رغم خروجها من سجنها.

- ماذا إنْ لم يتم إخراج جثث برج السلاسل؟

- اهدأي يا أميرتي.. أخبرنا ماريون بأنّ هناك جثتين منذ يوم البارحة.. لا يتم إبقاء الجثث أكثر من يوم كامل.. سيخرج سيسيل معهم اليوم.. لا سبب يدعوهم إلى إخراج الجثث الأخرى وإبقاء جثة سيسيل إلى يوم الغد.. لا تقلقي.. ستنجح خطتنا.. لا يمكن أنْ نفشل بعد كل هذا.

لم تكُن واثقة من شيء حقًا.. ولكنها لا تملك خيارًا آخر.. ولذا قبضت على كفي بريشيليا وهي ترسم على وجهها ابتسامة مُطَمئِنة.. علها تهدئ بها روع أميرتها المضطربة.

في برج السلاسل، وفي زنزانة سيسيل.. وقف نايت عاقدًا حاجبيه يتأمل طبيب السجن وهو يتفقد نبض سيسيل.

كان متأكدًا من غياب علامات الحياة.. ولكنه أعاد الفحص عدة مرات من أجل إقناع نايت.. الذي بدا وكأنه يشكك فيما حدث.

نهض الطبيب ليؤكد ما وجد: «إنه ميت يا سيدي».

سأله نايت: «هل هناك سبب محدد للموت؟»

رفع الطبيب حاجبيه في دهشة وهو يجيب: «بالنظر إلى حال الجثة.. يبدو أنّ هناك الكثير من الأسباب!»

لم يرد نايت جوابًا.. بل بدا مستغرقًا بالتفكير وهو يتأمل الطبيب الذي أخذ يلملم معداته تأهبًا للرحيل.

قاطع الهدوء قدوم أحد الحراس: «لقد جاء الرجال من أجل استخراج الجثة يا سيدي».

ولكن نايت التفت له آمرًا: «لا.. لن يتم استخراج هذه الجثة اليوم.. أود أنْ أحتفظ بها».

تبدت أمارات الاستغراب على وجه الحارس، ولكنه لم يجادل، أردف قبل أنْ يبتعد: «كما تأمر يا سيدي.. سأخبر الرجال بذلك».

اقترب نايت من الطبيب الذي كان يوشك على الخروج، استوقفه هامسًا: «أريد منك معروفًا».

- تفضل يا سيدي.

- لا شك أنك لاحظت الوشوم الغريبة التي تنتشر على هذه الجثة.. ولا شك أنك لاحظتَ أني حرصتُ على عدم إفسادها رغم التعذيب الذي خضع له هذا السجين.

رفع الطبيب عينيه متسائلًا...

تابع نايت: «أريد أنْ أحتفظ بهذه الوشوم.. ولكني لا أستطيع أنْ أوكل مهمة سلخ جلده لجلادي السجن.. فهم سيفسدون تلك النقوش.. أريد أنْ يتم الأمر باحترافية».

في البهو الملكي لقلعة القمم الدخانية.. جلس آرون على عرشه بينما تبدت نظرات الغضب من عينيه إثر النبأ الذي استجد فور عودته: «كيف يمكن أنْ تهرب الأميرة بريشيليا؟! حمقاء مثلها تخدعكم! لا أصدق هذا!»

توقف حراس البرج أمامه مطرقي الرأس.. نطق أحدهم: «لقد تم دس مخدرٍ في طعامنا أيها الملك.. يبدو أنّ للأميرة حلفاء».

تدخل نايت: «لا تخبرنا بما هو جليّ للجميع أيها الحارس! ولكن كيف يمكن أنْ تنجح الأميرة في ذلك؟! ألم يلحظ أي منكم ما يريب؟! مَن رتب لنقلها؟! من خدّر الحراس؟! لا بُدَّ أنها كانت تخطط للأمر منذ مدة طويلة! وأنتم لم تلاحظوا أي شيء!»

لم يرد الحراس جوابًا.. تدخل آرون مجددًا ليصيح فيهم: «تعلمون أني سأنطلق مع الجيش بعد يومين.. هل سنعود لنجد الأميرة أوفيليا هاربة أيضًا؟! أنتم مجرد حفنة من عديمي الجدوى.. سأوكل بحراسة زنزانة الأميرة أوفيليا لرجال البوم الهالك».

ثم التفت إلى نايت وهو يقول آمرًا: «أريد منك أنْ تحظر مرور الحراس من عند زنزانة الأميرة أوفيليا.. ينبغي أنْ نوكل أحد رجال البوم الهالك بحراستها على مدار اليوم.. سترغب الأميرة أوفيليا باستغلال غيابي وأنا أدرك هذا جيدًا! ولذلك علينا أنْ نتأهب ونمنع أي محاولة!»

قال نايت في حزم: «هذا ما كنتُ أفكر فيه أيضًا أيها الملك.. يجب أنْ يتم اتخاذ أشد إجراءات الحراسة على زنزانة الأميرة أوفيليا في

أثناء غيابنا.. ولكن.. ماذا نفعل إزاء الأميرة بريشيليا؟ هل نرسل مَن يبحث عنها؟»

أجاب آرون بنبرة أهدأ قليلًا: «قد تكون بريشيليا هربت بتحالفها مع الخدم والحراس.. ولكنها غير قادرة على مس العرش.. لا أريد أنْ أشتت رجالي الآن.. اتركوها تنعم بالهرب في أي جحر اختارته.. سنبحث عنها حين نتفرغ لذلك».

تدخل نايت: «لا أظن أنّ من الصواب تجاهلها أيها الملك.. لقد تمكنت من الهرب بسبب استخفافنا بها.. ربما علينا أنْ نقبض عليها قبل أنْ تفاجئنا بحركة أخرى».

أطلق آرون زفرة عميقة وهو يقول بصوت أهدأ وأكثر صرامة: «أنا أؤيدك.. لقد أخطأنا حين استخففنا بها.. ولكن الوقت الآن غير مناسب.. يجب أنْ يتمركز رجال البوم الهالك في القلعة وبرج السلاسل.. يمكنك إرسال فرقة من رجال القلعة للبحث عنها.. ولكني لا أريد أنْ يتدخل رجال البوم الهالك في أمر تافه كهذا».

أومأ نايت، ثم استأذن مَلِكه للانصراف وتوجيه الأوامر الجديدة.

قبيل مغيب الشمس، جلس الطبيب في عيادته الخاصة وهو يجهز أدواته، يجب أنْ ينجز المهمة التي أوكله بها نايت قبل أنْ تبرد الجثة.. كانت جثة سيسيل ترقد على طاولة أشبه بطاولة التشريح، في وسط القبو الذي خصصه الطبيب لهذا الغرض في عيادته.. وعلى طاولة

جانبية، أخذ يرتب أدواته.. سمع صرير الباب وهو يقفل، ولم يلتفت، بل رفع صوته متسائلًا: «هل أحضرتَ المحاليل التي طلبتها منك؟»

اقترب مساعده وهو يجيب: «نعم.. إنها جاهزة».

- هل أقفلتَ العيادة؟ لا ينبغي أنْ يقاطعنا أحد.

- أقفلتُها يا سيدي.

قالها وهو يستل محقنًا كبيرًا، يملأه من إحدى الزجاجات.. ثم اقترب المساعِد من الجثة وأسرع بإفراغ المحقن كاملًا في عضلة الفخذ.

التفت الطبيب منعقد الحاجبين: «تمهل! لا ينبغي أنْ يتم إفراغه في العضل! كيف يمكن أنْ ترتكب خطأً كهذا؟! ظننتُ أنك تعر...».

ولكن مساعِده حدجه بنظرة طويلة جعلت الطبيب يتوقف عن توبيخه..

اقترب مساعده ليقول في جدية: «إنه حَيّ.. لقد تناول عشبة مُرخية للعضلات أضعَفَت من نبضاته إلى الحد الذي لا يتم فيه كشف وجودها.. ولكني حقنته للتو بما يعاكس عمل العشبة، وذلك حتى لا يموت فعلًا».

- مـ.. ماذا؟! هل تم تزييف موته؟! ينبغي أنْ نخبر نايت.

- بل سنسمح له بالهرب.. إنّ الأميرة بريشيليا تتدبر هذا الأمر.. يجب أنْ ندعمها عوضًا عن دعم أولئك القتلة.

- الأميرة بريشيليا؟! ماذا يمكن أنْ تفعل الأميرة بريشيليا وهي سجينة في برجها؟!

- لقد هربَت.. وستأتيك الأنباء قريبًا.

أطلق الطبيب نفسًا عميقًا قبل أنْ يردف: «حتى إنْ كان هذا صحيحًا.. الأميرة بريشيليا لا يمكنها حمايتنا! سيعاقبنا نايت إنْ ساعدْنا بهروب هذا السجين!» ثم نقل ناظره إلى تلك الطاولة حيث لمح حركة ذراع سيسيل وهو يحاول النهوض.

كان يبدو كجثة حقيقية فعلًا.. وسرت في جسد الطبيب رعشة إثر منظره.. فرغم اعتياده المناظر البشعة.. لكنها المرة الأولى التي يرى فيها شخصًا يبدو بهذا السوء ورغم ذلك يستطيع الحركة!

ألقى المُساعِد كومة من الثياب على سيسيل وهو يقول في جدية: «ارتدِ هذا بسرعة.. يجب أنْ نرحل!»

كاد الطبيب ينطق.. ولكن مساعدِه سارع بعقد قطعة قماشية حول معصَمَيه وكاحلَيه، تبعها بقطعة قماشية سد بها ثغره ليمنعه من الصراخ وطلب النجدة.

همس له قبل أنْ يخرج برفقة سيسيل: «أنا آسف على هذا حقًا.. ولكني لستُ جبانًا مثلك.. أريد أنْ أسهم ولو بجزء بسيط في التخلص من هؤلاء القتلة.. يجب أنْ أدعم الأميرة بريشيليا».



الفصل الخامس عشر
الصهباء

انتظمت صفوف الجند المهيبة إثر انطلاق الصفير من بوق قائدهم.. كان أغلبهم من الفرسان.. فقد تقرر أنّ تتبعهم الكتائب لاحقًا، بعدما يتم شق طريق آمن لهم.

لم يستطع آرون إخفاء ابتسامته الواسعة وهو يقف على رأس الجيش، يتأمل صنيعه وصنيع نايت الذي تولى قيادتهم.

صاح نايت وهو يسير في محاذاة الصفوف: «سيُسَطّر التاريخ هذا اليوم كبداية لبناء مجد جديد نفخر به! تزخر مملكة الصحاري بعديد من الثروات التي لا يجيد ملِكها المعتوه استخدامها.. ولذلك يجب أنّ نتولى أمر إدارة مملكته! سنقضي على الضعف والجهل والفوضى وسنحكم العالم بأسره بالقوة والنظام!»

تابع نايت سيره خطوات عدة قبل أنّ يتوقف ليصيح مجددًا: «لقد قضينا بنجاح على الفوضى التي كانت تنشرها صومعة القضاة هنا.. وحان الوقت لنقضي على الفوضى التي تسبب بها إيدن المعتوه!»

تدخل آرون ليصيح: «سنحكم العالم بالقوة والنظام!»

تبع صيحته صيحة جموع الجند مرددين ما قال وكأنه شعار هذه الحرب: «سنحكم العالم بالقوة والنظام».

ثم شقوا طريقًا من بينهم ليمر آرون ومن خلفه رجاله.. كان آرون يشعر بزهو طالما حلم به.. اليوم سيبدأ بتحقيق أمنيته.. أنْ يكون الملك الأقوى.. أنْ يجرد الجميع من قواهم وأنْ يملك وحده كل القوة.. أنْ يحكم العالم برمته بقوة السيف وحده.

وعلى جواد أسود قوي مدجج بالدروع، صعد آرون الذي كان بدوره يزن ضعف وزنه من الطبقات الفولاذية التي غطت صدره وبطنه وفخذيه.

سار إلى جانبه نايت، ومن خلفهم استدار جمع الفرسان ليبدأوا المسير إلى مملكة الصحاري.

في كهف صغير على الجانب الشرقي من سلسلة جبال القمم الدخانية، جلست بريشيليا منكمشة على نفسها، تتدثر بملاءة من الصوف بينما همّت إيفي بإشعال نار صغيرة عند المدخل، علها تبث بعض الدفء.. وقبل أنْ تتم عملها، اتسعت ابتسامتها وهي تلمح القادمَين.. هبت جريًا إلى داخل الكهف لتبشر أميرتها: «لقد نجحوا بإخراجه يا أميرتي.. سيسيل هنا!»

نهضت بريشيليا كالمفزوعة ولكن قدميها تجمدتا حين اقترب سيسيل وهو يتكئ على مُساعِد طبيب البرج.. ابتلعت ريقها وهي تحاول استيعاب الصلة بين سيسيل الذي تعرفه وبين الهيكل العظمي

الذي تراه أمامها.. هل كانت عيناه مفتوحتين أم مغلقتين؟! لا يمكنها تبين ذلك! كانت عينيه أشبه بكُرَتَين جاحظتين غائرتين في السواد.. وكانت عظام وجنتيه بارزة.. ومنابت شعره دامية متورمة.. آثار لأسلاك ووخزات في رقبته.. وكدمات متباينة الألوان.. وبلا شعور، تدفقت دموعها غزيرة على خديها.

جثا مُساعد الطبيب جوار سيسيل الذي أسنده إلى الجدار، ثم همَّ بفتح حقيبته ليخرج بعض الحقن: «لا تقلقي يا أميرتي.. سيتعافى.. ولكن يجب أنْ يبقى هنا ويخضع للعلاج.. إنّ بعض جروحه ملوثة، وقد تتفاقم حالتها.. وأيضًا، علينا أنْ نجد حلًا له ليأكل.. فجسده يرفض الطعام.. لقد استفرغ كلما ما وضعتُه في فمه في اليومين المنصرمين.. لا أدري ماذا كانْ نايت يطعمه، ولكن يبدو أنّ جسده تأقلم على ذلك الغذاء فقط خلال الشهور المنصرمة».

تقدمت بريشيليا بخطواتها المترددة لتجثو جواره، همست: «سيسيل.. هل تعرف مَن أكون؟»

رفع عينيه إليها.. ثم همس بكلمات متقطعة: «الأميرة.. بريشيليا».

ابتسمت: «رائع.. أنت تتذكرني!»

ولم يرد جوابًا.

- ستكون بخير يا سيسيل.. صدقني.

ولكنه كان قد أغلق عينيه مجددًا كأنه خلد إلى النوم.

تدخل مُساعد الطبيب: «لم يكُن نايت يسمح له بالنوم.. وكان نومه متقطعًا على مدار اليوم.. ينام دقائق قليلة فقط.. لهذا يحتاج بعض الوقت حتى يعتاد مجددًا على النوم ساعات متواصلة».

أومأت بريشيليا متفهمة، ثم نهضت لتجلس قرب النار التي نجحت إيفي بإشعالها.. تمتمت بعد وهلة من الصمت: «أريد أنّ أستعيد عرشي».

قالت إيفي: «ستفعلين يا أميرتي.. سنتخلص من هؤلاء القتلة.. وستكونين الملكة».

- وسيكون إعدام نايت أول ما أفعله.. وسيتم ذلك بأبشع ما يمكن.

في برج السلاسل، وفي زنزانتها، جلست أوفيليا ترمق حراس زنزانتها الجدد.. وأدركت أنّ هؤلاء تم اختيارهم خصيصًا لتضييق الخناق عليها خلال غياب آرون ونايت.. اقتربت من قضبان الزنزانة لتشير إلى الواقف قبالتها، همست: «ما اسمك؟»

كان غير ملثم كعادة البوم الهالك، فقد تم توجيه الأوامر لهذه المجموعة بكشف وجوههم وذلك حتى يعرفهم الجميع كحراس زنزانة الأميرة أوفيليا.. ولتجنب احتمالية أنّ يحل محلهم حراس آخرين.

أجاب بعد هنيهة من الصمت: «لا ينبغي لي أنّ أحدثك بغير ضرورة أيتها الأميرة.. أرجو أنّ تحافظي على القواعد حتى لا يُعاقَب أحد».

- هل تتعرضون للعقاب أنتم أيضًا؟ ظننتُ أنكم سادة هذا العالم.

اقترب ليهمس في صرامة: «لا تحاولي أنْ تلعبي أي ألاعيب معي.. اخرسي وحسب».. ثم استدار ليعطيها ظهره ويتجاهلها.

حل صمت قصير.. ثم اقتربت من القضبان لتهمس من وراء ظهره: «أنا لا ألعب الألاعيب التي أدرك ألا جدوى من ورائها.. لكنني أحتاج كتبي.. أريد منك أنْ تحضر لي كتبي.. كان الحراس السابقون يفعلون هذا لكنهم رحلوا».

- لا يسمح لشيء سوى وعاء الطعام والفضلات بالمرور من زنزانتك.. لعلمِك، مفتاح زنزانتك مع نايت.. وهو خارج المملكة الآن.. مِن المستحيل أنْ يتم فتح باب زنزانتك لأننا ببساطة.. لا نملك المفتاح.

- مَن تحدث عن باب الزنزانة؟! هل تظنني أريد مساعدتك لأهرب؟!

- بالطبع تريدين الهرب.. لقد تم تحذيرنا ولن نسمح بخرق التعليمات.

أطلقت زفرة عميقة وهي تردف: «ما أريده واضح.. أريد كتبي! ألا يمكنني أنْ أقرأ في زنزانتي؟! كيف يمكن أنْ تؤدي حفنة من الكتب إلى هروبي؟! لا أريد منك سوى تمرير عدة كتب من بين القضبان! يمكنك تفحص الكتب كما تشاء أو حتى تمزقها وتمررها كأوراق منفصلة لتطمئن!»

لم يرد جوابًا، همست مجددًا: «أنت لا تريد إسداء خدمة بسيطة كهذه لي! فليكن.. ماذا لو جعلناها صفقة؟ ستأتي لي بالكتب من مكتبة القلعة وقتما أريد.. وبالمقابل أعطيك شيئًا يهمك جدًّا».

- لا يهمني سوى بقائكِ هنا حبيسة إلى حين عودة الملك.

- سأعطيك الأمير ميست.. سأمنحك شرف القبض عليه من بين جميع البوم الهالك.

- والآن تكذبين.. يبدو أنكِ لا تدركين كم تبدين تافهة بهذه المحاولات.

- لقد منحتك فرصة عظيمة وأنت رفضتها.. وحكمتَ عليَّ بالكذب رغم أنك لم تحاول تبين الأمر حتى.

- وهل من طريقة لتبين الأمر؟! أعني.. طريقة غير إرسالي إلى فخ مُعَد سلفًا؟!

- لن أرسلك إلى أي مكان! سآتي بميست إلى هنا.. وستقبض أنت عليه.. لن تخسر شيئًا.. ولن تخاطر بشيء.. فأنا حبيسة في كل الأحوال.

- لا يمكن أنْ أبتلع أنكِ تبيعين الأمير ميست من أجل حفنة من الكتب.. وإنْ كنتِ صادقة.

- وهل تظنني بحاجة إليه حقًا؟ أي قوة يملك؟! إنه لا يملك شيئًا.. بل يتمسك بي كأمله الأخير.. أنا نفسي لا أملك من أمري شيئًا وقد سئمتُ لجوءَه إليَّ.. لكن ما زلت قادرة على الاستفادة منه كطُعُم للحصول على أبسط حقوقي.

لم يرد جوابًا، بل عاد ليتجاهلها.

تراجعت بخطواتها لتجلس على حافة سريرها بينما ارتسمت على وجهها ابتسامة خافتة.. تدرك أنها أقنَعَته، ولذلك ستمنحه المزيد من الوقت ليستجمع شجاعته ويخبرها بموافقته على الصفقة.. صحيح أنه من البوم الهالك، لكنه مجرد بشريّ جشع بعد كل شيء.. وسيرغب في الاستئثار بشرف القبض على ميست.

جلس آرون على صخرة ملساء بجوار نار استوقدوها للطهي وسط مخيم مؤقت أقاموه للاستراحة.. لقد مر خمسة عشر يومًا منذ بدأوا مسيرهم.. وتبقى قرابة عشرة أيامٍ على بلوغهم مشارف مملكة الصحاري.

قال آرون مخاطبًا نايت الذي كان يجلس جواره، يهم بتقشير بعض حبات البطاطس التي تم شيها: «إنّ الجو حار جدًّا هنا.. هل سيسوء أكثر؟»

أجابه نايت: «نعم أيها الملك.. مملكة الصحاري تتميز بمناخ صعب جدًّا.. إنه شديد الحرارة.. لا سيما في هذا الوقت من العام».

- هل تتصور أنْ يتحمل الجنود الحرارة؟

- سيتحملونها.. لا تخشَ من هذا أيها الملك.. من بعد هذا المخيم، سيكون علينا الاختيار بين طريقَين.. الأول يُدعَى سهل الغزلان.. وهو أرض منخفضة نوعًا ما، تتمتع بمناخ

أفضل من سواها.. والآخر يُدعَى بوادي الكبريت.. وهو أعلى المناطق المعروفة ارتفاعًا في الحرارة.

- أعلم هذا.. ولكني ظننتُ بأنّ خيارنا سيكون واضحًا.. هل ترى سببًا قد يدفعنا لاختيار وادي الكبريت؟

- لا أظن، ولكن علينا نتخذ هذا القرار بعد عودة الكشافة.. لا بُدَّ أنْ نتأكد أنّ سهل الغزلان آمن.. فكونه الطريق الأسهل، يعني أنّ العدو قد توقعه.. وقد يكون نصب لنا شركًا هناك.

- وقد يكون العدو سبقنا بخطوة أخرى وأعدَّ لنا فخًا في وادي الكبريت.. فلننتظر الكشافة ونقرر بناءً على معطياتهم.

أومأ نايت، ثم قضم قضمة من قطعة البطاطس في يده بينما يتأمل النيران التي انعكست في مقلتيه.

لقد أصبح سيسيل قادرًا على الخروج من الكهف.. فقد بدأ يأكل.. واستعاد بعض الوزن.. وكانت صومعة القضاة أول وجهة أصر على زيارتها بعد تحسنه.

لم يرضخ لاعتراض بريشيليا وإيفي.. فقد كان يحتاج بعض الأدوات التي يخبئها في قبوه.. ورغم اعتراض بريشيليا ووصيفتها، فإنهما أصرا على مرافقته بعد أنْ فشلا في ثنيه عن الذهاب.

كانوا يرتدون ثيابًا تخفي معالمهم، ووسط الأنقاض التي كانت تُدعَى بالصومعة، أخذوا يتجولون، متجهين إلى القبو الذي كان

يسكن فيه سيسيل.. كان باب القبو ما يزال على حاله، وإنْ كان غير مقفل.

لقد زحف الغبار على العتبة، وأصدر الباب صريرًا يوحي بالقِدم حين دفعه سيسيل.. وفي الداخل تسمر للحظات وهو يحاول تبين ما يرى إثر ضوء الشمس الخافت المُتَسَلِّل من النافذة العلوية.. ولم يستطِع أنْ يمنع الصدمة التي ارتسمت على وجهه.

كانت جثة فيولا معلقة وسط الحجرة، وأسفل منها كرسي خشبي انقلب على جانبه.. وكان واضحًا أنّ مشنقتها تم إعدادها ببدائية وغير خبرة، كان واضحًا أنها مَن أعدَّ مشنقتها.. لقد قتلت نفسها.

- مـ... مَن هذه الفتاة؟

كانت تلك بريشيليا التي تساءلت بعد تردد.. وأدركت أنّ سيسيل يحاول السيطرة على مشاعره إثر هذه الصدمة.. فقد كان يتنفس بقوة.. رغم أنه سرعان ما أشاح ببصره وكأنه لم يرَ شيئًا.

عادت بريشيليا تسأل: «سيسيل.. مَن هذه الفتاة؟!»

أجاب بكلمات مختنقة وكأنه مجبر على استخراج هذه الكلمات: «إنها.. زوجتي».

- أنت.. كنتَ متزوجًا؟!

- لقد.. قتَلَت نفسها بسببي.. أنا مَن أجبرها على هذا.

بدت الأمور أكثر وضوحًا لبريشيليا وهي تتذكر زيارة فيولا لسيسيل في زنزانته.

- لكن.. لماذا فعَلتَ ذلك؟ هل كان لك أسباب؟

- لقد كانت فتاة كاذبة ومتقلبة.. ولقد تسبّبَتْ في اختفاء شقيقتي.. بسببها ماتت شقيقتي الصغيرة.. ولكنها كانت مجرد فتاة يتيمة ومريضة.. كانت تحتاج إليّ.. وكنتُ عائلتها الوحيدة.. ولكني لم أتوقف لحظة للالتفات لها.. لقد كانت فيولا فتاة بائسة مثيرة للشفقة.. هذه هي حقيقتها.. مجرد بائسة مثيرة للشفقة.. ورغم إدراكي هذا، هددتُها بالقتل ودفعتُها للانتحار.

كان قد شعر بشيء من الراحة حين أفصح عن مشاعره المكبوتة تجاه فيولا.. ولم يدرِ لِمَ لا يشعر بأي ذنب رغم إدراكه أنه السبب..

تسمرت بريشيليا وهي تفكر في الجوانب التي لم تعرفها عن سيسيل من قبل.. فهذا الشاب الذي أُعجِبَت به وخاطرت بنفسها لأجل إنقاذه، يعترف أمامها بأنه دفع زوجته المسكينة للانتحار! ودار في خلدها حديثها مع إيفي سابقًا، عن حقيقة سيسيل التي لا تعرف عنها شيئًا.

تجاوز الجثة ثم اتجه إلى بعض الصناديق في زاوية القبو، ينفض عنها الغبار ليبحث عن الأدوات التي جاء من أجلها.

مرت لحظات من الصمت الثقيل، خرقتها بريشيليا أخيرًا وهي تقترب منه لتقول بنبرة تشي بالحزن: «هل ستفعل هذا بي أيضًا؟»

توقف عن بعثرة الحاجيات من الصندوق.. التفت دُون أنْ تلتقي عينيه بعينيها: «أفعل.. ماذا؟»

- هل ستجحد حبي لك وتضحيتي من أجلك؟ هل ستتجاهلني كما تجاهلتَ تلك المسكينة؟ حين أفكر في الأمر.. أجد أنّ هذا ما كنتَ تفعله بالفعل منذ لقائنا الأول.

توقفت هنيهة تبتلع ريقها، ثم تابعت بنبرة أقوى: «يبدو أنّ هذه طبيعتك.. أنت مجرد وغد أناني بعد كل شيء».

بدا مترددًا قبل أنْ يرد: «ثقي بأني لن أنسى ما فعلتِه من أجلي.. لقد أنقذتِ حياتي.. وأعدكِ بأنني سأتذكر ذلك ما حييت».

- أنا لا أريد منكَ أنْ تتذكر! أريد منك أنْ تكون مدينًا لي بحياتك.. وأنْ تعيش حياتك من أجلي أنا لا من أجل نفسك ومصالحك فقط! هل تفهم؟ لن تجحدني ولن تتجاهلني أبدًا!

التفت لتلتقي عينيه بعينيها: «سأكون مدينًا لكِ بحياتي.. ولن أجحدك.. لن أتجاهلك».

بدا من عينيها وكأنها غير قادرة على تصديقه، عاد ليقول مؤكدًا: «ربما كان تجاهل الجميع طبيعتي فعلًا.. لكنكِ ستكونين الاستثناء الوحيد.. أعدكِ بهذا».

في برج السلاسل، اقتربت أوفيليا من قضبان زنزانتها إثر إشارة حارسها الذي عرضت عليه الصفقة سابقًا.

همس: «أنا أوافق على صفقتك.. ولكن يجب أنْ تسلميني ميست أولًا».

ابتسمت وهي ترد بالهمس ذاته: «لك ذلك.. ولكن كيف ستقبض على ميست في وجود رفاقك هنا؟ لا يمكنني أنْ أرتب للأمر في مكان آخر من البرج».

- أستطيع تدبر غيابهم.. ولكن لفترة قصيرة جدًّا.

- هذا أمر عائد إليك.. ولكنك لن تحتاج الكثير من الوقت.. فميست سيأتي كزائر.. وسيكون أعزل لأنه سيُفَتّش كأي دخيل.. سيكون من السهل أنْ تقبض عليه وحدك.

- ولكن متى سيأتي؟!

- لا أعلم.. فنحن لا نتراسل.. لكنه لم يأتِ لزيارتي منذ زمن طويل.. وأظن بأنّ زيارته القادمة قريبة جدًّا.. بالتأكيد سيرغب باستغلال غياب الملك.. عليك أنْ تتأهب عند قدوم أي زائر لرؤيتي، ولكن لا يمكنك أنْ تقبض عليه حتى أؤكد لك هويته.

- سيكون من الصعب التأهب لهذا، ولكني سأحاول.

- اتفقنا.

همس بعد هنيهة من الصمت: «النِّمْس».

- ماذا؟

- سألتِني عن اسمي سابقًا.. اسمي هو النِّمْس.

ابتسمت: «تشرفتُ بمعرفتك أيها النمس».

صباح اليوم التالي، وقف آرون ونايت وسط خيمة صغيرة من ضمن المخيم الذي باتوا فيه مع بقية الجُند الليلة الفائتة.. وكان يستمع إلى رجال الكشافة الذين عادوا من رحلتهم القصيرة.

- سهل الغزلان أفضل حالاً بكثير من وادي الكبريت.. فالحرارة فيه أخفض والأرض منبسطة مناسبة للخيول.. ولكن...

رفع الكشاف عينيه إلى نايت وهو يردف: «هناك عُمال كثر يعملون على حفريات عميقة.. لن نستطيع العبور من هناك بسلاسة.. سنضطر إلى ردم هذه الحفريات لنعبر من بعض المناطق.. وربما نضطر إلى الاشتباك مع العُمال إنْ لم يتعاونوا معنا».

تساءل آرون: «إنّ إيدن يعلم بأنّ والدي لا سلطة له على أي شيء.. ورغم ذلك يبدأ بمشروع القناة المائية الذي اتفقا عليه مسبقًا؟! لمَ يهدر موارده على مشروع لن يجني منه شيئًا؟ ما أدراه بأني سأسمح بتوجيه شلالات القمم الدخانية لتصب في قنواته؟!»

قال نايت: «إنه مجرد أحمق.. لقد وردتني رسالة مفادها أنه باشر الحفريات عنادًا في شقيقه ميست.. لقد طلب منه ميست أنْ يوقف هذا المشروع من أجل التفرغ للحرب.. وكان رد فعل نايت أنْ أنكر هذا وقرر مباشرة الحفريات».

- كنتم موفقين فعلًا حين منعتم محاولة انقلاب زوجته على حكمه.. كنا سنكون في موقف مختلف تمامًا لو أنّ من يجلس على ذلك العرش هو ميست أو ليلاك.

حل صمت قصير قبل أنّ يردف آرون: «ما رأيك بشأن الطريق الأنسب يا نايت؟ هل نختار سهل الغزلان؟»

- أريد أنّ أسمع رأيك أولًا أيها الملك.

قال آرون بعد هنيهة من التفكير: «لا أحبذ التدخل لإفساد المشروع.. فهذه القناة هي إحدى مشاريعنا بعد السيطرة على مملكة الصحاري.. ينبغي أنّ ندع العمال يتابعون عملهم.. يجب أنّ ينجزوا بقدر ما يستطيعون ليكون استكمال المشروع أسهل وأقل تكلفة».

ابتسم نايت: «هذا ما كنت أفكر فيه أيضًا.. يجب أنّ لا نفسد عملهم.. يجب أنّ نسلك وادي الكبريت».

التفت نايت إلى الكشاف وكأنه يطلب رأيه، أجاب الأخير: «وادي الكبريت لا يبدو بذلك السوء.. عيبه الوحيد حرارته العالية جدًّا.. ولذلك علينا أنّ نتخذ احتياطاتنا حتى لا يصاب جنودنا بسوء».

قال آرون: «استدعِ طبيبنا وفرقة الإغاثة يا نايت.. علينا أنّ نجتمع لنناقش أفضل سبل الحماية من أجل عبور وادي الكبريت».

مرت ثلاثة أيام منذ اتفاق النمس وأوفيليا.. واليوم، جاءها ليخبرها بأمر الزائر الذي جاء يسأل عنها أخيرًا.

همس لها من وراء القضبان: «إنها امرأة.. سآمرهم بصرفها».

- لا! أنت لا تعرف ميست حقًا.. لقد زارني في المرة الأخيرة متنكرًا على هيئة امرأة.. يجب أنّ أراها لأتأكد.

أومأ، ثم تقدم بخطواته هامسًا لرفاقه، يخبرهم بالاستدعاء العاجل من قِبل رئيس الزنزانة.. والذي ينتظرهم في حجرة الاجتماعات التي تبعد طوابق قليلة من هذه الزنزانة.

بدت أمارات العجب على وجوههم، تساءل أحدهم: «ماذا عن زنزانة الأميرة أوفليليا؟ لا يمكن أنْ نترك مواقعنا».

- سأبقى هنا حتى مجيء فرقة الحراسة البديلة ثم أتبعكم.. لا أعلم عن سبب هذا الاستدعاء العاجل.. لكن يبدو أنّ الرئيس يملك سببًا.

لم تكُن المرة الأولى التي يستدعيهم فيها الرئيس.. وإنْ كانت المرة الأولى التي يستدعيهم فيها قبل قدوم فرقة الحراسة البديلة.. لكنهم سارعوا بالخروج.. أما النمس.. فوقف منتظرًا لحظات حتى يبتعدوا.. ثم خرج مسرعًا ليأتي بالزائرة المتدثرة بالثياب الثقيلة.. دفعها إلى قبالة زنزانة الأميرة أوفيليا وهو يزيح الوشاح الذي كانت تلف به رأسها.. وانكشف شعرها الأحمر القصير.. ووجهها الدائري الممتلئ.

عاد ليقول: «إنها امرأة! كيف يمكن أنْ تكو...».

ولم يكمل عبارته.. فقد التفت غاضبًا حين لمح قدوم أحد الحراس.. كان حارسًا عاديًا من حراس البرج.. وليس من ضمن جماعة البوم الهالك.

صاح فيه النمس: «كيف جئتَ إلى هنا؟! ألا تعرف أنّ هذه المنطقة محظورة على الحُرّاس؟!»

كانت ملامح هذا الحارس مميزة.. له لون نحاسي محترق.. وشعر أسود تدلى على جانبي وجهه.. ونظرات قوية جريئة.. ولم يكد النمس يلحظ كل ذلك.. حتى التف حول رقبته حبل رفيع قوي، فاجأته به الصهباء من ورائه.. من أين أتت بذلك الحبل؟! كانت ترتديه كحزام.. ولكن النمس هوى أرضًا قبل أنّ يعرف هذا.

وفي أثناء ذلك، اندفع ميست ليخرج المفتاح الذي استلمه من رئيس الحدادين منذ فترة وجيزة.. ثم أدخله في قفل الزنزانة.. ليُفتح بسلاسة وكأن هذا مفتاحه الأصلي.

رمت الصهباء غطاءً للرأس على أوفيليا بينما أخذ ميست بلف السلسلة التي استلها من حزام النمس حول معصمها، وبكل هدوء، خرج متظاهرًا بأنه مجرد حارس يقود أحد السجناء.. ومن المخرج الآخر، فرت الصهباء.



الفصل السادس عشر
الخيانة

في صمت تام خيّم على موكب الجُند المُرهقين إثر شمس منتصف الظهيرة الحارقة، شعر آرون برؤيته تتذبذب.. كان نايت قد لاحظ هذا، ولذا وضع آرون على جواده ليدعمه ويتولى القيادة.

كان نايت يشعر بضربات قلبه المتسارعة، وكان العرق قد غطى وجهه، كما غطى وجوه بقية الفرسان.. ورغم ذلك، صاح ليبعث فيهم بعض العزم: «لقد تجاوزنا منتصف الوادي.. لم يتبقَ سوى القليل.. هذه هي المنطقة الأصعب.. إنّ تجاوزناها سنكون قد تخلصنا من أصعب العثرات في رحلتنا».

لم يرد الجُند جوابًا، فقد كان الصمت من ضمن تعليمات فرقة الإنقاذ قبل البدء بعبور هذا الوادي.. ولذلك ليحافظوا على طاقتهم بكل الطرق الممكنة.

وانطلق صهيل أحد الأحصنة ليرمي الفارس الذي امتطاه أرضًا.

التفت نايت ليعرف ما حدث، ولكنه لم يكد يفعل ذلك حتى ارتفع صهيل بقية الأحصنة، وكأنها أصيبت بالجنون.. رامية الفرسان

أرضًا وهي تجري فزعة.. وانطلقت صيحات الجُند أيضًا إثر الإصابات التي تسببت بها الأحصنة.

كان نايت يتلفت في صدمة وهو يفكر على عجل، وسارع بالترجل عن جواده والجري بعيدًا حاملًا آرون بين ذراعيه.

- انسحبوا! ترجلوا عن أحصنتكم وعودوا إلى المخيم! انسحبوا حالًا!

أخذت صيحات الانسحاب تتردد، ولم يفلح سوى نصف الجُند بالابتعاد دُون إصابة تُذكر.. أما الأحصنة، فقد هربت بعيدًا ليفقدوا أكثرها.

وبينما كان نايت يبتعد، لمح الشرارات التي كانت تنطلق من حوافر الأحصنة.. لتسبب ذعرهم.. لم يدرك من أين أتت تلك الشرارات.. ولكنه سيعرف لاحقًا أنها حدثت بفعل انفصال جزء من حدوة الحصان حيث تسربت برادة حديد تم تخبئتها بين جزئي الحدوة.. وإثر الحرارة الشديدة، تفاعلت مع الرمال الكبريتية لتنتج تلك الشرارات.

في حانة صغيرة على أطراف العاصمة، دلفت أوفيليا التي ما زالت تغطي رأسها بذلك الغطاء، برفقة ميست الذي حيَّاه صاحب الحانة من بعيد كأنه يرى وجهًا يألفه.

رد ميست التحية بإيماءة ثم صعد الدرجات إلى الطابق العلوي، ومن خلفه تبعته أوفيليا.. ثم دلف الاثنان إلى حجرة استقبلهما فيها الأعور.

ارتسمت على وجهه ابتسامة وهو يقول: «أهلًا بكِ أيتها الملكة.. أنا سعيد حقًا لرؤيتك».

ابتسمت بدورها: «وأنا سعيدة لرؤيتك أيضًا».

- أرجو أنْ تتحملي المكوث هنا لبعض الوقت.. وسآتي لآخذك بعد أنْ يتم تطهير بهو القلعة.

- هل كل شيء جاهز؟

- نعم.. لقد عقدت اجتماعي مع قادة الكتائب.. وهم متأهبون لمحاصرة القلعة وتصفية رجال البوم الهالك.

- هل تثق بهم؟

- أنا القائد البديل لنايت.. وكنت أتولى بنفسي تنظيم فرق الجيش.. لقد اخترت أكثر الرجال أهلًا لثقتنا ليكونوا ضمن الكتائب.. في كل كتيبة هناك مَن يتمنى أنْ يقضي على البوم الهالك في أقرب فرصة.. ستتكدس جثثهم هذه الليلة.. لا يمكن أنْ يتغلبوا على الكتائب مهما بلغوا من قوة، ففارق العدد كبير جدًّا.

- أتمنى لك التوفيق! وسأكون في انتظار الأنباء هذه الليلة.

أومأ، ثم قال وهو يلتفت نحو ميست: «ستكون الملكة أوفيليا تحت حمايتك.. عليَّ أنْ أذهب الآن».

قال ميست: «لا تقلق حيال هذا.. أتمنى لك التوفيق».

استدار الأعور مبتعدًا، ثم أغلق الباب خلفه.

مرت لحظات صمت قبل تزفر أوفيليا بعمق وهي تتجه لتجلس على كرسي خشبي عتيق.. همست وهي تشير بسبّابتها إلى الكرسي المقابل: «اجلس يا ميست».

جلس يلفه الصمت، وكان يبدو أنّ عقله منشغل بكثير من الأفكار التي أرهقته.. ذلك الأعور.. يعامله وكأنه نسيَ ما حدث بينهما في الماضي.. بل لم يبدِ أي رد فعل منذ أنْ التقيا بشأن أوفيليا.. إنه يعلم أنّ ميست السبب وراء فقدانه لعينه وأصابعه.. ورغم ذلك لا يُظهر أي رد فعل تجاهه.. صحيح أنّ الظروف تغيرت.. ولكن هذا لا يعني أنه نسيَ ما حدث.

قالت أوفيليا وهي تنظر إليه لتنتشله من سرحانه: «شكرًا لك يا ميست.. أنا ممتنة لك حقًا».

فوجئ حين امتدت يدها لتضغط على كفه.. ورغم أنه كان يتحرق إلى اللحظة التي يجتمعان فيها معًا خارج السجن.. فإنه لم يكُن قادرًا على إيجاد الكلمات المناسبة.

عادت لتسأله: «ماذا هناك يا ميست؟ ما بك؟»

كانت تدرك أسباب وجومه جيدًا.. تدرك جيدًا أنه صار يكِن لها بعض المشاعر خلال الشهور المنصرمة.. وتدرك تمامًا خوفه من القادم.. وقلقه حيال وعدها بتأمين حماية مملكته.

قالت بابتسامة وهي تقترب منه لتجبره على النظر في عينيها: «لا تحتفظ بمشاعرك لنفسك.. أفصح عما لديك».

قال بعد هنيهة من الصمت وهو يسحب كفه من قبضة يدها: «تعلمين يا أوفيليا أنني لم أفعل ما فعلتُه من أجلك.. بل من أجل حماية مملكتي.. سأعتبر أني وفيت بوعدي حين تجلسين على عرشك، وسيحين عندها دورك لتفي بوعدك لي».

اتسعت ابتسامتها بينما تساءلت في داخلها عن سبب مكابرته حتى الآن واستمراره في إنكار مشاعره الشخصية، قالت في هدوء: «أنا أدرك هذا.. لا حاجة لهذا الخوف».

- أنا أضع مستقبل مملكتي بين يديك.. لأنني مجبر على الثقة بك.. تعلمين أني لا أملك خيارًا آخر.

اتسعت ابتسامتها وهي تردف: «أنا أيضًا كنت مُجبرة على الثقة بك.. وبسبب ذلك تحررتُ من سجني.. أحيانًا نُجبر على وضع ثقتنا في أناس لم نكُن لنثق بهم في ظروف أخرى، غير عالمين بأنّ ذلك الخيار الذي نظنه أقبح الخيارات، هو في الحقيقة أفضل الخيارات الممكنة».

لم يُشح ببصره عن الأرض.. ولم يرد جوابًا، مفضلًا عدم الخوض أكثر في هذا الحديث.



في الكهف الجبلي، أخذت إيفي تشعل الشموع إثر بدء تخييم الظلام، بينما جلست بريشيليا عند مدخل الكهف، تتناول بعضًا من الفاكهة التي أحضرها ماريون.. أما سيسيل، فأخذ يرقب الحساء الذي وضعه على نار صغيرة.. لقد صارت معدته تتقبل بعض الأطعمة الصلبة، ولذا وضع بعض قطع البطاطس والجزر في ذلك الوعاء.

نهض ماريون بعدما وضع المؤن التي جاء بها أرضًا، قال مستئذنًا: «أميرتي.. عليَّ أنْ أذهب.. هل تحتاجين إلى شيء آخر؟»

هزت بريشيليا رأسها نفيًا، ولكن سيسيل نطق ليوقفه: «مهلًا».

- ماذا هناك؟

رفع سيسيل ناظره إليه وهو يسأل: «هل تعرف مكان سيروس؟»

بدت أمارات الاستغراب على وجه ماريون، لكنه أجاب: «أنا لا أعرف مكانه.. لقد انقطعت أنباؤه منذ مذبحة الصومعة».

- كيف علمتَ بنجاته؟

- كنتُ ضمن الفرقة التي ذهبت لتفقد الأحوال بعد المذبحة.. وأخبرني مَن نجا مِن تلاميذه أنه اختفى قبل يوم من المذبحة.. حاولت معرفة المزيد عن سبب ومكان اختفائه، ولكني وصلت إلى طريق مسدود.. ثم كففت عن البحث.

تدخلت بريشيليا مخاطبة سيسيل: «لمَ أنتَ مهتمٌ بأمر سيروس؟ ما الذي تريده منه؟»

ولكن قطع حديثهما قدوم مُساعد الطبيب، كان الخوف يبدو على وجهه، قال بعد أنّ التقط أنفاسه المتلاحقة: «إنّ الأمور معقدة في قلعة القمم الدخانية.. جميع الطرق المؤدية إلى القلعة مغلقة.. ويُقال إنّ الجنود يحاصرون القلعة».

قطبت بريشيليا جبينها وهي تتساءل: «جنود مَن؟! جنودنا؟!»

- نعم.. إنهم جنودنا.. يبدو الأمر وكأنه محاولة انقلاب.

تدخلت إيفي متسائلة بينما ارتسم على وجهها الخوف: «انقلاب مَن؟!»

قالت بريشيليا بنبرة مشوبة بالقهر: «أوفيليا.. لا أحد سواها قادر على فعل هذا».

اعترض ماريون، «لكن الأميرة أوفيليا سجينة.. ومفتاح زنزانتها الوحيد مع نايت! مِن المستحيل أنّ تخرج من زنزانتها».

أجابته بريشيليا وهي ترسم ابتسامة ساخرة على وجهها: «إنّ هذه الأفعى تفعل دائمًا ما يعجز الجميع عن تصوره.. اذهب إلى هناك يا ماريون وحاول تبين الأمر.. علينا أنّ لا نفقد مصادرنا وسط هذه الفوضى».

ردَّ ماريون: «أمرك أيتها الأميرة.. أرجوكِ لا تبرحي هذا المكان في غيابي.. علينا أنّ نتبين الأوضاع أولاً».

- أرجو أنّ تتوخى الحذر.. سنكون في انتظارك.

أومأ احترامًا، ثم استدار مبتعدًا.

مساء ذلك اليوم، جاء فارسٌ مُرسَل من قِبل آرون، على ظهر جواد من الجياد السريعة التي تستُخدم لنقل الرسائل العاجلة.. وتوقف أمام قلعة القمم الدخانية، إثر المنظر الذي فوجئ به.

كان جنود الكتائب يحيطون بالقلعة من كل صوب.. وكانوا متحفزين ومدججين بالسيوف والدروع.. كأنهم في أرض معركة حامية.

لقد جاء الفارس من جهة مملكة الصحاري ليطلب الدعم لآرون وفرسانه العالقين في مخيمهم، وبدا له أنّ تلقّي الدعم لن يكون بهذه السهولة.. ولذلك اتخذ له مخبأ يراقب منه ما يجري.

بوابة القلعة الكبيرة تُفتح.. ويخرج الكثير من جنود الكتائب بسيوفهم ودروعهم الملوثة بالدماء.. ثم يدوي صفير من أحد الأبواق.. يليه اصطفاف جنود الكتائب على جانبي البوابة كأنهم في استقبال ملكي.

لقد انتهت المعركة.. وبدا واضحًا أنّ النصر كان حليف الجنود.

واتسعت عينا الفارس صدمة وهو يدرك ما حدث.. فمن العربة المتوقفة قبالة القلعة، ترجلت أوفيليا.. ترتدي ثوبها الملكي وتاجها اللؤلؤي، شاقة طريقها إلى داخل القلعة.. ومِن خلفها، سار ميست وثلاثة من كبار رجال المملكة، تعرّف عليهم على الفور.

تراجع وهو يدرك أنه لن يكون قادرًا على الحصول على أي دعم.. وعاد أدراجه لينقل هذا النبأ لآرون ونايت العالقين وسط الصحراء.

في بهو قلعة القمم الدخانية، وعلى العرش الملكي، جلست أوفيليا.. في مشهد مهيب أصاب الجميع بالرهبة إثر القوة التي تملكها هذه الأميرة.. أو لنقل.. الملكة.

كانت ممرات القلعة تتكدس بجثث رجال البوم الهالك، فقد كانت أوامرها تقضي بقتلهم ومنعهم من الهرب.. حتى إنْ استسلموا.. ولكن بعضهم تمكن من الهرب بعد كل شيء.. فقد كان الانسحاب من مبادئهم، وكان الاختباء هو أول ما يفعلونه عند تعرضهم لهجوم غير متوقع يعلمون أنه سيستهلك قواهم.

أخذت أوفيليا ترمق البهو الذي اصطبغ بالأحمر، بعد أنْ تم إزاحة الجثث التي كانت تنتشر فيه.. وقفت ترمق الرجال الذين وقفوا في البهو، يخفضون رؤوسهم لمَلِكَتِهم الجديدة.. قالت بصوت جهور: «كما تعلمون.. كان البوم الهالك آفة وجب التخلص منها.. لقد تمكنوا من السيطرة على القلعة بخداع شقيقي آرون واستغلال خروج والدي.. ولكننا تمكننا من نتف ريشهم.. ولا أظن أنهم سيُظهِرون أنفسهم للعلن مجددًا.. ليس في عهد حكمي».

صمتت هنيهة قبل أنْ تتابع: «تعلمون أنهم يبسطون نفوذهم في مملكة الصحاري أيضًا، ولذلك يتوجب علينا أنْ نصحح بعض الأمور هناك».

لم تكُن قد تحدثت مع ميست بشأن الخطوة القادمة حيال مملكة الصحاري، ولذا تحفز إثر ذكرها لمملكته.

- سنتابع ما كان آرون يفعله، ولكننا سنفعله بطريقتنا.. يجب أنْ تكون مملكة الصحاري تحت سيطرتنا.

بدا ميست مبهوتًا إثر ما تقول، وكاد ينطق متسائلًا، حين أحس بمن يقبض على معصميه ليقيده بسلسلة سميكة.

صاح فيها غير مصدق لما يحدث: «مـ.. ما الذي تفعلينه يا أوفيليا؟! أين وعدك؟! لقد كان بيننا اتفاق! لا يمكنكِ أنّ تفعلي هذا!»

ولكنها لم تلتفت نحوه.. وسرعان ما غاب عن الأنظار بعد أنّ دفعه بعض الرجال إلى الخارج، ليودعوه إحدى زنزانات برج السلاسل.

تابعت خطابها: «سنذهب لإنقاذ الفرسان الذين خرجوا مع آرون، وسنتابع المسير إلى مملكة الصحاري.. لكننا لن نتسرع.. يجب أنّ نتأكد من استقرار الأمور في القلعة أولًا».

عادت لتجلس على عرشها، ثم أخذ الرجال بالاستئذان تباعًا، يتناوبون الوقوف أمامها ليعلنوا إخلاصهم لها.

وبدا عليها التعجب حين طلب الوقوف أمامها أحد الحُراس.. عندها تدخل الأعور لينهره، فإعلان الإخلاص مقتصر على كبار الرجال والمسؤولين فقط.. ومن الوقاحة أنّ يزاحمهم حارس عادي.. لكن أوفيليا طلبت منه السماح لذلك الحارس بالمثول أمامها.

كان يخفض رأسه، قال بصوت بدا فيه التوتر: «أنا أعتذر عن وقاحتي أيتها الملكة لمقاطعة مراسيم إعلان الإخلاص.. لكنني أريد أنّ أطلعكِ على أمر يهمك جدًا.. وأخشى أنّ أتأخر فيفوت أوانه».

سألته في فضول: «تكلم.. ماذا لديك».

- شقيقتك.. الأميرة بريشيليا.. أنا أعرف مكان اختبائها.. لكنها تتفق مع كثير من حراس وخدم القلعة.. وأخشى أنْ تهرب إنْ تأخرنا.

بدت على وجه أوفيليا نظرة متفهمة، سألته: «هلّا عرفتني عن نفسك؟»

أجاب بصوت بدا فيه بعض الخجل: «يدعونني بماريون الصغير أيتها الملكة».

أومأت، ثم التفتت إلى الأعور آمرة: «سترافق ماريون حالًا إلى المكان الذي تختبئ فيه بريشيليا وستأتي بها بأسرع ما يمكن.. هي وجميع مَن يرافقها.. وستأخذ ما لا يقل عن عشرة رجال معك».

«أمرك أيتها الملكة». قالها وهو يشير لماريون باتباعه، ثم انْسَل خارج البهو الملكي مسرعًا.

كانت بريشيليا وإيفي تغطان في نوم عميق حين فزعتا إثر الضجة على مدخل الكهف.. احتضنت إيفي أميرتها بقوة وهي تحاول استيعاب ما يحدث.. كانت الضجة توحي باشتباك سيسيل ومُساعد الطبيب مع بعض الرجال، وأدركتا أنّ هؤلاء الرجال قد ربحا العراك.. فقد اندفعوا إلى داخل الكهف ليقبضوا عليهما، ثم دفعاهما إلى الخارج حيث دسوا بهما في عربة مكشوفة جلس فيها سيسيل ومُساعد الطبيب بوجهين دامِيَين امتلآ بالكدمات.

تحركت بهم العربة، وكانت بريشيليا تنتفض ﴿ الداخل.. غير قادرة على تصديق ما جرى للتو.. هل تم القبض عليها مجددًا؟! لقد بذلت كثيرًا من الجهد لتهرب! كانت غير قادرة على النطق بأي كلمة.. وبدت ﴿ نظرتها الزائغة خيبة أمل ويأس عميق لم تشعر به من قبل.. لقد فشِلت.. لن تتمكن من التخطيط للهرب مجددًا.. لا يمكن أنْ تحصل على فرصة الهرب ثانيةً.. هذه هي نهايتها حتمًا.

أما سيسيل، فكان مطرق الرأس، يشعر بخواء وانكسار لا تعبر عنه الكلمات.. هل سيتحمل الخضوع لتحقيقات جلادي البرج ثانية؟! يدرك أنه لن يستطيع النجاة مجددًا.. لا يستطيع تحمل أنْ يُعاد ما حدث له ﴿ ذلك البرج.. سينهار جسده وعقله.. سيموت سريعًا جدًّا.. مرت ﴿ ذهنه ذكرياته من قبل التورط مع أوفيليا.. وتذكر حجم طموحه وأحلامه التي لم يحقق منها شيئًا على الإطلاق.. لقد بذل كثيرًا من الجهد ورغم ذلك عاش حياة تافهة.. ورغم ذلك سيموت ميتة تافهة!

- لو أنني قتلتُها تلك الليلة.. لو أنني قتلتُها.

كان ذلك ما أخذ يتمتم به كالمجنون وهو يتذكر ليلة تسلله إلى حجرة أوفيليا السرية.. كانت تلك فرصة ذهبية أضاعها طامعًا ﴿ الانتقام من العالم أجمع.. وبدلًا من أنْ ينتقم من العالَم.. انتقم العالَمُ منه..

- لو أنني قتلتُها.. لو أنني قتلتُها..

وأسكتته صفعة من الحارس الجالس بجواره، «تقتل مَن؟! لن تقتل أحدًا أيها اللعين! أنت مَن سيموت إنْ لم تكُن قد أدركتَ الأمر بعد!»

قبيل منتصف الليل، جاءت أوفيليا لتزور زنزانة ميست.. أمرت الحارس بفتح الباب، ثم دلفت إلى الداخل.. ووقفت ممسكة بشمعتها، تنظر إليه وهو يجلس مسندًا ظهره إلى الجدار، يتأمل الفراغ.

قالت لتخرق الصمت: «لا يمكنني أنْ أخاطر بالوثوق بك.. لقد حصلتُ على ما أردتُه منك.. ويجب أنّ لا أمنحك أي فرصة لإيذائي.. أرجو أنْ تتفهم سبب تصرفي هذا».

- أنتِ تشعرين بالخوف وعدم الأمان.. ترفضين تصديق فكرة وجود مَن تبادلينه الثقة دُون مصالح.

- أنت نفسك أخبرتني بأنك كنت مجبرًا على الوثوق بي من أجل حماية مملكتك وحسب.. لم تكُن ثقتك بي خيارًا واردًا في الظروف العادية.. ولهذا لا يمكنني أنْ أثق بك إنْ لم أكُن في ظرف يجبرني على ذلك!

- لكنكِ تدركين أنّ الحقيقة ليست كذلك.

- حقيقة.. ماذا؟

التفت لتلتقي عينيه بعينيها، قال بهدوء وكأنه يؤكد أمرًا مفروغًا منه: «حقيقة مشاعري تجاهك.. وحقيقة مشاعركِ تجاهي.. إنّ ما بيننا أعمق من صفقة مؤقتة من أجل مصالحنا الشخصية.. أنت تدركين هذا.. لا يمكنكِ أنْ تنكري وجود مثل هذه المشاعر».

كانت تنتظر اللحظة التي سيقرر فيها الإفصاح عن مشاعره تجاهها منذ شهور مضت.. ورغم أنها حاولت تحفيزه لينطق بهذا سابقًا، فإنه لم يفعلها.. وشعرت بشيء من الغضب لأنه انتظر اللحظة التي يستحيل بعدها أنْ يبقيا معًا حتى يفصح أخيرًا عن تلك المشاعر! وتساءلت عما كان سيحدث إنْ نطق مسبقًا.. هل كانت ستتقبل الأمر وتخبره بأنها تشاركه مشاعره؟ هل كانت ستكون لها ردة فعل مختلفة وهل سيؤثر ذلك على قرارها الذي اتخذته حياله بعد انتصارها؟ ورغم تلك الأفكار التي جالت بالها.. فإنّ نظرتها الثابتة لم تعكس أيًا من ذلك.

حلت وهلة من الصمت قبل أنْ تجيبه بالهدوء ذاته: «لا يغير إدراكي لأي أمر أي شيء.. أنت لا تعرفني حقًا.. حتى وإنْ كانت مثل هذه المشاعر لها وجود.. فأنا أملك القوة لدفن مشاعري وتجاهلها تمامًا.. لا يمكن أنْ تؤثر مشاعري في قراراتي.. لو كنتُ أتصرف وفق مشاعري لَما كنتُ أجلس على العرش الملكي».

- يمكننا أنْ نتشارك في حكم مملكة القمم الدخانية ومملكة الصحاري.. سأعطيكِ السلطة على مملكتي.. وسنكون ثنائيًا متناغمًا.. تعلمين أننا يمكن أنْ نشكل ثنائيًا فريدًا.

- ربما إنْ كنا في زمان ومكان آخرين.. ربما في قصص الأطفال ذات النهايات السعيدة.

- وربما في هذا الزمان والمكان.. أنتِ تملكين الخيار.. لكنكِ تتظاهرين بأنك لا تملكينه.

قالت بنبرة تبدى فيها القهر: «أنت لا تعرفني.. لا تعرف شيئًا عني! لا يمكن أنّ تكِن لي سوى مشاعر الكره والبغض إنّ علمتَ بحقيقتي!»

- وهل تظنين أني ملاك؟ أنا أيضًا أتحمل كثيرًا من الخطايا.

- لا تقارن نفسك بي! هل تعلم أني شققت جمجمة طفلة كانت تحبني وتخدمني بإخلاص؟ كنت أحبها كثيرًا.. ولكني تمكنت من دفن مشاعري هذه من أجل القيام ببعض الطقوس السحرية! ولستُ نادمة على شيء! لا يمكنك أنّ تحاججني بمشاعري تجاهك.. هذه المشاعر التافهة لا قيمة لها على الإطلاق! لا يمكن أنّ تشكل أي فارق لدي!

عاد لينظر إلى الفراغ.. تمتم: «كما تريدين.. لكنني سأكون هنا من أجلك.. ولن يتغير موقفي تجاهك.. أريدك أنّ تعلمي أني لن أؤذيكِ مهما حصل.. سأنتظرك.. وسأقف إلى جانبكِ مجددًا إن بدّلتِ رأيكِ حيالي لاحقًا».

لم ترد جوابًا، بل استدارت لتخرج من الزنزانة، ولم تدرِ ما كنه تلك الدموع التي تجمعت في مقلتيها، ولكنها سارعت بمسحها بكفها وأخذت نفسًا عميقًا تداري به هذه المشاعر الغريبة التي اجتاحتها.. ثم ابتعدت.

أما هو، فلم يستطِع فهم السبب الذي يمنعه حتى هذه اللحظة من نبذها وكرهها.. كان يظن أنّ غدرها به سيقلب موقفه تجاهها.. ولذلك كان حريصًا على أنّ لا يظهر مشاعره الشخصية تجاهها من

قبل.. ولكن كيف يمكن أنْ لا تتبدل مشاعره حتى بعد أنْ تخلت عنه؟ ـ في داخله.. كان يدرك أنّ السبب وراء موقفها منه هو الخوف فقط.. لم يكُن يرى شيئًا آخر ـ في عينيها.. إنها خائفة.. ولهذا تتخلى عن أي شيء قد يعترض طريقها من أجل أنْ تحقق أهدافها.. تدوس على كيانها وذاتها من أجل أهدافها.. ولكن ما هي أهدافها الحقيقية؟! لماذا تريد احتلال مملكته بهذا الإصرار؟ كان ذلك ما أخذ يدور ـ في خلده وهو يحاول أنْ يفكر ـ في الإجابات دُون جدوى.



الفصل السابع عشر
النّفي

فجر اليوم التالي، جاءت أوفيليا لتزور برج السلاسل مجددًا، هذه المرة، كانت تتجه إلى الطابق الذي تم إخلاؤه من أجل بريشيليا ورفاقها فقط.

سارت بخطواتها الهادئة وسط نور المشاعل وضوء الشمس الخافت الذي بدأ يتسلل من فتحات الجدران العلوية.. وتوقفت أمام زنزانة بريشيليا التي لم تكُن ذاقت طعم النوم بعد.. كانت تجلس ضامة ركبتيها، بينما أطلت من عينيها نظرة يأس.

- ستموتين الليلة يا بريشيليا.

كان ذلك ما نطقت به.. ولم ترد بريشيليا جوابًا.

- لا أظن أني سأكون قادرة على تحمل وجودك في حياتي.. كنت أظن أنّ بإمكاني تجاهلك دائمًا، ولكنكِ أثبتّ أنك قادرة على أنْ تسببي الكثير من الإزعاج.. ولذا وجب عليَّ التخلص منك.

ولم ترفع بريشيليا رأسها.

عادت أوفيليا لتقول بالهدوء ذاته: «لا تريدين أنْ تنظري إلى وجهي؟ يبدو أنّ عليَّ أنْ أجبركِ على ذلك».

ثم التفت إلى مُرافقها الأعور، ففهم إشارتها واتجه مباشرة إلى الزنزانة التي تُحبس فيها إيفي.. فتح باب زنزانتها وهو يسحبها إلى الخارج، بينما أخذت إيفي تبكي في صمت مرتعشة الأوصال.

نجحت هذه الجَلَبة الصغيرة بانتشال بريشيليا من صمتها، وهُرعت إلى قضبان زنزانتها تصيح في أوفيليا: «اتركيها! اقتليني أنا ولكن اتركي إيفي في حال سبيلها! أرجوكِ!»

ولكن سيف الأعور سبق رجاءها.

سقطت إيفي أرضًا بعد أنْ شق ذلك النصل أوردة عنقها.. وسالت دماؤها لتكون بركة حمراء صغيرة، على مرأى من الزنزانات الأربع.

شعرت بريشيليا وكأن أنفاسها تتقطع.. ولم تستطِع النطق بكلمة أخرى.. بل أغزرت دموعها في عينيها المتسعتين وهي تحاول استيعاب أنها فقدت للتو، المرأة التي ربّتها طيلة حياتها.. المرأة التي عرفتها أكثر من والدتها التي توفيت منذ ولادة آرون.. والتي لا تكاد تتذكرها.. كان قلبها ينبض بعنف.. باعثًا رجفة بادية في شفتيها وأطرافها.

اقتربت أوفيليا منها هامسة: «سأقتلكم جميعًا.. ولكني سأحرص على قتل رفاقك الأعزاء أولًا.. أريدك أنْ تتألمي وتندمي على كل لحظة قضيتِها في حياتك».

ثم استدارت مبتعدة إلى الخارج، تاركة وراءها صمتًا ثقيلًا وجوًا مشبعًا برائحة الموت.

❧

في خيمته الصغيرة وسط المخيم.. هبّ آرون ونايت واقفين إثر عودة الفارس الذي أرسلوه طلبًا للدعم.. بدا وكأنه غير قادر على الحديث.. يفكر في كيفية صياغة النبأ الذي جاء به.

سأله نايت: «ما الذي حدث؟ هل سيأتينا الدعم الذي نحتاجه؟»

أجاب الفارس متلعثمًا: «سيدي.. لقد حدثت كارثة».

اتسعت عينا نايت وهو يعاود السؤال: «ما الذي حدث؟!»

رفع الفارس عيناه، ليقول في تردد: «لقد خرجت الأميرة أوفيليا من سجنها.. وارتكبت مذبحة كبيرة ضد رجال البوم الهالك.. إنها.. إنها الملكة الآن.. لقد بايعها جميع رجال المملكة على الإخلاص».

ردَّ نايت بدهشة بالغة على وجهه: «كـ.. كيف خرجت؟! زنزانتها لا يمكن اختراقها.. أنا أحتفظ بمفتاح زنزانتها لدي! كيف خرجت؟!»

- لا أدري يا سيدي! لكنها خرجت!

مرت لحظات صمت أخذ يفكر فيها نايت وهو ما يزال غير قادر على التصديق.

عاد الفارس ليردف: «ولقد.. أعلنت بأنها ستأتي إلى مخيمنا لإنقاذنا واستكمال المسير إلى مملكة الصحاري».

ردَّ نايت: «لقد فهمت.. أرجو ألا تسرب هذا النبأ إلى الفرسان، يجب أنّ نحافظ على هدوئنا ونصبر قليلاً».

- لكنها آتية إلى هنا يا سيدي.

- لن تؤذي أحدًا من الفرسان.. بل ستتولى قيادتهم فقط.. ولذا لا ينبغي أنّ نثير فزعهم بلا داع.

قال الفارس بعد تردد: «ماذا.. عن الملك؟ كيف سنحميه؟»

- ستكون حمايته مسؤوليتي وحدي.. لن أحمّل أيًا منكم عبء ذلك.

أومأ الفارس احترامًا قبل أنّ يخرج.. وما إنّ اختفى عن الأنظار حتى التفت نايت إلى آرون هامسًا: «سنتسلل من هنا أيها الملك.. سنهرب قبل مجيئها».

كان آرون ينظر إلى الأرض وهو ما يزال تحت تأثير المفاجأة.. قال بتردد: «نهرب.. إلى أين؟»

- إلى مقرنا الرئيسي.. إلى وكر البوم الهالك.

فتح سيسيل عينيه ليجد نفسه في مكان خافت الضوء، ورغم ذلك لم يتسطِع فتح عينيه كاملتين إثر السطوع الذي انبعث من ذلك الضوء الغريب.. وقبالته، لمح الشيخ الذي جلس مرتديًا ثيابًا بيضاء فضفاضة.

قال سيسيل بعد هنيهة من التأمل: «سـ.. سيروس؟ هل أنت سيروس؟»

أجاب الشيخ بكلمات هادئة صارمة: «نعم.. إنه أنا يا سيسيل».

- أين اختفيت؟! وكيف؟!

- هذا لا يهم الآن.

- وما الذي يهم إذًا؟!

بدت عيني سيروس أكثر لمعانًا وهو يتابع بالنبرة الجامدة ذاتها: «يجب أنْ تصحح أخطاءك يا سيسيل».

- أي خطأ؟

- إينور.. لقد أخطأتَ بالتعاون معها.

عقد سيسيل حاجبيه وهو يرد معترضًا: «لا أظن ذلك.. فقد ساعَدَتني هذه المرأة كثيرًا.. هي من عَلّمني كل شيء أعرفه عن الوشوم».

نهض سيروس من كرسيه متجهًا إلى سيسيل بخطواته البطيئة، ثم مد يده ليكشف ذراع سيسيل اليمنى: «لقد خدَعَتك حين رسمت لك آخر وشمٍ على ذراعك».

- لكنني انتقلتُ إلى حجرات الصومعة إثره.. لقد اتفقنا على ذلك ونفذته هي بنزاهة.

- ألم تعلم بَعد لمَ فشلتَ في الانتقال حين أردتَ الهرب من رجال البوم الهالك؟ لقد رسمتَ وشم الانتقال الذي كنتَ تتقنه كاسمك.. ورغم ذلك لم يحدث أي شيء.. وقفتَ مشدوهًا تنتظر أنْ تبدأ عضلاتك بالتقلص.. ولكن رجال البوم الهالك اقتحموا المكان وقادوك إلى برج السلاسل.

كان يتحدث بثقة وكأنه يرى الموقف أمامه.

بدت الدهشة واضحة على وجه سيسيل.. تابع سيروس: «ألم تفهم بعد لمَ أصرّت إينور على أنْ ترسم لك وشم الانتقال الذي أعادَك إلى عالمنا؟ لقد فعَلت ذلك لأنها أرادت رسمَ وشم آخر.. لم يكُن ما رسمَتْه وشم الانتقال الذي تعرفه».

- ماذا كان.. ذلك.. إذًا؟

قالها وهو يحاول تبين الوشم الذي رُسم أعلى ذراعه اليمنى، ولم يكُن قادرًا على تبينه كاملًا كونه رُسم في زاوية ليست في مجال نظره.

قال سيروس مجيبًا: «لقد رسمت لك وشم النَّفي.. لقد طَرَدَتك من عالمها دُون عودة.. لذلك لم يَعُد لوشم الانتقال العادي أي تأثير».

- ولـ.. لماذا قد تفعل هذا؟

- أرادت منعك من العودة إلى عالمها وإفساد ما صَنَعَتْه.. لقد رَسَمَت على ذراعك الوشم ذاته الذي تسبب بنفيها من عالمنا.. ولقد أخفت هذه الحقيقة عنك حتى تتمكن من عقابك بالوشم ذاته.

أومأ سيسيل وهو يشعر بجذوة من الكراهية تشتعل في داخله تجاهها.. الآن يدرك أنه كان مجرد أبله تلاعبت به كما تريد.. ثم تخلصت منه.

عاد سيروس يسترسل في حديثه: «ورغم ذلك.. سيكون عليك أنْ تعود إلى هناك وأنْ تقضي على ما تسببت به إينور من فساد.. عليك أنْ تزيل كل الآثار التي ترتبت على تسريب وثيقة إنبات الحجر النيزكي».

- وما هي هذه الآثار؟

- لقد نشأت حضارة بشرية جديدة إثر تسريبك تلك الوثيقة.. إنهم يسمون أنفسهم بالترايفوس.. ويتمتعون بالقدرة على التخاطر.. وتلقي النبوءات.. وعلى رؤية الأرواح التي تنتمي إلى عوالم لا ينبغي لهم الاحتكاك بها.. إنّ هذا أمر خطير.. وهم يتوارثون الأمر كأنه مُهمة مقدسة.. يستمرون بتطوير هذه القدرات التي قد بدأت تتخذ منحىً مدمّرًا.

- كنتُ أظن بأنّ التخاطر هو القدرة الوحيدة التي طورتها إينور.

- صحيح.. ولكن مرت قرابة الأربعمئة عام حتى الآن في عالمها.. لقد حدث الكثير منذ أنْ زُرتَ ذلك العالَم.

سأله سيسيل بعد وهلة بدا فيها سارحًا: «وكيف يمكن لي أنْ أزيل تلك الآثار؟»

- سأرسم على ظهرك وشمَ نفي آخر أقوى من وشمها.. ستزول آثار وشمها كأنه لم يوجد.. وسأعاقبك بالنفي إلى عالمها.. لن تتمكن من العودة قبل أنْ يندثر الإرث الذي جاءت به إينور.. وهذا سيحدث إنْ قمتَ بالتخلص من آخر سليلاتها، فوفقًا لقوانينها، لا أحد سوى سليلاتها يملك الحق على تداول العلم الذي ورثوه منها.

- ستنفيني مجددًا؟ وكيف سأتمكن من العودة؟

- إنّ الوشم الذي سأرسمه على ظهرك مختلف.. إنه وشم شرطَي.. يزول بمجرد تحقق الشرط.. وسيكون الشرط أنْ ترسمَ أنت وشم الموت على جسد آخر سليلات إينور.. حينها سيزول أثره.. وستتمكن من العودة باستخدام وشم الانتقال العادي.

- «مـ.. ماذا إنْ لم أتمكن من تحقيق هذا الشرط؟

- «ستظل منفيًا في ذلك العالم إلى الأبد! هذا عقاب لا يُذكر إثر الفساد الذي تسببتَ به.

- لكن.. لـ.. لماذا تريد عقابي بهذا الأمر؟ ومن أين علمتَ بكل هذه التفاصيل عن إينور؟ و.. ومنذ متى وأنت تجيد رسم الوشوم المحظورة؟

لم يرد سيروس جوابًا.. وسرعان ما تلاشى.. مخلفًا وراءه أضواءً صغيرة فطن سيسيل إلى أنها يراعات.. ثم فتح عينيه ليجد نفسه غارقًا في العرق.. يفترش أرضية زنزانته.

نهض شاعرًا بالضياع، ثم جلس على حافة سريره محني الظهر، مستغرقًا بالتفكير في ذلك الحلم.. أكان حلمًا حقًا؟! لقد بدا حقيقيًا جدًّا! ذلك الحوار الطويل مع سيروس حمل إليه إجابات كثيرة.. لا يمكن أنّ يكون هذا مجرد حلم!

ترجل نايت وآرون من ظهر الجواد الذي تسللوا به من المخيم، وتوقفوا قبالة ميناء صغير.. قال نايت مشيرًا إلى السفينة الصغيرة التي كانت ترسو في انتظارهم: «هيا أيها الملك».

- لم أعُد ملكًا.. نادني آرون وحسب.

- نحن لا ننادي بعضنا بأسمائنا.. لكل فرد من البوم الهالك لقب.. وأنا أرى إنّ لقب الملك يليق بك أكثر من أي لقب آخر.

مرت هنيهة صمت تأمل فيها آرون قبل أنّ يردف: «أهذا يعني أنني أصبحتُ فردًا منكم الآن؟»

- بل ستصبح.. لا أظنك تمانع.

ابتسم آرون: «بالطبع لا.. لكني سأعود يومًا ما لأحقق لقبي.. ولأجبر جميع سكان المملكتين على مناداتي به».

ابتسم نايت بدوره وهو يساعد آرون على النزول إلى الميناء.

عاد آرون يسأل: «أتساءل عن لقبك أنت».

- يعرفني البوم الهالك بالصرّاف.

- الصرّاف؟! يا له من لقب معبّر.. حسنًا.. فلنرحل أيها الصرّاف!

ثم دلف الاثنان على ظهر تلك السفينة التي سرعان ما غادرت الميناء لتغيب وسط المحيط.

جفلت بريشيليا إثر الشيخ الذي فوجئت به جالسًا في زاوية زنزانتها ظاهرًا من العدم.. كادت تنطق.. لولا أنه أشار لها بالصمت.

سار ليختبئ خلف قضبان سريرها الحديدي، مشيرًا لها باتباعه..

اقتربت، وقبل أنْ تبادره بأي سؤال همس: «سأرسم على ظهرك الوشم الذي سيخرجكِ من هنا.. أرجو أنْ تكشفي لي عن ظهرك.. وأنْ تتحملي الألم.. يَجب أنْ ننتهي قبل قدوم الجلادين الذين أرسلتهم أوفيليا للتو لقتلك».

لم تجادل، وجلست لتكشف له عن ظهرها بينما تدور في خلدها الأسئلة.. هل ستنجو؟ هل ستخرج حقًا؟! ثم أغمضت عينيها إثر الألم الذي باغتها مع أول وخزة.

- أرجوك حافظي على هدوئك أيتها الأميرة.. يجب أنْ تتحملي هذا الأَلم.. إنها فرصتك الوحيدة للنجاة بحياتك.

ابتلعت ريقها وهي تحاول الحفاظ على هدوئها.. ولكنها لم تستطِع منع تلك الدموع التي تجمعت في مقلتيها إثر ذلك الألم.. كانت تشعر برغبة بالصراخ.. ولكنها عضت على أسنانها مانعة نفسها من ذلك.. يجب أنْ تتحمل.. يجب أنْ تنجو.

ولم يمضِ الكثير من الوقت حتى ترددت أصوات الخطوات القادمة.. خطوات أحذية ثقيلة ينتعلها الجلادين في العادة.. تبعتهم خطوات أكثر خفة ورقة، للملكة التي سارت بهدوء تجُرّ ثوبها الطويل.

همس الشيخ: «أكاد أنتهي».

حاولت التنفس بعمق مستجمعة نفسها: «مـ.. ماذا عن.. سيسيل؟»

- لقد رسمت ذات الوشم على ظهره أيضًا.. ستخرجان من هنا معًا.

الخطوات تقترب.. ثم تتوقف.. ويرتفع صوت الملكة بنبرته الهادئة: «اقتلوه أولًا».

كانت تشير إلى زنزانة سيسيل.. واندفع أحدهم ليفتح الباب.. ثم فوجئ بخلو الزنزانة.. دلف عدة رجال إلى الداخل ليتبينوا أي آثار للهرب.. ولكن لم يكُن هناك أي شيء.

- لقد.. اختفى!

سارت أوفيليا مسرعة في اتجاه زنزانة بريشيليا، ودارت بعينيها في الزنزانة لتجدها خالية أيضًا.

- كـ.. كيف يمكن أنْ يهربا؟! عليكم أنْ تحققوا في ما حدث هنا فورًا!

كانت تلك أوامرها، وانطلق إثرها الرجال لينتشروا في البرج.

فتح سيسيل وبريشيليا عيونهما ليجدا نفسيهما وسط بلدة غير مألوفة.. كان الهدوء حولهما مريب.. وكانت النظرات التي يحدجهما بها المارة أكثر ريبة.

كيف يمكن أنْ يكون الحي بهذا الهدوء رغم ازدحامه؟! لِمَ لا يتكلم أحد؟!

كان ذلك ما أخذ يتساءل عنه سيسيل قبل أنْ يتذكر مُهمته التي تم نفيه إلى هذا المكان من أجلها.

هؤلاء القوم يستخدمون التخاطر.. وسيكون عليه أنْ يتعلمه ليتمكن من الاندماج في مجتمعهم.

همس لبريشيليا قبل أنْ يسحبها ليختفيا في أحد الأزقة: «نحن نثير الريبة بهيأتنا هذه.. علينا أنْ نستبدل ملابسنا أولًا».

- أين.. نحن؟ كيف خرجنا من البرج؟

- نحن في عالم مختلف تمامًا أيتها الأميرة.. نحن في أمانٍ من شقيقتك الآن.. ولكننا لسنا في أمان من قدرات البشر الخارقين هؤلاء.. سيكون علينا أنْ نتعلم قدراتهم.. سيكون علينا أنْ نصبح منهم.

يتبع...



